

البِيرَق

(حارةُ الوادي)

البيرق «حارة الوادي» (رواية)

شريفية التويي (كاتبة من سلطنة عمان)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري (87)، ط 1.

هاتف: 797162720، 65620722 (+962)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصوير وتصميم الغلاف: بدور الريامي / سلطنة عُمان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-419-1

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021/10/6042)

306

التويي، شريفية علي

البيرق: حارة الوادي / شريفية علي التويي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

ص (448)

ر. ل: 2021/10/6042

الواصفات: الروايات العربية // الأدب العربي // العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يبرر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

شريعة التوبي

البيرق

(حارة الوادي)

رواية



توضيح

لا وجود لشخصيات الرواية إلا في مخيلة
الكاتبة، وإن استُقيت بعض الأحداث من وقائع
حدثت في زمنها ومكانها، وما عدا ذلك فسرْدُ
أدبيٍّ مَحْضٍ.

الإهداء

إلى..

علي بن حمّد

في زمن كانت فيه الشجاعة رجلاً يقال له «وَلَدُ جُرَيْدَةَ».

«قُم بن جريدة من المَمات واحي عُصوَرًا ماضيات»

من فنّ العازي

(1)

في ليلة صيفية، فوق سطح البيت العود، تتقلب عويذة على فراشها،
تهش بمروحتها السَّعْفية البعوض الذي يطنّ حول رأسها، لعلّ نفحات
المروحة تساعد على النوم. تسمع صوته - وهي بين النوم والصحو-
يناديها:

- عويذة، عويذة.

تفرك عينيها لتبين وجهه، رآته بياضاً بعيداً لا يقترب، أرادت أن تتبعه،
ولكنّه كما في كلّ مرة يزورها، ينتظر بعيداً في العتمة، ملتفّاً بثوبه الأبيض،
فلا تدري وتسال نفسها: أهو جالسٌ أم واقف؟ أهو في الأرض أم في
السماء؟ تسمع صوته واضحاً، فتشعر بثقل يقيّد جسدها إلى الفراش
وكأنّها مُخدّرة، فلا تعرف إن كان ما تراه حُلماً أم يقظة، فتبقى كذلك حتى
يستدير مغادراً. تستيقظ لاهثةً وهي بين فزع وفرح، تستعيد أنفاسها، تتعوّد
وتبسمل، تسند رأسها إلى الوسادة، تتأمل السماء الممتلئة بنجوم تراقص
حول قمرٍ قد اكتمل، لعلّها ليلة الرابع عشر أو الخامس عشر من شعبان،
ليست متأكدة، كأنّها سمعته يقول لها:

- أرفعى النجوم يا عويذة، حتى النجوم تحتاج من يرعاها.

تتبع بعينيها أثر طيفه الصاعد نحو الجبل، تتساءل عمّا أتى به في هذه
الليلة وهو لم يزرها منذ فترة طويلة! رؤيته في الحلم إشارة إلى خير قادم.

شعرت بالسُرور، حاولت العُودة إلى النوم فلم يَغْمُض لها جفن، كلَّما أتى يأخذ النوم معه ويرحل.

ظَلَّت ساهرة ترقب النجوم المتراقصة في السماء، وتستعيد أحداث الليلة التي لم يَعد فيها من الصيد وقد أسدل الظلام سدوله على حارة الوادي، انتَظرتَه طويلاً في حوش البيت بالطابق العلوي، وبعدما طال انتظارها صعدت إلى السطح لعلَّها تراه قادمًا من بعيد، ولكنَّ ما من أثر له أو إشارة تدلُّها عليه، فعلى امتداد بصرها كانت الفلاة الشاسعة خلف الوادي ساكنة خالية إلَّا من أشجار تنعكس عليها أشعة القمر، فتبدو ساجدة وكأنَّها تسبِّح الله في صمت، ونباح كلاب يتنامى إلى سمعها من بعيد. تراودها الشكوك والوساوس: «لعله تجاوز الوادي واقترب من بَوابة الحارة حين صعدت إلى السطح»، تنزل مسرعة وتدخل إلى الغرفة المطلة بنافذتها على الطريق.

تجلس بالقرب من النافذة، تنصت إلى صوتٍ تهبُّ لها، لعلَّه هو، لكنَّ الصوت لم يكن سوى مواء قطط تتعارك، لعلَّهم سحرة، فهذه ليلتهم، ليلة السبت، تعوذت بالله منهم ومن الشيطان الرجيم. وظَلَّت بين طلوع إلى السطح ونزول.

أغلقت النافذة، كان صوت «صرَّار الليل» يتشتر وسط الحشائش ويخترق الجدران والنوافذ المغلقة. في تلك الليلة لم تذق عويذة طعم النوم، وبقيت ساهرة حتى أطلقت ديكة الحارة صياحها، ورفع المؤذن

صوته: «الله أكبر»، توضّأت بما تبقى من ماء في وعاء الهاندوّة، فلم تُسَعِفها قدماها المثقلتان بالقلق والترقب لحملها إلى المَجَازة لتُصلي الفجر مع نساء الحارة كعادتها. فرشت سَجَادَتَهَا، وحين بدأت بالصلاة وجدته داخلًا عليها، حاملاً بندقيته «الصَّمْعَة» على كتفه، ولا طرائد على كتفه الأخرى كعادته. تنحنح، أرادت قطع صلاتها، لكنّه أشار إليها أن تُكَمِّل. صلّت دون خشوع وعلى عجل، وحين أكملت صلاتها طوت سَجَادَتَهَا وهي ذاهلة، اقتربت منه لتتأكد أنّه بخير، تنظر إليه نظرة فاحصة:

- عساك بخير، توشّلت عليك...!
- أنا بخير، بَسِير ألحق على الجماعة، في المسجد.
- لم تلاحظ عليه تعبًا ولا إصابة، علّق ناصر بندقيته على وتد الجدار وخرج إلى المسجد اللصيق بيّتهم. اطمأنّ قلب عويّدة وعادت إليها سكيّنة روحها، نزلت إلى الطابق السفلي حيث المخازن والزرائب ودخلت زريبة البقر، حلبت مقدارًا يسيرًا كيلا تتأخّر، لا شكّ أنّه جائع بعد غياب يوم وليلة. حين رجع كانت عويّدة قد سخّنت له الحليب، ووضعتَه في السّماط مع قليل من العسل والخبز المتبقي من عشاء البارحة..
- ما لَحِقَتْ عليهم، الجماعة أنْهوا صلاتهم وكانوا راجعين، فصلّيّتها وحدي بنيّة الجماعة.
- تقبّل الله منك، وصلاتك واصله.

دنا من السّماط وأمرها أن تدنو معه، وما كانت تلك عادته ولا عاداتها،
فمنذ أن دخلت بيته وهو يأكل بمفرده، وتأكل هي ما تبقى من طعامه،
بادرته قائلة:

- اعذرني ما خبزت اليوم، كنت متوشّلة عليك، ما طاوعتني يدي
لأعجن وأخبز.

لم يعلّق على ما قالت، خلع عِمامته ومسح بيده على شعر رأسه
الأسود الناعم المنسدل حتى رقبتة، وبدأ يتناول طعامه بنهم وهي تنظر
إليه، مسح فمه ولحيته، وحَمَدَ الله، والتفت إليها وقال:

- حدث معي شيء عجيب.

أبقت الخبزة في يدها منتبهة بكلّ حواسها للعجب الذي سيقوله.

- عسى خير!

تعلّقت عيناها بشفتيه الرقيقتين وشاربه الأسود، في انتظار الحكاية التي
سيخبرها بها. بعد أن شرب الحليب تنهّد وسألها أن تحضر وسادة كي
يسند ظهره إليها. ركضت عويذة وأحضرت الوسادة ووضعتها على
الجدار..

- تعبان يا عويذة، تعبان.

شكا لها، ثم بدأ يروي ما حدث له..

ظلّ طوال النهار يبحث عن طرائد ولم يجد، كأنّ الفلاة قد ابتلعت في
ذلك اليوم طرائدها وحيواناتها، وحين أظلم عليه الليل وهو لم يصطد

شيئاً، سار في تلك الفلاة الواسعة باحثاً حتى عن أرنب صغير أو ضبّ يعود به لعشاء ليلة، فليس من الممكن أن يعود خالي اليدين، لكنّه كمن أصيب بدوار، أو ذُرّ في عينيه رماد؛ أظلمت الصحراء أمامه وما عاد يرى سوى السواد. مدّ كفّه فلم يكدرها من شدة الظلمة، وكأنّه في قعر جبّ، فلا سماء ولا قمر ولا نجوم، لم يشعر بالوقت الذي قضاه وهو على تلك الحالة، كان كمن غُيّب عن الزمان والمكان وكأنّ ذاكرته سُلِبَت منه، فلم يعد يذكر شيئاً، ولم يعرف أين هو، ولا بأيّ اتجاه يسير، وحين استعاد وعيه بوجوده في فلاة واسعة غريبة، قادته قدماه إلى طريق غريب مُمهّد لم يسر عليه من قبل.

أخذ يسير بغير هدى ولا دليل، ينظر إلى الفضاء الرّحّب فتلقّاه غُربة المكان ومتاهة الزمان، يرفع رأسه إلى السماء فيرى النجوم المتلاثلة المتراقصة والقمر قد اكتمل بدراً، ينير له الدرب ويضيء بأشعته الفضية أحجار الأرض القاحلة؛ فيراها كقطع من الفضة، وكأنّ العتمة التي غرق فيها قبل قليل لم تكن حيث هو الآن. ينظر حوله، يدير رأسه وعينه في كلّ الاتجاهات، يحاول التأكّد من فلاته التي يعرفها حق المعرفة، فهذه ليست فلاته ولا الفضاء فضاؤه، كان متأكّداً من ذلك، فكيف لا يعرفها وهو ناصر المعروف بابن الليل؟! ولكن يبدو أنّ الليل ابتلعه، أو ربّما أخذته الأحلام، يريد أن يصحوّ من حلمه ويخرج من تلك المتاهة. ظنّ أنّها ليلة القدر، لكنّه متأكّد أنّه حينما خرج من بيته لم يكن في شهر رمضان، غُيّب

عن نفسه وزمانه ودقة حساباته. يركض هنا وهناك، لقد أصابه «بو مدور» أو لعلّ السحرة سرقوه على حين غفلة منه، يلمس وجهه وساقه ويديه، إنه هو لكنّ إحساسه بالمكان غائب، يتشبث ببندقته خشية أن تكون شجاعته قد سُلبت منه، الرصاصة ما زالت في البندقية وجاهزة لإطلاقها بأية لحظة، لم يعتريه الخوف من ذلك المجهول الذي كان عليه أن يواجهه، يستعين بشجاعة قلبه، يطلق رصاصة في الفضاء ثم يطلق أخرى، يضع صوت الرصاصتين في ذلك الفضاء الأجرد، يُخرج من حزامه الملتف بخاصرته رصاصة ويُلْقِم بها صَمْعَتَه، يطلق رصاصة ثالثة في الهواء لعلّهم يخرجون ليواجهوه، يصرخ بأعلى صوته:

- هوووووووووه...

يتبدد صوته في ليل الفلاة ثم يرتد إليه من جبل قريب. يسير حيث تأخذه قدماءه، مُسِيرًا وليس مُخَيَّرًا في خطواته ودربه. يجد نفسه وقد صعد جبلاً، يرى ناراً من بعيد، لعلّه يهتدي بوجهها فتأخذه إلى درب العودة، أو يتدفأ بها، يتعجب من شعوره بالبرد وقد خرج هذا الصباح من بيته والقيظ في منتصفه، وأشجار النخيل محملة بالرطب، والشمس الحارقة جعلت العرق يتقاطر تحت ثيابه. يسير نحو النار، وحينما يظن أنه وصل إليها يبحث عنها ولا يجدها، لم تكن ناراً، كانت كهفاً مُضَاءً يراه للمرة الأولى رغم معرفته بمغارات الجبل وكهوفه. ينظر إلى المكان لكنّ الطريق ليس هو الطريق الذي اعتاد السير فيه، والذي يوصله إلى الجبل الأشم موطن

أجداده وآبائه، وكأنّ الجبل انشقّ أمامه فجأة ليظهر ذلك الكهف، يبحث عن مصدر الضوء الذي يبعث في المكان دفئاً غريباً، يشمّ رائحة طيبة. كان يسير كالمُعَيَّب بقوة غير قوّته وإرادة غير إرادته، دخل بحذر إلى الكهف، أخذ ينظر، وجد نفسه في مكان أشبه بغرفة ذات سقف عالٍ، مكان واسع لا نهاية له، كهف لا يشبه الكهوف التي عرفها من قبل والتجأ إليها، ظنّ أنّه في عالم مسحور ليس عالمه الذي كان فيه، أو أنّه ربّما مات وانتقل إلى العالم الآخر الذي لا يعرف عنه شيئاً، وما إن دخل الكهف حتى انغلق الباب عليه وبقي في الداخل وحيداً، أخذه الفضول إلى اكتشاف المكان الذي هو فيه، سار في أرض منبسطة سهلة لا علاقة لها بوعورة الجبل وقسوة صخوره وحدّتها، صمت مطبق في المكان، يسمع صوت أنفاسه، يتشجّع وينادي:

- هووود، هووود...!

يَسْمَع تردّد تهويدته في المكان وكأنّ عشرات الأصوات تردّد عليه، يرتجف قلبه، لكنّه سرعان ما يستعيد رباطة جأشه، يسمّي «بسم الله الرحمن الرحيم»، يسير ويتبع النور الذي يشده إليه في سحر غريب. رائحة عطرية فواحة تتضوّع في المكان كلّ، أخذت بتلايبب روحه وقلبه: «إنها رائحة أنثى»، يُردّد في نفسه، رائحة المرأة المشتهاة، رائحة الرغبة التي اختبرها في لحظات متعته، لكنّها أشدّ في النفس من أيّ اشتهاه آخر. تتسارع نبضات قلبه، وتلبس الرائحة كلّ مسامات جسده.

يذكر الله في سرّه ويقرأ آية الكرسي، فليس ناصر من تغلبه شهوته، ولم يكن قلبه سهل المنال يوماً، فكيف به اليوم تسرقه هذه الرائحة، وتُطيح به وتجعله بهذا الانتشاء؟ لم يكن منقاداً مثل هذا الانقياد الغريب لرغبة جسده، ولا تعلّق قلبه بامرأة مهما كان حسنّها وجمالها، فقد أورثه أبوه عشق البندقية فأحبّها وهام بها حتى أصبحت بندقيته «الصَّمْعَة» حبيبته ورفيقته. وبينما هو غارق في مقاومة ما يعتري جسده وحواسّه وسط ذلك السكون أحسّ بحركة في المكان، قرّر التراجع إلى الخلف، إن كان السحرة قد أوقعوه في فخّ الغواية فلن يسقط، لكنّه تاه مرة أخرى؛ ولم يعد يعرف البداية من النهاية، وأين المدخل من المخرج، دفع غريب يسري في جسده، تأخذه الرائحة إليها، وضوء باهر يشدّه، شعورٌ لم يعرفه قبل هذه الليلة!

(2)

تعلم عويذة في قرارة نفسها أنّ ناصر لا يكذب، تعرفه كما يعرفه أبناء حارة الوادي؛ شجاع وقنّاص ماهر، ذو بصر حادّ وثقة كبيرة بالنفس، اكتسب الجسارة والمهارة من أبيه وجدّه، فهو من نسل عائلة معروفة بخبرتها في استخدام السلاح. علّمه أبوه الرماية والصيد ومجالسة كبار السنّ؛ ومنذ الخامسة من عمره كان يصحبه في رحلات القنص إلى الفلاة والوديان وأعالي الجبال، يخرج معه فجرًا ويعودان آخر النهار، رابطًا الطرائد الصغيرة حول كتفيه ليضعها تحت قدمي أمّه.

نشأ ناصر مُهاب المكانة بين قومه والقبائل الأخرى، لا يتلثم إذا تحدّث، ولا يتردد إذا اتخذ قرارًا، يستشرونه في أمورهم، ولا يخالفون له رأيًا، لأنّه ذو رأي حاسم، لا يجامل في الحق، ولا يجادل في سفاسف الأمور، كريمًا سَمَحًا، لا يرد سائلًا ولا يغلق بابًا في وجه فقيرٍ أو محتاج. يستعينون به لأخذ ثأرهم على من اعتدى عليهم، حتى ذاع صيته، وعُرف اسمُه، واكتسبت قبيلته بفضل شجاعته وحكمته صيتًا بين القبائل، ونالت حارة الوادي شهرة واسعة بين الحارات والبلدات الأخرى، حتى أصبح مضرِبًا للمثل، وطغى لقبه «ابن الليل» على اسم القبيلة، فصار من أراد أن يعرف نفسه يقول: «أنا فلان من حارة الوادي»، أمّا من أراد أن يفخر بانتمائه فيقول: «أنا من قبيلة ابن الليل».

تزوَّجت عويذة من ناصر وهي في العاشرة من عمرها، ولم تكن أقلّ منه حسَبًا ونسَبًا، بل هي ابنة إحدى العائلات المعروفة في الجبل، من فرعٍ ينتمي إلى شجرة العائلة الممتدة بجذورها من الجبل الأشمّ حتى السهل في حارة الوادي، لكنّ الزواج لم يجعله مرتبطًا ببيته وزوجته، فقد كانت البندقية أحبّ إليه من عويذة، والفلاة أكثر أمانًا له من جدران بيته، فاتخذ من الفلاة مُعْتَرَلًا لخلواته من حياة الحارة، يغيب يومًا أو يومين ثم يعود. وقد اعتادت عويذة على غيابه، فلم تشتك أو تتذمر، إذ عرفت أنّ في غيابه خيرًا للحارة ولها، بما يأتي به من طرائد الغزلان والطيور والأرانب البريّة التي توزّع منها على بيوت الحارة تاركة للبيت ما يكفيهم حتى يذهب للقنص مرة أخرى. وقد لاحظت أنّه حين يعود يكون هادئًا وبمزاج غير المزاج الذي ذهب به، وكأنّ الفلاة تعيد له هدوء نفسه وإشراق وجهه، فهو لا يطيق بُعْدًا عن الفلاة، ولا يصبر عن اقتناص الطرائد، والبحث عن خلايا نحل العسل في قمم الجبال والكهوف الوعرة.

اعتاد رجال الحارة ألاّ يذهبوا إلى الصيد إلّا في مجموعة تحسبًا لمفاجآت الطريق وما يمكن أن يعترضهم في الفلاة من حيوانات مفترسة كالضباع والذئاب، ولكنّ ناصر كان يذهب وحده، لا رفيق له غير بندقية التي يحملها على كتفه، وقربة ماء صغيرة يعلّقها على كتفه الأخرى مع صُرّة زاده، وإن التقى بجماعة في الطريق يرسل معهم ما اصطاده ليوصلوه إلى بيته ثم يفترق عنهم، مواصلاً سعيه في الفلاة والجبال.

ومع شجاعة ناصر وجرأته، لم يُعرف عنه سوء أو قبح، فلم يؤذِ جارا ولا إنسانا، وإذا جاءه واشٍ أو مشتكٍ لم يكن يتعجل الحكم، فقد تعلّم الحِلْم والسّماحة من مجالس الكبار وقصصهم ذات المعاني. وفوق ذلك، فإنّ وجهه بقمه المبتسم وعينه الحادّتين الرماديتين في غبرة، يوحي بالثقة في نفس من ينظر إليه. وكما هو معروف بحدّة بصره، اتّسم بقوة بصيرته، فكان يرى ما لا يراه الإنسان العادي لمسافة بعيدة، ويدرك بحدسه ما لا يدركه أو يلاحظه الآخرون من خفايا الأمور؛ ولذلك رشّحه كبار القبيلة ليكون الشيخ بعد أبيه. استاء أخوه الأكبر منصور وغضب حين علم بالأمر، لم يرصّ ناصر أن تنمو بذرة العداوة في أرض العائلة ويخسر أخاه لسببٍ ضعيفٍ كما يرى، فاتّفقا أن يأخذ ناصر البيت العود، ويتنازل عن المشيخة لمنصور، عارضه جماعته أول الأمر، لكنّه أصرّ على موقفه فلم يستطيعوا ثنيه، ولكن رغم تسلّم أخيه للمشيخة، ظلّ رجال الحارة يلجؤون إليه، ويشاورونه في الصغيرة والكبيرة، مما أشعل بذرة الحقد في قلب منصور. أحسّ ناصر بذلك، فأخذ يدفع بالجماعة إلى مجلس أخيه معتذرا منهم في بعض الأمور، لأنّها من شأن أخيه منصور وليست من شأنه، ويأمر عويذة أن تزيد مقدار ما ترسله إلى بيت أخيه من الطرائد.

تفخر عويذة بين جاراتها بأخلاق زوجها، فهيئتها من هيئته، ومكانتها من مكانته، وما يزيد عويذة فخرها بزوجها أنّه لم يتزوَّج عليها كما يفعل معظم رجال الحارة، ولم يتخذ خليلة في الخفاء، ولم يعشق خادمته كما

فعل أخوه الذي كان لديه ثلاث نساء، ومع ذلك أحبّ خادمتها التي يُقال إنّها حملت منه مرارًا، وكان يساعدها في إسقاط أجنّتها، وقد رفض تزويجها من أحد خدمه ليسترها كما أشار عليه جماعته، فهو - كما تتهامس النساء في مجازة الحارة - مشغوفٌ بها حبًّا حتى أنسته زواجته الثلاث، وذلك ما حطّ من قيمته وهيبته في عيون بعض أهل الحارة الذين لا يجدون فيه شيئًا من هيبة ناصر وشجاعته وكرمه.

(3)

يروى ناصر أنه، في تلك الليلة الباردة، دخل الكهف طالباً الدفء ومدفوعاً بالفضول، ومتبّعاً رائحة العطر، منجذباً نحو الضوء، كما «جرادة شاوية عمرها»، ردّد في نفسه هازئاً وهو يسير بغير إرادة نحو الكهف. شعر كأنّ يدًا قوية تُمسك يده وتقوده إلى داخل الكهف الذي بدا طويلاً وعميقاً بلا نهاية. شعر بقبضة اليد تجرّه إلى مصيره المجهول، وكأنّها يدٌ من حديد لا يرى صاحبها، وكأنّ المدخل لم يكن سوى بوابة لمدينة مسحورة! وبعد أن سار مسافة لا يعلم مقدارها، تركته اليد الثقيلة فشعر بخفّة في جسده، ووجد نفسه في مكان مبطن بحجر لامع كأنّه قطع من نور يُعشي الأَبصار! اجتاحت رائحة العطرة ثمّ لمع ضوء شديد الإبهار في منتصف ذلك المكان المغلق، حتى إنّ لم يعد قادراً على الرؤية أو التركيز، احتاج بعض الوقت حتى استقرّ بصره على بقعة الضوء، بدأ الضوء يخفت شيئاً فشيئاً ويصبح مركّزاً في بقعة واحدة متوهجة، نظر إلى المكان فإذا هو أمام غرفة أشبه بقوقعة مبطنّة بقماش من المخمل الأخضر، وفي وسطها لؤلؤة مُشعّة. سار نحو اللؤلؤة المُضيئة وعيناه معشيتان بالوهج، شعر بلمس المخمل على أرض القوقعة في قاع قدميه، وحين دنا وأمعن النظر وجد امرأة نائمة!

لم تكن امرأة عادية من نساء الأرض، كانت حورية في جمالها وفتنتها وبياضها، لقد دخل الجنة دون حساب، وهذه هي الحورية التي وعد الله

بها المتقين. كانت متمددة على جانبها الأيمن، ضامةً ركبتيها ضمة خفيفة، مائةً ساقها وكأنهما عمودان من مرمر مصقول، تلتحف شعرها المسبل المسدول على ظهرها ووركها حتى قدميها، ترتدي ثوبًا شفافًا كغلالة حمراء من نور على جسد منحوت ناهد، بخاصرة لو ضمها بكلتا يديه لانشئت وكان خصرها بمقياس انغلاق يديه على بعضهما، متوهجة، نور أم نار لا يدري. تعلقت عيناه بوجهها الأبيض كيباض قطنة، مع خدين حمراوين كحمرة جمرة، وكلّ السحر في ثغرها وشفتيها الوردتين اللامعتين، يسير كالمسحور نحوها، يرتجف، لا خوفًا، بل من شدة الاشتاء والرغبة التي اجتاحتها في تلك اللحظة.

تذكر كل الحسنيات التي فعلها في حياته، فعرف أنها مكافأة الرب له على إيمانه وصدق سريره، وهذا الشعور الذي يشعر به الآن نحو هذه المرأة التي تنظر إليه وعيناها مغمضتان نصف إغماضة، فلا يدري إن كانت نائمة أم مستيقظة؛ لا يمكن أن يكون شعورًا دنيويًا، ولا تلك الرغبة التي تشتعل داخله هي رغبة جسدية فقط، لقد سلبته عقله وسرقت قلبه، ولم يعد يدري ما يفعل بها أو بنفسه المرتبكة أمام فتنتها.

تحرك نحوها، وحين حاول مدّ يده إليها، نظرت إليه بعينين ساحرتين حتى شعر وكأن الحياة توقفت في تلك اللحظة. وقف أمامها مبهورًا عاجزًا عن الحركة، فلا يدري هل يتقدم أم يتأخر، فالسحر كلّ السحر في تينك العينين اللتين بدتا كقنديلين تحرسهما ظلال من رموش الهدب. اقترب منها، قال في نفسه: إما أن تكون قدرًا أو مصيدة أو جنة، وفي كل الحالات

عليه أن يغامر وأن يقترب منها. اقترب أكثر فأكثر فتبتسم، تلمع أسنانها كصف من لؤلؤ، مدّ يده إليها حتى لامس جسدها فكان كقطعة من جمرة حارقة، وكأنّه يلمس النار بيده، يمتد اللهب إلى كلّ أعضاء جسده، يحترق بنارها لكنّه احتراق لذيق، لذة من نار لم يختبرها حتى هذه الساعة، وهو يشعر باشتعال جسده تحت ثيابه.

دنا منها لا يملك سوى أن يحترق بنارها، ويفعل ما تمليه عليه رغبته، بدأ يجردّها من ثيابها، وحين كشف عن نصفها العلوي، رأى جسداً كأنّه تمثال من مرمر منحوت في منتهى الإبداع. اشتعلت الرغبة في داخله أكثر فنسي شجاعته أمام هذا الحسن الناريّ أو النوراني، ولم يعد يعلم ما هو فيه: أحبُّ أم اشتها؟ وهو الذي ما اعتاد أن يكون ضعيفاً كما هو الآن أمام هذا الجسد الذي أذكى بتفاصيله الأثوية المشتهاة لهيب روحه وجسده. كان يشتعل ولا يريد أن ينطفئ إلاّ بها. مدّ يده ليكشف عن نصفها السفلي لعلّه يطفىّ ناره بوصلها، لكنّه فوجئ حين اكتشف أنّ ما ترتديه لم يكن إلاّ طيّة من خيوط ناعمة كسلاسل من ذهب معقودة، وكلّما فكّ عقدة وجد عقداً أخرى تتزايد دون نهاية.

كاد يُمضي الليل بطوله وهو يفكّ تلك السلاسل، ولما انتهى من حلّ تلك العقد المتداخلة كان قد بلغ به الجهد مبلغه، وحين باعد ما بين ساقها الطويلتين اكتشف أنّ ما بين فخذيها ليس سوى صفحة بيضاء! بحث بجنون عن موطئ يفرغ فيه شهوته فلم يجد، كانت تنظر إليه وعيناها جمرتان من نار، أو نجمتان من نور، وابتسامة شبيقة على وجهها الوضاء،

يلمس جسدها فيكاد يحترق بلهبها. قتلتها الرغبة ولم ينلها، نظر إليها مسلطاً عينه عليها في غضب وعشق، مدّ يده بكلّ نار الرغبة والغضب التي تشتعل في داخله وهو يلهث من فح الخديعة الذي أوقعته فيه، فصفعها صفعة على وجهها، ثمّ أشاح بوجهه عنها وأمال جسده بجانبها، ونام معطياً ظهره لها، تاركاً إياها على حالها، وغفا من شدة التعب.

لم يعلم كم من الوقت قضى نائماً، وحينما استفاق وفتح عينيه ونظر إلى حيث كانت لم يجدها هناك، فظنّ أنّه يحلم، ولكنّه حين همّ بالوقوف، وجد نفسه محاطاً بنفّر من الكائنات الغريبة المتوهّجة التي تشبه تلك المرأة التي رآها! رأى نفسه صغيراً بينهم؛ ما كانوا ملائكة، فهو يعرف أنّ للملائكة أجنحة، وهؤلاء لم تكن لهم أجنحة. تحدّث أحدهم إليه بلغة عربية فصيحة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قام ناصر ونظر إليهم وهم ينظرون إليه، وردّ على ذلك الكائن:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فرك عينيه، أيّ حلم هذا الذي هو فيه؟ أي جاثوم يجثم على صدره؟ يرى تلك العيون الحمراء المُسلّطة عليه ولا يدري أيّة ورطة قد وقع فيها، وهل هو في حلم أم حقيقة؟

ظلّ ناصر صامتاً حتى تحدّث الرجل نفسه مرة أخرى والبقية يواصلون النظر إليه، فأخبره أنّهم نفّر من الجنّ، وأنّ اسمه «شمهروش»، وأنّ «ميمونة» ابنة شيخهم كانت تراقبه منذ فترة طويلة وهو يسير وحيداً في

الفلوات والكهوف، وقد تربّصت به فأحبّته وشغفها عشقاً، فلم تشأ أن تؤذيه، بل تمنّت الزواج منه، وأخبرت عائلتها وقومها بمن سكن قلبها. حاول أبوها تزويجها بمن هو من جنسها من أهل الأرض، لكنّها رفضت الزواج ممن تقدّموا إليها، وأصرّت أن تستدرجه حتى يأتي هو إليها وتتزوجه.

استمع ناصر إليهم متعجباً ثمّ سألهم:

- وأين أنا الآن؟

- في مملكة الجن.

قال له الرجل الجنّي، وأخبره أنّه لن يستطيع الخروج من مملكتهم حتى يعقد قرانه على ابنتهم ميمونة على سنّة الله ورسوله، فهم مسلمون ويدينون بدين محمّد ويصلّون ويصومون ويقرؤون القرآن. أخبرهم أنّه متزوج، فقالوا له إنّ زواجه من ابنتهم لن يؤثّر على زواجه من زوجته الإنسية، والإسلام أحلّ له الزواج بأربع نساء، ولا ضير في ذلك. وله أن يذهب ويعود إلى زوجته من الجنّ متى شاء، فهي ستسلّمه مفاتيح باب المملكة. وحين سألهم كيف يتزوجها ولم يجد فيها ما يميزها من أنثى أو ذكر، ضحكوا من سؤاله وكأنّ ضحكهم شرر من نار! أخبره الرجل أنّ هذا دليل بكارتها وعذريتها، فالجنّيّة لا تُظهر معالم أنوثتها إلّا لزوجها، وحينما سأل عن مهرها أخبروه أنّهم لا يريدون منه شيئاً إلّا أن يعقد عليها عُقدة النكاح ومهرها كلمة فقط، وكلّ السرّ في تلك الكلمة، ولكنّ عليه أن يظلّ مخلصاً لها ولا يتخلّى عنها.

عقد قرانه عليها وتزوجها على سنة الله ورسوله؛ دخل عليها وعاش أجمل أيام حياته معها وكأنه في حلم أو جنّة، أيّامًا نسي فيها كلّ شيء إلّا تلك الجنيّة الفاتنة بما تمنحه إياه من لذة العيش ونعيم الحياة بقربها. بقي كذلك حتى انتهت أيام العرس التي لم يدرِ عددها، حتى طلبت منه أن يذهب، وألا يلتفت إلى الخلف إلّا بعد أن يصل منطقة معينة هو يعرفها، حيث كان يعتزل ويتأمل، وأعطته موعدًا آخر للعودة. وقبل أن يخرج من مملكة الجنّ أعطوه قروشًا فضية كثيرة لم يرَ مثلها من قبل، وأعطته ميمونة المفتاح الذي لم يكن سوى الكلمة التي قالها عند زواجه بها، والتي أكدت عليه أن يحفظها في قلبه ولا ينساها، ولا يخبر بها أحدًا، لأنّ مفعولها يبطل إذا عرّف أحد سرّها، فوعدها وهو أشبه بالمُعَيَّب، لا يدري إن كان ما هو فيه حقيقة أم خيالًا.

(4)

خرج ناصر من الكهف. مشى حتى وصل إلى حيث كان يجلس من قبل، إنها المنطقة التي يعرفها، وقد أصبحت الطريق واضحة أمامه رغم الظلام، لم يلتفت كما طلبت منه ميمونة، ولكنه لم يستطع أخيراً منع نفسه من الالتفات، لعله يعرف من أين أتى حيث بقي قلبه؟! لم ير شيئاً، حتى ولو إشارة تدل على شيء مما حدث، وكل ما رآه هو صحراؤه التي يعرفها بجمالها وكهوفها وأشجارها.

«لعله كان حُلماً»، قال في نفسه. جلس قليلاً يفكر فيما حدث معه، ثم نهض من مكانه رغم أنه ما زال يشعر بالدوار والتشويش وهو بين شكٍّ ويقين!

سار قافلاً إلى حارته وبيته، تذكر أن عويذة ربما تكون شعرت بطول غيابه، وربما ظنت أنه مات أو أكلته السباع والضباع، وربما بحثوا عنه ولم يعثروا عليه، فهو لا يعرف مدة غيابه، فالمتعة التي عاشها تساوي عمره الذي عاشه والذي لم يعيشه بعد.

سأل عويذة:

- هل طال غيابي شهراً أم أكثر؟

تعجبت عويذة من سؤاله وظنت أن سوءاً قد أصابه، أو ربما فقد عقله في الفلاة!

- رحت صباح أمس ورجعت اليوم، ولكن ما من عادتك أن تغيب

ليلة كاملة، وهذا ما جعلني أقلق ولا أنام الليل.

نظر إليها مفكرًا في تلك الليلة التي قضاها هناك، شغلته ميمونة وهو الذي لم تشغله امرأة من قبل، تتأمله عويده، تبحث عن حقيقة ما يقوله لها، للحظة ظنّت أن الحكاية التي أخبرها عنها لم تكن سوى من نسج خياله أو ربما يمزح، رغم أنّ المزاح ليس من صفاته، وعجبت من أنّه يجلس معها، ويحكي لها شيئًا يخصّه، وناصر ليس من عاداته إخبارها بشيء، فهو بطبيعته غامض وقليل الكلام، ولم تكن تصدّق ما سمعت لولا أنّها رأت القروش الفضية اللامعة المخبّأة في جراب جلدي جديد أحضره معه، كدليل على صدق كلامه، ورغم ذلك سألته باستنكار:

- عن تكون غزيت شيء من القبائل؟

ضحك مدهوشًا منها ومن تفاصيل الحكاية التي لن يصدقها هو نفسه لو حدّثه بها غيره، طلب منها أن تحضر له جرّة فارغة، أتت بالجرّة فوضع فيها القروش الفضية، وأغلقها بقطعة من الجلد وربط فوهتها بحبل وعقده، وحفر حفرة عميقة بالقرب من المطبخ ودفنها، حدّرها من أن تخبر أحدًا بما أخبرها به وبما رأت.

استمرّ يذهب كلّ ليلة سبت لبيت في الفلاة ولا يعود لعويده بشيء من القنص، وقد اتّفق معها أنّ ليلة السبت ليلة زوجته الجنيّة ميمونة، لم تشعر عويده بالغيرة من تلك الجنيّة؛ فرغم كلّ ما قاله لها، ظلّ الشك

يسكن قلبها، والشيطان يوسوس في صدرها أنه قد يكون ساحراً، فلا يصل إلى ما وصل إليه إلا الساحر الذي يقوم سحره على الاتصال بالجن والشياطين.

بعد فترة من الزمن أخبرها أنه قد أصبح له ابن من زوجته ميمونة، وأنه سيُحضَرها إلى الحارة لتعيش في بيته مع ابنها. تعجبت عويده من قراره الأخير، إذ كيف سيُدخلها الحارة؟! وكيف ستشاركهم حياتهم وفي ذلك خطر عليهم وعلى أولادهم؟! لكنه ردّ عليها بحزم وكأنه يقرأ ما يدور في رأسها:

- وجودها حماية لهم ولنا.

ذات يوم وبعد أن عاد ناصر من الفلاة، اتّجه إلى الغرفة العلوية مباشرة، وبقي فيها ليلة كاملة، وفي الصباح أخبر عويده أنه قد أحضر ميمونة معه وأسكنها هناك، وقد حدّرها من أن تقترب من تلك الغرفة، فزوجته الجنيّة لن تؤذيها ما دامت بعيدة عنها. أخبرها أنه عمّي عليها بحجاب ولن تستطيع رؤيتها! ولا تستطيع ميمونة تجاوز عتبة غرفتها إلى بقية الغرف الأخرى في البيت. تضحك عويده في سرّها لأن أكثر جاراتها لديهنّ شريكات من الإنس، أمّا هي فشريكها من الجن، فأيّ تميّز هذا؟ وأي عجب تعيشه مع هذا الرجل الذي لا يشبه سوى نفسه؟!

ظَلَّتْ تلكَ الغرفةَ مقفلةً لا يدخلها أحدٌ سوى ناصرٍ في ليلة السبت والخميس، وقد ربط المفتاح بحبلٍ وعلّقه في طيّّة إزاره، وجعل لبابها مرجّامًا من الداخل والخارج. لاحظت عويذة أنّه في الليالي التي يترك فيها فراشها ليذهب إلى زوجته ميمونة يعود مُنهكًا ومتعبًا، وكان يُخَيِّلُ إليها، أو أنّها تسمع بالفعل أصواتَ أوانٍ تسقط وتتحطم، وصياحَ أطفالٍ صغار، وضحكاتٍ، وسلاسل تُجَرّ على الأرض، وقراءة تُتلى، لكنّها لم تجرؤ على سؤاله عن شيءٍ ما لم يبادر هو بإخبارها عنه. ومنذ أن دخلت ميمونة البيت العود وسكنت تلك الغرفة، أصبحت عويذة حريصة على السير ببطء وحذرٍ في أرض بيتها، فالبيت مسكونٌ وهناك من يشاركها فيه.

بعد فترة أخبرها أنّه رُزِقَ بابنٍ آخرٍ من ميمونة، وكان لعويذة أربعة أبناء هم حمّدٌ وصالحٌ وحميّدةٌ وعزّيزةٌ، ولا تعرف كيف ستعرّفهم على إخوتهم من الجنّ، لكنّها كانت مطمئنة بأنّها لن تتعرض للأذى هي وأولادها، ولكن من باب الحذر كانت تشارك شريكها كلّ شيءٍ، الطعام والشراب والعطور والبخور، وتضع لها قطعًا صغيرة من الملابس دون أن يطلب منها ناصر ذلك، وقد توقفت عن الذهاب إلى «سَمَرَةِ الْجِنِّ» لتأدية النذور كما كان يفعل أبناء الحارة، دافنين نُذورهم تحتها تاركين غداءهم وعشاءهم وبخورهم وعطورهم بالقرب منها، معلّقين على أغصانها قطعًا من ثيابهم حتى أصبحت مغطاة بالرقع الملونة؛ فعويذة كانت تؤدّي نذورها في بيتها خارج الغرفة العلوية المغلقة التي تسكنها شريكها ميمونة

الجنيّة وأولادها، ولو لم يكن الأمر سرّاً بينها وبين ناصر لأخبرت جاراتها أن يؤدّين ندورهنّ في بيتها.

بدأت عويذة تشعر بالغيرة من تلك المرأة التي يخبئها زوجها في الغرفة العلوية وما كانت تشعر بذلك من قبل، فالجنيّة لم تعد وحدها، بل أصبح لها أبناء ذكور من ناصر، ولهم حقّ في كلّ شيء كما لصالح وحمد، لكنّها حاولت مداراة غيرتها بإنكار ما قاله لها، فأنكرت بينها وبين نفسها أن يكون لهذه الجنيّة وجود. دخل الشكّ قلبها مرة أخرى تجاه ناصر، ورجّح في نفسها أنّه ساحر، وما حكاية الجنيّة إلّا حكاية وهميّة أراد بها تغطية ما هو عليه من سحر؛ فكما سمعت عويذة أنّ السحرة يجتمعون ليلة السبت، وذلك يؤكّد شكّها باختياره هذه الليلة، كما أنّ لهم ليالي أخرى معيّنة في الشهر يجتمعون فيها وفق حسبة متّفقٍ عليها بينهم، فقد سمعت من أمّها أنّ كلّ ساحر يأتي راكباً على ضبعته ليحضّر الوليمة التي تمت دعوته إليها، وأحياناً يأكل السحرة بعضهم بعضاً، فالغالب يأكل المغلوب أو يقدّم المغلوب ضحيةً من أهله كسداد دين لساحرٍ آخر.

ومع غياب ناصر المتكرر، وخصوصاً ليلة السبت، بدأ شكّها يكبر في أنّه ساحر، وأنّ بيتها أصبح مأوى للسحرة وربما للمغاصيب المسحورين، فقد أتت ليالٍ كانت تنهض فيها من فراشها ولا تجده نائماً بجانبها، وحينما يعود قبل الفجر بقليل تكون ثيابه متّسخة ومعقّرة بالتراب وكأنّه قد تعارك مع أحدهم، وحينما تسأله يجيبها أنّه ذهب إلى الفلاة، ولا يزيد

على ذلك الجواب كلمة أخرى، وقد لاحظت عليه في الآونة الأخيرة أنه يخرج من البيت كثيراً ولا يعود إلا متأخراً، فلا يشرح لها شيئاً ولا يفسر أسباب غيابه، ولا تجرؤ هي على سؤاله، بل كل ما يفعله أنه يعزل نفسه في مجلس الرجال ولا يقترب منها، وتبقى هي تنهشها ضباع الوسواس وذئاب الشك والقلق.

ظلت عويذة على شكها به، ولم يفارق الوسواس قلبها، فأغلب ظنّها أنّه تعلّم السّحر من كبير السحرة في الحارة الشايب مبروك الذي كان الجميع يعرفون أنّه ساحر، بل ومعلّمهم، وهو كما تقول النساء في المجازة «يقصّ الخوص» لقوة سحره، فالسّحر مخلوق فيه، ولم يتعلّمه من أحد، وهذا السّحر هو أقوى أنواع السّحر وأشدّه، ولا يمكن بطلانه أو زواله، وقد رأت بأمّ عينها ناصر يجلس معه على أحد الدكوك في بوابة الحارة، يتحدثان معاً، ومن ثمّ يرافقه في الدرب إلى مكان مجهول.

(5)

زاد شكّ عويدة أن زوجها تعلّم السحر، خصوصًا بعد موت ابنهما حمّد ذو السنوات الأربع، والذي لم يكن يعاني شيئًا قطّ، بل كان نشيطًا صحيح الجسم، ومنذ أن رأت عويدة مشيته وقفزاته وهو يطارد الطيور والفراشات، تأكّدت أنّ هذا الولد أخذ سرّ أبيه، وذلك ما جعلها تخشى عليه من عين الحاسد والظالم، وقد وصل بها الوسواس أن تخشى عليه حتّى من أبيه نفسه، وهي تتذكر كيف كان يتبعه بنظرات غريبة، وما رآته يلاطفه يومًا أو يلاعبه، فظنت أنّ له يدًا في موته، فربما طلبوه منه، فقدّمه ضحيّةً وقربانًا للسلحرة كي يمنحوه سرّهم ويصبح ساحرًا، أو ربما ليكون كبيرهم ومنافسًا لمبروك في تضحيته بأولاده وأمه كما قيل.

- سقط الولد كما تسقط السلسلة من يد قابضها، ما كان فيه مرض ولا علّة.

تقول عويدة وهي تصف لحظة موته للمعزيّات نائحة باكية.
تخبرهنّ وهي تبكي أنّهم كانوا يتناولون عشاءهم، قام الولد وركض خلف قطّ كان يحوم حولهم، لم يتعد كثيرًا، ولكنّ المكان كان مظلمًا، وليس سوى ضوء السراج يضيء حول الحصير الذي يجلسون عليه، فلا يكاد الضوء يصل إلّا إلى مسافة قريبة من مكان جلوسهم، وما هي إلّا طرفة عين وقبل أن تنهض لتتبع الطفل سمعت صرخته، ركضت نحوه،

فوجدته ساقطاً على الأرض وقد تعثر بحجر، فرفعته إلى صدرها، مسحت التراب عن وجهه، حدثته فلم يردّ عليها، هزّته فلم يتحرك؛ ظنّت أنّه مغشيّ عليه، فأحضرت نصف رأس بصل وقربته من أنفه، لكنّ الولد لم يتنفّس، وحينما حملته كان أشبه بقطعة قماش في خفّته ورهافته، كان خشبة مصوّرة، لم يكن هناك..

تؤكد عويذة للمُعزّيات أنّ الحجر كان موجوداً منذ زمن طويل، ويعلم الله، مذ بُني البيت في نفس المكان، وكثيراً ما لعب حمّد في تلك البقعة التي سقط فيها؛ فلم يكن الحجر إلّا صورة هُيّئت للولد ليتعثر ويسقط.

- أخذوه، سحروه، حسبي الله ونعم الوكيل.

تصرخ عويذة وابنها بين يديها، وحينما دخل ناصر عليها وهي تصرخ نهرها وأمرها أن تسكت، وأن تكفّ عن مثل هذا القول الباطل، تناول الولد منها ونظر إليه وكأنّه يبحث عن شيء أو علامة في جسده، ثم نظر إليها نظرة حادة وقال لها:

- اسكتي، طاح الولد على رأسه، كانت الطيحة قاتلة.

- الولد ما فيه شيء، الولد مسحور.

- هذا قضاء الله وقدره، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

حمل ناصر ابنه بين يديه دون أن تدمع له عينٌ أو يهتّز له جفن، ذهب به إلى المغسلة ومن ثمّ إلى مقبرة الحارة. رجعوا جميعاً من المقبرة، ولكنّ ناصر لم يرجع معهم، تأخّر في العودة، والمُعزّين في سبلة العزاء بانتظاره

مع أحوال الولد وعمه، حتى إنَّ خادمه عبيد أتى ليسأل عنه ظناً منه أنّه في البيت، ولكنّه لم يعثر عليه.

أخذت الوسوس عويذة في ذلك اليوم بعيداً، لعبت بقلبها الشكوك، فصوّرت لها الشيطان المشهد كاملاً، كيف أنّ ناصر انتظر حتى ذهبوا جميعهم من المقبرة بعد دفن الولد، فنبش القبر وأخرج الولد ليقدمه هدية وثنماً لهم، فمن أراد أن يتعلّم السحر ويكون ساحراً لن يتأتى له ذلك حتى يضحّي بأحبّ إنسانٍ لديه، وليس أحبّ إلى الأب من ابنه.



ليلتان لم ينم فيهما ناصر في فراشه بعد موت ابنه، كان يجالسهم في سبلة العزاء، وبعد العشاء يتأبط بندقيته ويتّجه إلى الفلاة، إلّا ليلة السبت التي يغلق فيها على نفسه في الغرفة العلوية، فلم تعاتبه عويذة ولم تسأله، ولكن بعد انقضاء أيام العزاء سأله بقلب مجروح ونفس متوجّعة ثكلى:

- هين كنت بعد ما دفنت ابنك؟ كانوا يبحثوا عنك!

نظر إليها نظرة تمنّت عويذة بعدها لو أنّها لم تسأله، فردّ عليها باقتضاب:

- كنت أحفر قبر في مكان ثاني، أدفن فيه حزني.

لم تفهم ما قصده، ولم تزد كلمة أخرى على ما قال، كان بالنسبة لها شخصية غير مفهومة وغامضة، وهذا الغموض جعله مُهاباً. ورغم كرمه وسخائه بالمال لم يكن ناصر كريماً في كلامه، فهو مقتصد دوماً في قوله،

وحين يحضر مجلسًا يكون مستمعًا أكثر منه متحدثًا، وإذا تحدّث أوجز، ويحرص ألاّ يتجاوز أحد المسافة والحدود في علاقته به، حتى عويده زوجته لم تكن تعرف أين يذهب، ولا ما يفعله في الفلاة. لا تنكر عويده بينها وبين نفسها أنّها، وفي عزّ ألمها على موت ابنها، تمتّ له الموت، ودعت عليه في لحظة غضب أن ينتقم الله منه إن كان سببًا في حرمانها من فلذة كبدها، وهداها شيطان أفكارها وهي في غرقة الحزن أنّ الساحر يجوز قتله، لكنّها لم تكن متأكدة تمامًا من ظنونها، ولا يمكنها أن تقترب مثل هذا الفعل الآثم وتصبح قاتلة لزوجها.

غلبها الهمّ والوسواس، فتذكّرت ما سمعته يومًا في مجازة الحارة أنّ من أراد التأكّد من أنّ أحدهم ساحرٌ فعليه بالزئبق، وذلك بوضع قطرات منه على الطعام، فجسد الساحر لا يحتمل الزئبق ويموت على الفور، وإن كان ليس ساحرًا فلن يصيبه شيء، حتى إنّ بعض الأمهات كنّ يغمسن أصابع أبنائهن في الزئبق إذا مرضوا خشيةً عليهم من السحر لأنّ الساحر لا يقترب من جسد فيه زئبق، فأول ما يفعله الساحر بعد أخذ ضحيته، يلحس إصبعه البنصر بطرف لسانه كي يتأكّد من أنّ جسده خالٍ من الزئبق، وقد ذكرت بعض نساء المجازة أنّ كثيرًا من الأطفال عثروا عليهم في بلدان أخرى بعد أن تم بيعهم، فالسحرة لم يستطيعوا أكلهم لأنّ أجسادهم فيها زئبق. ويروى في الحكايات أنّ من قتل ساحرًا وخلص الناس من شرّه وأذاه فله الأجر والثواب.

تردّدت عويذة قبل أن تُقدّم على ذلك الفعل، ولكن لم تجد في النهاية بدءاً من تنفيذ ما أشار عليها به وسواس قلبها وشيطان ظنونها، فهي ليست مستعدّة لأن تخسر بقية أبنائها حين يقدّمهم أبوهم وجبة في ولائم السحرة، وبعد طول تردّد وتحير وضعت له ثلاث قطرات من الزئبق في طعام العشاء، تناول الرجل طعامه المسموم بمادة الزئبق وذهب للنوم.

لم تنم عويذة في تلك الليلة، بل ظلت ساهرة في قلق وخوف، تلوم نفسها على ما أقدمت عليه من جرم، تتساءل والندم يمزّق روحها: كيف طوعها قلبها على فعل ذلك؟ ظلّت تراقبه وتراقب صوت أنفاسه حتى أصبح الصباح عليها وهي على تلك الحال، وقبل أذان الفجر استيقظ وهو بكامل نشاطه وعافيته، وكأنّ الزئبق الذي تناوله لم يؤثر عليه، بل زاده نشاطاً وقوّة. أخبرها أنّه يشعر بنشاط غريب لم يشعر به من قبل! فحمدت الله في سرّها، وارتاح بالها، وهدأت نفسها إذ خدمت نيران وساوسها، وعاتبت نفسها على ظلمها له، فهو ليس بساحر.

خرج ناصر وأدّى صلاته في المسجد مع الجماعة، وتناول وجبة إفطاره، ومضى متأبطاً بندقته في رحلة قنص، وعاد إليها في ذلك المساء بطرائد أكثر ممّا كان يقنصه من قبل.

(6)

لم تنهأ عويذة في نومها، بل ظلت تتقلب في فراشها، متذكّرة اليوم الذي ذهب فيه ناصر إلى القنص بعد أن أخبرته أنّ مخزون بيتهم من لحم الطباء المجفف على وشك أن ينتهي، فذهب مع الفجر حاملاً بندقيته على كتفه، وقربة ماء وشوال الزاد على كتفه الأخرى، انتظرتة كعادتها في المساء لكنّه لم يعد، ظنّت أنّه تأخر في القنص وأنّه سيبيت في أحد الكهوف، أو ربما ذهب لزيارة أنسابه من الجنّ. انتظرتة في اليوم التالي ولم يعد أيضاً، وحينما طال بها الانتظار، بدأ الوسواس يأكل قلبها عليه، بدأ الشكّ يساور نفسها أنّه قد تعرض لمكروه، فليس من عادته هذا التأخير، بعثت لأخيه الشيخ منصور بمن يخبره عن تأخّره، فأتى وفي وجهه علامات الفزع والخوف، رجّته أن يتبعه ويبحث عنه، فجمع الأخ عدداً من رجال الحارة، حملوا قناديلهم في أيديهم وبنادقهم على أكتافهم، وذهبوا للبحث عنه.

ليلة كاملة قضوها وهم يبحثون في كلّ مكان ولم يعثروا عليه، عاد أحدهم إلى الحارة واصطحب القافر لتتبع أثره، وحينما تتبع القافر أثره أوصلهم إلى حيث وجدوا قريته وشوال طعامه مرمياً على الأرض، بينما هو كان على بعد أمتار منها منكباً على وجهه وقد أصيب برصاصتين اخترقتا ظهره. تراكض القوم نحوه، وحينما وصلوا كان ناصر قد فارق

الحياة، عاد رجال الحارة حاملين جثمانه على ظهر حمار، حلفوا بأغلظ الأيمان أنّ جثته لن توارى الثرى قبل أن ينتقموا من قاتله ويأخذوا بثأره، صرخت عويذة:

- قتلوه، قتلوه، علّووه.. غدروا به وقتلوه.

لم تفصح عويذة عن أولئك الذين غدروا به وقتلوه، وليس هناك من تدور الشبهة حوله، كلّ أهل الحارة أهله وأصدقائه، كلهم تدربوا على يديه، حتى أصبحوا جيشه وساعده الأيمن، ورفاقه في غاراته على بعض القبائل المعادية. حمل الرجال بنادقهم متوعدين ومهدّدين، لكنهم ما كانوا يعلمون قاتله، استمر نقاشهم ومشاورتهم للأمر ساعات لم يتوصّلوا خلالها إلى رأي سديد، فاستبدّ بهم الغضب والرغبة في الثأر، وهُدّد في ذلك اليوم كلّ من تطرّق الشكّ إليه بأن يكون قاتلاً لناصر من القبائل المجاورة، حتى وصل الغضب بهم أن اعتدوا على كلّ من صادفوه في الفلاة، ولولا تدخّل أصحاب العقل والحكمة من كبار السنّ، لتحوّل الغضب والرغبة في الثأر إلى حرب أهلية لا نهاية لها، ونار لا ينطفئ لهيبها، فثأرٌ يجرّ ثأراً؛ ولكنّ أخاه أشار عليهم بأن يوقفوا ذلك العبث وذلك الشكّ العشوائي، فليس لأخيه أعداء لأنّ الجميع يحبه ويهابه، فإن كان هناك من قتله فسينكشف أمره في يوم من الأيام، وإنّ إكرام أخيه في دفنه. واتفق كبار السنّ من الجماعة مع رأي الشيخ منصور، وواروا جثمان ناصر الثرى.

مات ناصر ولم يُعرف قاتله، إلا عويذة التي كانت تحوم ظنونها حول شخص واحد وجدت أن له في قتل ناصر مصلحة، فلم يكن هناك من تربص بناصر سواه، ألم يقتل قابيل هابيل في بداية خلق الأرض؟ لقد فعلها ولم يفعلها غيره، لكنها كتمت ذلك في نفسها، وعلمت أنه ليس من الجدوى أن تخبرهم بما تظن وهي لا تملك دليلاً على ذلك، فقد يكون استأجر أحدهم لقتله وقد يكون هو من تربص به؛ وما أكد ظنون عويذة أن الأخ لم يواصل البحث عن قاتل أخيه، ولم تجد لديه إصراراً على معرفة القاتل أو الأخذ بثأره من القتلة، بل طوي بساط العزاء بعد خمسة أيام، وأغلق المجلس سريعاً، وقد كان جديراً أن يستمر عزاء ناصر شهراً وزيادة، فكم من رجالٍ من القبائل أتوا معزّين فوجدوا سبلة العزاء مغلقة! وكم من قبيلة طالبت بالثأر ممّن قتلوا ناصر ولم تجد لدى أخيه سنداً أو عوناً أو استعداداً! فقد كان يتعذّر بأنّه لا يريد اتهام أحدٍ بالباطل، وإثارة الفتنة وإشعال نار الحرب بين القبائل، وإحداث جلبة وفوضى في البلاد، وبأنّه سيتابع بنفسه ويبحث في صمت عن قاتل أخيه، موكلاً أمره الله رب العالمين، ولكن الجماعة أجمعت أنّ مثل ناصر لا يمكن أن تشرب الأرض دمه دون أن تُنبِت ثائراً يأخذ بثأره. تجاهل الشيخ منصور الأمر، ولم يبحث عن قاتل أخيه، بل اهتم بما تركه ناصر من ميراث وأموال وشؤون أخرى محاولاً أن يحذو حذوه في أن تكون له ذات الهيبة وذات

القيمة، ولكنه لم يستطع أن ينال ما كان يناله ناصر من شرف المكانة والاحترام.

مات ناصر لكن ذكراه لم تمت، فذكره كرطوبة خلاص في اللسان، حلوا طعمها، واسمه يتردد في كل مجلس وفي كل درب من طيب سمعته وشجاعة أفعاله، مات وعمره يقارب الثلاثين عامًا، مخلفًا ولدًا وابنتين فقط، حميدة عمرها اثنتا عشرة سنة، وصالح سبع سنوات، وعزيزة أربع سنوات، وقد كان أمل عويذة في صالح الذي أورثه شجاعته وهيبته بشهادة كل من رآه ونظر إلى هيئته وحضوره في مجلس العزاء بعد وفاة أبيه..

ترملت عويذة باكراً وهي لم تنزل شابة صغيرة وجميلة، بكت فراق زوجها وتيم أطفالها، ودعت على قاتله بعد كل صلاة، وارتدت ثياباً سوداء من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وسحبت ذيل ثوبها إخلاصاً في حدادها عليه، ولم تقترب من طيب، ولم يلامس جسدها عطر أو عينها كحل، ولا اشتهدت لبس ثوب زاهٍ.

لزمت بيتها أربعة أشهر وعشر، فما كانت تخرج إلا ليلاً لتغتسل من المجازة المجاورة برفقة خادمتها زوردة بعد أن تتأكد من أن الطريق خالية من المارة؛ ورغم حزنها على زوجها تغلبت على وجع الفقد، وعاهدت روح ناصر أنها ستربي أبناءها، وستكون لهم أمًا وأبًا، وستحدث صالح عن أبيه وشجاعته.

كان الحقد قد بلغ منتهاه في قلب الأخ، وتعاضمت رغبته في الاستيلاء على كل شيء؛ وقبل أن تكمل عويذة أشهر عدتها أتى منصور مطالباً بأن يكون وكيلًا للأيتام وحافظًا لحقوقهم. رفضت عويذة في بادئ الأمر تسليمه شيئاً لولا أن تدخل المعلم خلفان وحدثها من خلف ستار أن العُرف والدين يفرضان أن يكون عم الأيتام وكيلهم حتى يشتدّ عودهم ويستلموا حقوقهم، فسلمته كل شيء مكرهةً مجبرةً.

لم يكتفِ منصور بذلك؛ بل جاء إلى عويذة بعد انقضاء فترة العدة بأيام قليلة خاطباً لتكون زوجة رابعة مع زوجاته الثلاث، بحجة أنه سيربي أبناء أخيه، ولكونه وكيلًا لأموالهم، وكيلًا يدخل رجلٌ غريب عليهم، وليكون له الحق في الدخول والخروج من بيت أخيه، لكن عويذة التي كانت في مقتبل عمرها وزهرة شبابها رفضته وطرده من بيتها، وأقسمت بخالقها أنه لن يتكشّف عليها رجل بعد ناصر، ولن يربي أبناءها غيرها وما تركه أبوهم لهم من سيرة حسنة وخلق كريم، وليست عويذة من تخاف على نفسها فتنة أو ضياعاً، وما من رجل سيدخل بيت ناصر في غيابه حتى وإن كان أخوه، فهي مكتفية بولدها صالح رجلاً في حياتها.

تمادى العم في ظلم أبناء أخيه فما كان يعطيهم من خيرات أموالهم وثمار نخيلهم إلا النزر اليسير وما يفيض ويبقى من بين يدي أولاده وزوجاته، وما كانت عويذة تستطيع أن تذهب لجني شيء من محاصيل النخيل والزروع التي خلفها زوجها لأنها بيد أخيه، وبياديره تحيط بتلك

الضواحي، حتى إنهم لم يسمحوا لخدامها «عبيد» بالدخول للعمل فيها. تذكرت جرّة القروش التي دفنها زوجها بحضورها، فذهبت وحفرت في نفس المكان، ولكنها لم تجد شيئاً، أيّ يد أخذتها ولم يكن يعلم بمكانها أحدٌ غيرها وزوجها؟! دار رأس عويذة وضاق بها الحال، وما عادت تعرف ما تفعل، فلا هي أخذت بثأر زوجها ولا هي عرفت من أخذ القروش.

استعانت على تربية أولادها وإطعامهم وفتح باب بيتها للمحتاجين بما كانت تبعه من السمن الذي تقوم بإعداده من حلب بقراتها، وكانت تذهب إلى الفلاة وتجنّي ما تستطيع من النبق والسيداف، وقد كانت خادمتها زوردة وزوجها عبيد خير من أعانوها في تلك الأيام الصعبة، وما تخلّيا عنها ولا تركاها رغم محاولة الشيخ ضمّهما إلى خدمه وعبيده، ظلت عويذة تذكر لهما صنيعهما حتى آخر لحظة في عمرها، وقد أحسنت لابنهما حمدان بعد موتهما واعتبرته واحداً من أبنائها.

لم تنس عويذة الغرفة العلوية، وتذكرت شريكها ميمونة لعلّها تجد لديها عوناً على ما هي فيه من حال صعبة وحاجة لا تُظهِرها ولا تخبر بها أحداً؛ ولأنّ من كانت تخشاه وتهابه قد مات كان عليها أن تواجه الحقيقة في تلك الغرفة المغلقة، وأن تلتقي بشريكها أو ترى ما يدل على وجودها ولو إشارة في ذلك المكان.

أصابها شيء من الخوف وهي تواجه ذلك المجهول ولا تدري كيف تفعل، ولا تعلم إن كانت الأخرى تراها وتعرف شيئاً عن حالها؛ وفي الوقت نفسه لم تستطيع إخبار أحد لأن ذلك سرّ زوجها الذي ائتمنها عليه.

وفي المساء فتحت مندوس زوجها المغلق ونبّشت فيه حتى عثرت على المفتاح الذي أعطيت إياه مع ثياب زوجها وحزامه حينما أحضروه مقتولاً، فخبّأته في حقيبة قماشية بيضاء طوتها بعناية ووضعتها تحت عدد من الأوراق الصفراء التي لا تعرف ما هو مكتوب فيها. أخذت عويذة المفتاح وخبّأته تحت وسادتها، وفي الصباح، وبعد أن خرجت زوردة ومعها الأطفال من البيت إلى المزرعة، استجمعت عويذة شجاعتها رغم خفقان قلبها وارتجاف يدها، أدارت المفتاح في قفل الباب، فانفتح القفل، وأصدر الباب صريراً وهي تفتحه، تمزّق بيت العنكبوت المُعشّش بين الباب والجدار، وطارت الخفافيش الساكنة في الروازن العلوية، قرأت الفاتحة وما تحفظ من سور القرآن، وتعوّذت من الشيطان الرجيم ونادت هامسة:

- ميمونة، ميمونة...

لكنها لم تلق جواباً ولم تسمع صوتاً، نظرت حولها لعل هناك ما يدلّها على وجود كائن حيّ في المكان، لكنّ الغرفة كانت فارغة إلا من فراشٍ صغير ووسادة، ومن تحت الوسادة يظهر طرف كتاب قديم، أصابت

عويذة قشعريرة في جسدها فلم تلمسه، سارت على أطراف قدميها خشية أن تدوس على ساكنة المكان أو أحد أولادها، وهي تردد المعوذات وسورة الفاتحة في سرها، تحدّثت إلى ميمونة المستتر خلف الجدران كما ظنّت، وقالت لها:

- إذا كنتِ مسلمة فلا تؤذيني ولا أؤذيش، من كلّ شيء معي أعطيش، ولكم ما لكم وعلينا ما علينا، لكنّ ناصر مات، وأنا كما تشوفي حالي، ما أملك مال أقاسمش إياه، وما عندنا غير هذا البيت مخلف أجدادنا، فعيشي واستقري مع أولادش، وعليش السلام ومشّ السلام.

لم تسمع عويذة جواباً، ولم يتحرّك ساكن في تلك الغرفة التي يغطّي الغبار جوانبها، خرجت وأغلقت الباب، ثم عادت مرة أخرى وفي يدها مجمر وفصوص من اللبان؛ فتحت الباب بحذر، ودخلت وبخّرت الغرفة، ثم خرجت بنفس الحذر، أغلقت الباب بالقفل، وعلّقت المفتاح في رقبتها، وكأنّها سمعت همساً وحركة داخل الغرفة حين خرجت، فاطمأنت إلى أنّ ميمونة ما زالت تسكن الغرفة، وأنّ أولاد ناصر من الجنّ ما زالوا يعيشون في بيت أبيهم.

حاولت عويذة أن تتخيل أشكال إخوة أبنائها من نسل الجنّ لكنّها لم تستطع، فلم تسعفها مخيلتها إلّا بتصوّر كائنات مشتعلة بالنار، لكنّ ميمونة مسلمة، وكما قال ناصر لها يوماً إنها جميلة، إلى درجة أنّ عويذة

شعرت بالغيرة منها وإن لم تُظهر غيرتها أمامه، حتى إنها هزّت من مشاعرها تلك، إذ كيف تغار من جنّة لم ترها ولم تؤذها؟! وهي لم تشعر بأن ناصر قد قصّر عليها بشيء إلا في تينك الليلتين اللتين كان يبيتها في تلك الغرفة، فميمونة لم تأخذه منها قدر ما أعادته إلى البيت.

اطمأنت عويذة لوجود ميمونة الخفي في البيت، وأنست جانبها، وصدّقت حقيقة وجودها، وكان عليها ألا تقصّر معها بعد موت ناصر، فكانت تتقاسم معها طعامها وشرابها، وأحياناً حين يضيق بها الحال ولا تجد من تتحدث إليه، تدخل إلى تلك الغرفة وتغلق على نفسها كما كان ناصر يفعل، وتجلس وتتحدّث عمّا آل إليه حالها رغم أنّها لا تجد من يردّ عليها سوى صمت الجدران. استمرت عويذة بالذهاب إلى تلك الغرفة لتتحدث وتقول كلّ ما في قلبها، وقد لاحظت أنّها كانت تشعر بشيء من الراحة حين تخرج، وأنّها أحسن حالاً من الحال التي كانت عليها قبل أن تدخل الغرفة.

(7)

بعد ستة أشهر من موت ناصر، أصيبت عزيزة ابنة عويده الصغرى بالحُمى، أدّت عويده نذورها كعادتها، ذبحت دجاجة من دجاجاتها وأهدت شريكها الحنّية ميمونة رأس الدجاجة وأحشاءها، وترّجتها أن تترك ابنتها في حال سبيلها إن كانت غاضبة عليها أو أساءت إلى أحد أطفالها، فعزیزة طفلة صغيرة تحبّ الجري والعبث واللعب، ولكنّ الحُمى لم تفارق جسد عزيزة، فأرسلت زُوردة إلى الباصر، وأحضرت لها الدواء والطلاسم والبخور، ولكنّ المرض لم يمهلها أكثر من سبعة أيام.

لحقت عزيزة بأبيها، سرقها الموت من بين يدي أمّها لتحترق عويده بنار الفقد مرة أخرى وهي ما زالت تتلظى بنار فراق زوجها وفقد صغيرها حمّد من قبل، فكانت مصيبتها أعظم، ونار فقد عزيزة أشدّ لهيباً ووجعاً، تحجّر الدمع في عين عويده وكأنّ الدمع لم يكن كافياً هذه المرة لتفرغ مخزون الحزن في قلبها، فكان حزنها أكبر من دمة وأعظم من كلمة. بقيت عويده هكذا أياماً عديدة تنظر إلى المعزيات ولا تقول شيئاً، غير مصدّقة ما يحدث معها، فهي لم تُشفَ بعد من مصيبتها الأولى في موت ناصر، إذ تموت عزيزة نور عينيها ووردة بيتها وفرح قلبها. تطرّق الشك مرة أخرى إلى قلب عويده الثاكل والموجوع بالفقد، وبعد أيام من الصمت تحدثت وقالت لزُوردة:

- عزيزة ما ماتت موت عيناها، عزيزة مسحورة.

لقد رأت عويذة في المنام طائرًا أخضر يُدْبِح، لكنها لم ترَ من كان يذبحه، ففسرت ذلك بأنَّ الطائر ابنتها عزيزة والذابيح ساحرها، تراكت الأحزان في قلبها وانكسرت أجنحة روحها، وانطفأت تلك الشعلة التي كانت تنير لها طريقها إلى الغد، أظلمت الدنيا في عينيها وأسدلت ستائر اليأس على نوافذ قلبها، رفضت تصديق موت عزيزة ولم تخرج مع النساء إلى المَجَازة لتغسيلها وتكفينها، لقد كانت عزيزة الأجل بين إخوتها، فشعرها الأسود الطويل المنسدل مغطياً بياض ظهرها رغم سنواتها الخمس كان يسيح في الفلج حينما تستحم، صانعاً ظلاً في الساقية، أنفها صغير، وعينيها كعين أبيها في اتساعها ولونها، لم تشكْ عزيزة من شيء يوماً، كانت بخير، تلعب وتضحك مع إخوتها، لكنَّ عويذة تذكر أنَّه قبل ثلاثة أيام من مرضها، وبعد عودتها مع أختها حميدة من المَجَازة بعد صلاة المغرب، أتت وأخبرتها أنَّها رأت أباه في الطريق، وجهه معفّر بالتراب، حاسر الرأس، بل تاركاً شعره الأشعث متدلّياً من وراء أذنيه.. وكان يحدّق بها ويشير إليها أن تتبعه:

- شفت أبوي... ماه.

- هوّه ما غيره؟

- هيه هوّه... أبوي.

سألت عويذة حميدة إن كانت رأت ما رآته أختها، لكنّها قالت إنّها لم ترَ أحداً، لقد كان الطريق فارغاً من المارة في ذلك الوقت، الرجال في المسجد والنساء ما زلن داخل المَجَازة، دخل الشكّ قلب عويذة حين سمعت من

ابنتها ما سمعت، فقرأت عليها الرقية الشرعية وما تحفظ من سور القرآن، ولكن ذلك لم يُجد نفعًا.

في الليل اشتعل جسد عزيزة بالحُمى فتوهج حارًا ملتهبًا، وما كانت تلك النار تنطفئ من جسدها ولا تغادره رغم ما فعلته عويذة وزُوردة لها من مسحها بالماء البارد ورشّها بماء الورد، وفي غرقه الحمى كانت الصغيرة تهذي بأنّها رأت أباهَا، ظلت راقدة في فراشها والحمى لا تفارق جسدها الضعيف، وكلّما فتحت عينيها نادى وصرخت: باه... باه... حتى برد جسدها ذات صباح وقد فارقت الروح، صرخت عويذة وهي تضمّ جسد ابنتها إلى صدرها وقالت:

- علوه خذوا البنت ولحقوها بناصر.

تلوم عويذة نفسها لأنّها صدّقت كلام الباصر حين قال لها إنّ البنت أصابتها «حُماتها» وإنّها ستشفى، ولا سحر يبدو عليها، لذا عليها ألا تقترب من الزئبق، وألا تناوله لابنتها لثقله على المصاب بالحمى. «عزيزة مسحورة» هكذا كانت تردد وهي جالسة على درجة باب غرفتها. أثقل الحزن قلب عويذة وروحها، فكانت تقضي نهارها وهي تشمّ ثياب ابنتها وزوجها وتبكي، وتقضي ليلها ساهرة ساهدة حتى رسم الأرق ظلالًا سوداء تحت عينيها، وأحيانًا تسمعها زُوردة تتحدث ليلاً بمفردها فتوصي الأب على ابنته، وتخبر البنت أن تسلّم على أبيها، وتطلب منها أن تخبره عنها وعن إخوتها.

وبعد أيام من الحزن الذي كان يأكل فؤاد عويذة التي انكسرت رغم صلابتها، وضعفت رغم مقاومتها، أصيبت بوسواس وخوف من أن تفقد

أحد أبنائها، فما كانت تسمح لابنتها الكبرى حميدة بالخروج من البيت إلى المَجازة أو الفُرْضة في رأس الفَلَج أو حتى ضاحية البرسيم إلا بصحبة زُوردة التي تثق بها وتعلم حرصها على أولادها حرصها على ابنها. ولم تكن تسمح لصالح بالذهاب إلى القَنَص، ولم تسمح له حتى بالذهاب إلى المسجد إلّا بعد إصراره على الذهاب لقرب المسجد من البيت، واعدًا أمّه بألّا يذهب إلى أيّ مكان، وألّا يجلس في دكوك بوابة الحارة، وألّا ينشغل باللعب مع الأطفال في مطاردة الفنازير والجراد.

وحدث ذات ليلة بعد شهر تقريباً من موت عزيزة، وفي ليلة لم تنم فيها عويذة، وبينما هي جالسة على عتبة باب إحدى الغرف أن رأتها تسير في حوش البيت، ترتدي ثياباً ممزّقة، تتجه إلى المطبخ وتبحث فيه عن طعام، تحلف عويذة لزُوردة أنّها هي، وأنّ الثياب الممزقة التي عليها هي الثياب التي ألبسوها إياها عند دفنها، وقد سمعت قرقرة الأواني داخل المطبخ، ولكن لم يكن من طعام هناك! حاولت عويذة النهوض من مكانها واللاحق بابنتها كي تمسكها وتقطع إصبعها لتعيدها إلى الحياة، فإنّ فاتها تزبيقتها وهي مريضة فلن يفوتها قطع إصبعها لإرجاعها إليها، فكما سمعت أنّ الذي يموت مسحوراً يعود إلى أهله إذا قطعت إصبعه، فالساحر يعقد السحر في إحدى أصابع المسحور، ولكن كائن أقدامها دُقَّت بمسامير على الأرض فلم تستطع النهوض، وكأنّ جسدها صخرة من حديد. نظرت الفتاة بعين باكية إلى عويذة الجالسة على العتبة أمام الباب، ولكن كائن عويذة عمّي على عينيها، أو غابت

عن الوعي من تلك النظرة الحارقة الحزينة، وحينما استفاقت لم تكن البنت حيث كانت.

صاحت عويذة وناحت وكأنّ جنازة الفتاة حُمِلَتْ في تلك اللحظة، استيقظ كلّ من في البيت، زُوردة وعبيد وحمدان وصالح وحميدة، أشعلت زُوردة فتيلة السّراج، وبحثت في المطبخ دون أن تجد أحداً، لكنها وجدت الأواني قد سقطت على الأرض وكأنّ أحداً قام بتحريكها أو إسقاطها، ثم صعدت عبر الدرجات إلى الغرف العلوية ولم تجد شيئاً أو أحداً، ولكنها رأت، في طريق عودتها وهي تنزل من السلالم، قطعاً أسود ينظر إليها بعيون لامعة، فنفخ في وجه زُوردة وولى هارباً، حتى إنّ زُوردة أفرعتها تلك اللمعة في عينيه والنفخة التي نفخها في وجهها.

- حَيَّيْ ما شفت حدّ.

- زُوردة ما دورتي زين. أنا شفتها، البنت جابها الجوع والشوق.

تؤكد عويذة لزُوردة أنّها رأتها تخرج من المطبخ، شعرها كان مفتوحاً وقد أصبح أكثر طولاً، حتى إنّّه وصل إلى بطن ساقها، عزيزة وليس غيرها، وكيف لا تعرف ابتتها وصورتها لم تفارق قلبها، قرأت زُوردة المَعَوّذات على رأس عويذة، وطلبت منها أن تتعوّذ من الشيطان الرجيم وتدخل إلى غرفتها وتعود إلى فراشها، لكنّ عويذة ظلّت في مكانها ولم تتحرّك، وهكذا ظلّت على تلك الحال سبعة أيام لبلياليها وهي تنتظر ابتتها لعلّها تعود. وحينما يئست من عودتها وحضورها بدأت تضع لها الطعام في سلة سَعَفِيّة علّققتها في وتد بجدار حوش البيت، وفي الصباح كانت تلاحظ أنّ الطعام قد اختفى،

وكان ذلك يدخل في قلب عويذة شيئاً من الأمل أن ابتتها لم يأكلها السحرة حتى الآن ولم يبعدها عن الحارة، ولم تكن تعرف أن زوردة كانت تأخذ الطعام لابنها حمدان بعد أن ينام الجميع. ولكن حين وجدت زوردة أن الأمر لن يساعد عويذة التي أصبحت تضع من الطعام أفضله في تلك السلّة، خافت عليها من الجنون، فلم تعد تأخذ الطعام، فيبقى على حاله حتى اقتنعت عويذة أن ابتتها لم تعد تأتي. احتل اليأس قلبها، وتملّكها شك كبير في أن ابتتها مسحورة وقد أبعدها عن بيت أمّها والبلاد، واحتاجت شهوراً، وربما عاماً وأكثر، حتى صدّقت أنّها ماتت بالفعل ولن تعود إليها.

تجاوزت عويذة تلك الأيام الصعبة بعد معاناة طويلة، واقتنعت أخيراً أن الحيّ أبقى من الميت، وأنّ عليها أن تتبّه إلى صالح وحميدة، وتحسب أمرها لله رب العالمين، فغلّفت أحزانها وأغلقت عليها داخل نفسها، وتعايشت مع وجع الفقد، ولم تشتك من ظلم عمّ أولادها لهم وأكله مال الأيتام بالباطل، بل كرّست كلّ حياتها لتربية صالح وتنشئته ليكون رجلاً كأبيه، وقد كان صالح بما يحمل من صفات الرجولة والشجاعة مهياً لأن يكون كما شاءت له أمّه أن يكون.

(8)

تنته عويده بعد ليلة صيفية لم تتحرك فيها خُوصة في نخلة إلى أنّها لم تنم وهي تقلّب ذكرياتها، وقد أوشك الفجر على البزوغ، وما أن أمالت رأسها وجسدها على الجهة الأخرى لعلّها تغفو قليلاً حتى سمعت صوت صياح طفل حديث الولادة، فظنت أنّها قد تكون غفت وما تسمعه ليس سوى أضغاث أحلام، وأنّ ناصر ما زال يحاول زرع أوهامه في نفسها رغم موته البعيد الذي مضى عليه ما يقارب عشر سنوات.

يلحّ عليها صياح الطفل المتواصل لتفتح عينيها على المكان الذي تكسوه عتمة الليل، تلقي نظرة على سطح البيت وأسطح البيوت المجاورة، تنكشف أمامها البيوت النائمة تحت العتمة، لم تلحّ إشارات الفجر بعد، فلم يرفع المعلم خلفان صوته بالأذان، ما زال الوقت باكراً جداً كما تدلّها الظلمة والهدوء، ليس من هجس في طريق الحارة، فقط ديك جارتها المزعج كان مستيقظاً معها، ولا يكفّ عن الصياح، وصوت كلاب تنبح بالقرب من الوادي، كأنّها «حرارة سيل» غمغت عويده وهي ترخي لحافها من على رأسها محرّكة المروحة على وجهها من شدة الحر، تُنصت لصياح الطفل حديث الولادة الذي يأتي من مكان ما داخل البيت، ظنّت عويده في البداية أنّ سكان المكان من الجنّ يعبثون معها، وخصوصاً أنّ شريكها ميمونة ربّما ما زالت تعيش معهم، وقد يكون هذا أحد أحفادها، فكما قال لها زوجها بأنّها لن تبعد عن هذا المكان حتى بعد موته، فهذا بيتها.

تتحرك من فراشها، تسير حاملة قنديلها، تنزل الدرجات المبنية من الطين والحجر بحذر، لم يأت الصوت من الطابق الأول من البيت، بل من الطابق السفلي، تتبع صياح الطفل المتلاحق وأنين امرأة تتألم حتى توصلها تلك الأصوات إلى زريبة الغنم، تسأل بصوت قلق:

- إنس ولا جنّ...؟

يأتيها الردّ بصوت متعب واهن:

- إنس عمتي هذي أنا، تعالي.

في تلك اللحظات ارتفع صوت المعلم خلفان بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، فردّدت عويذة خلفه: «الله أكبر، ولا إله إلا الله» وهي تسرع بالدخول إلى الزريبة، تعلّق القنديل في وتد على الجدار، وعلى ضوء القنديل ترى خديجة وقد اتخذت مكاناً قصياً في إحدى الزوايا، مسندة ظهرها على الجدار والعرق يتصبب من جبينها، وبين يديها طفل صغير على رأسه ووجهه آثار دماء وماء الرحم، ملفوف بقطعة قماش، تناولت المولود من يد خديجة وكشفت عنه قماطه، فوجدتها أنثى.

سارعت عويذة بقطع الحبل السري، وأعادت الطفلة في قماطها وأخذتها بين يديها وهي تتأملها بفرح، ساعدت خديجة التي كانت ترتجف كطير مذبح على النهوض والخروج من الزريبة، نادى على صالح كي يخبره، وكي يساعدها على إخراج خديجة من المكان، فهي لا تأمن أن يكون المكان مسكوناً، لكنّ صالح كان قد ذهب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر.

حينما خرجت عويذة من الزريبة كانت السماء تمطر، غطّت الصغيرة بلحافها وركضت بها، وحثّت خديجة كي تلحقها، ورفعت رأسها إلى السماء وقالت:

- صلاة محمد السلام، ربّنا أعطانا بنية وأنعم علينا بالسيل، الجو ما كما عادته، الجو هذي الليلة حار حرارة خانقة، ولكني قلت في نفسي يمكن سحابة صيف وعابرة، لكن الخير جاي.
لم تعلق خديجة على كلام عمّتها، إذ كانت ما زالت تشعر بالتعب وتسير ببطء لخدرٍ في ساقبها من أثر الولادة.

استبشرت عويذة خيرًا بميلاد حفيدتها وسقوط المطر الذي لم يسقط منذ فترة طويلة، أدخلت الطفلة إلى إحدى الغرف وغسلتها وهي تقرأ عليها المَعُودَات وما حفظت من أدعية وسور القرآن، اغتسلت خديجة في الزاوية العلوية من البيت، وألبست عويذة الطفلة ثيابًا كانت خديجة قد أعدتها في صرّة صغيرة، ثم أحضرت تمرّة، بللتها بقليل من الماء ودلكتها بين إبهامها وسبّابتها ومسحت بها حنكها، ثم لفّتها بثوب آخر وغطّتها بلحافها، ودخلت بها إلى الغرفة التي ستنام فيها خديجة مع صغيرتها في فترة النَّفاس، كحلت عيني الصغيرة، ومررت المِرود على حواجبها بالكحل ووضعت نقطة سوداء بين حاجبيها، وشدّت أنفها بأصبعيها وضغطت بإصبعها على جبينها وربطته بعصابة سوداء، وقرأت عليها شيئًا من التعاويذ والأدعية بصوت خفيّ هامس، توضّأت وصلّت صلاة الفجر، وجلست بانتظار صالح الذي عاد من المسجد راكضًا وهو يقول لها:

- نَفَاف يا العودة ، سيل بركة ورحمة من ربّ العالمين .
- فردت عليه عويذة بصوت فرح ومبتهج :
- وربّنا أعطانا بنيّة .
- تهللت أساير صالح الذي وجد أنّ اليوم يوم مبارك بنفّات المطر وأنّه أصبح أباً، مدّ يديه لتناول طفله، فتناولها بحرص وحذر وقربها من وجهه وعينه ..
- تبارك الرحمن .. وكيف صحة خديجة؟
- خديجة بخير والحمد لله، ولكن كيف ما خبرتني لما بدأها الألم، ما كنت نائمة، كنت أحاتها وأفكر فيها، والأحلام تأخذني وترجعني، كما قلبي حاسّ .
- ما خبرتني، وكلّ ظني لما شفّتها تخرج من الغرفة إنها رايعه المَترَب لتقضي حاجتها. في الفترة الأخيرة تنهض أكثر من مرة في الليلة، تعرفي خديجة يا أمي كتومة وصبورة .
- الحمد لله أنّ الطفلة بخير، موه نويت تسميها؟
- نَفَافَة .
- اسم غريب هذا يا ولدي، نسّمّيها «عديمة» على اسم أمي رحمة الله عليها .
- البنت جات واسمها معها، كما نفّة سيل من السماء، وكما قطرة مطر على فؤادي، هذي بنت مباركة .
- عجب سَمّيها مباركة أو مبروكة .

- اسمها نَفَافَة، وإذا رزقني الله بنت ثانية أسميها عديمة.
- قال الله ولا فالك، ادع الله أن يرزقك ولد، لا اعتراض على نعمة الله، والبنات نعمة وبركة ويأخذن بيدين والديهن للجنة، لمن أحسن تربيتهن، ولكن الولد يحمل اسمك واسم جدودك، وما أريد ينقطع ذكر ناصر من هذي الدنيا.
- ومع أنّ صالح كان يتمنى ولداً، لكنّ سعادته بميلاد نَفَافَة وسلامة خديجة كانت كبيرة، فالطفلة جاءت كنَفّة مطر على قلبه، رضيت عويذة باسم حفيدتها وباركته، ونسي صالح أن يسجّل تاريخ الولادة، وربما غفل عن ذلك، ولم يكتبه على هامش المُصَحَّف كما فعل حينما سجّل تاريخ ولادة ناصر الذي وُلد بعد ولادة نَفَافَة بثلاث سنوات في إحدى صفحات المُصَحَّف، ليصبح تاريخ ميلاده كآية قرآنية يحفظها صالح ولا تغيب عن قلبه، لذا لم يعرف أحد متى ولدت نَفَافَة على وجه التحديد، ولا في أيّ يوم، أو في أيّ ساعة تحديداً من ساعات الليل الأخيرة، لكنّ عويذة المعروفة بقوة حفظها لم تنسَ بأنّ نَفَافَة ولدت في النصف الأخير من شهر شعبان، وتؤكد على ذلك بأنّ خديجة لم تَصُم رمضان كاملاً في ذلك العام لأنّها كانت بحالة نفاس؛ ومع ذلك فالتاريخ ليس أمراً مهماً، وما كان أحد يهتم بأمر الأرقام في حارة الوادي، بل يؤرخون أيامهم بأحداث أخرى، ويكفي أنّ عويذة تذكر بأنّ نَفَافَة وُلدت في سنة الجوع، وليس هناك من يجهل سنة الجوع، وقد أتت مع المطر الذي استبشروا بهطوله خيراً لانتهاى سنة الجوع والمحل والجفاف، وذلك حدث لا يُنسى.



بعد ولادة نَفَاقَة، ذبح صالح إحدى الغنمات كطعام نفاس لخديجة، وأخرجت عويذة بعضًا من لحم الذبيحة كصدقة لبركة المولودة، وتركت الباقي لخديجة مطبوخًا ومجففًا. لم ترقد خديجة في فراشها إلا أيامًا قليلة، فسرعان ما طوت فراشها لتساعد عمّتها التي تعمل وحدها في البيت بلا مُعين. ورغم طلب عويذة منها أن تجلس حتى تتعافى، أبت خديجة إلا أن تطوي فراشها، فجميعّة أم حَلُوفَة لم تأتِ سوى أسبوع واحد فقط لتساعدهن بعد أن أرسلت لها عويذة حمدان ليخبرها بأن تأتي لأنّ خديجة ولدت، وهم بحاجة إلى وجودها معهم في البيت، لإعداد الجولة والعسل وصبّ القهوة على النساء الزائرات المهنّئات لخديجة. لم تطلب عويذة من جميعّة أن تعود مرة أخرى، وأرسلت لها مع حمدان ما اعتادت أن تعطيها إياه عندما تأتي لمعاونتها، زيل من التمر وجرة سمن صغيرة، وكانت عويذة قد حضّرت بنفسها سلّة مليئة بأنواع العطور والبخور والزيوت المعطرة بعطر حنّلة البدويات للنساء الزائرات، فما كان يرضيها أن تخرج امرأة من بيتها وهي غير متبخّرة ولا متعطّرة أو داهنة جبينها بالمحلّب والزعفران، فكانت كلّ امرأة تخرج من بيتها كأنّها عروس.

عرفت عويذة أي امرأة اختارت لابنها، فخديجة هي ابنة زَيَانَة المعروفة بنشاطها وحسن تربيتهابناتها؛ وقد أتمّت عويذة ما بدأته زَيَانَة في تربيتهابناتها، لأنها كانت ترى فيها عوضًا عن عزيزة التي ماتت في سنّ صغيرة، مخلفّة في نفسها حسرة، وفي قلبها نارًا لا تنطفئ، وفي روحها كسرًا لا يُجبر،

فأحبّتها محبّتها لعزيزة وكأنّ لواعج قلبها المشتاق للصغيرة الراحلة هدأت بوجودها.

تذكر عويّدة أنّ خديجة أصغر من صالح بسنوات غير محسوبة وإنّها تقارب حمدان ولد زوردة عمرًا، وقد ربّته عويّدة كابن لها بعد وفاة والديه بالجدري وبقي خادم العائلة وبيدارها، وحينما أتت خديجة إلى بيتهم، التصق حمدان بها وما كان يفارقها، وكأنّ شيئًا ما يشدّه نحوها، وكانت هي تلعب معه، فلم يكن في البيت من تلعب معه غيره؛ فحميدة الابنة البكر لعويّدة قد تزوجت من ابن عمّها رغم رفض عويّدة في البداية تزويجها منه، لكنّها لعنت الشيطان ووافقت، فالولد لا يحمل من أخلاق أبيه شيئًا، وعسى أن يُكتَبَ لها الخير معه، وما كانت البنت في حارة الوادي تخرج من بيت أسرتها، فالبنت لابن عمّها إلّا إذا طابت نفسه منها، ولن تخالف عويّدة أعراف الحارة وتقاليدها، وكان ذلك قبل أن تعرف الحقيقة كاملة حول موت زوجها وقاتله.

لاحظت عويّدة فرحة حمدان بوجود خديجة والتصافه بها، حتى إنّّه في الأيام الأولى التي رُفّت فيها إلى صالح كان يظل رابضًا في البيت ككلب حراسة، وقد غضبت عويّدة من خديجة حينما وجدتّها تلعب معه لعبة «الخمس» ذات يوم، وذكرتها أنّه من العيب أن تلعب الفتاة مع الولد ولو كان خادمًا، وكان حمدان ينال نصيبه من كلماتها التي تذكره فيها أنّ الرّجل وإن كان طفلًا ليس عليه اللعب مع الفتيات، بل عليه أن يسير خلف صالح ويتبع أثره وخطوة قدميه، لكنّ حمدان يبقى جالسًا حيث تكون خديجة تابعًا لها

كظللها، وإن خرج يعود مسرعاً متأملاً وجهها لا يكاد يرفع عينيه عنها. وعندما لاحظت عليه عويذة الخمول وطول بقاءه في البيت وقد أهمل أشجاره ونخيله التي يحبها أخرجت له العصا، وقبل أن ترفعه كان حمدان قافراً راکضاً، وما كانت عويذة تضربه ولا تريد ضربه، وما قصدتها من ذلك سوى ترهيبه وتربيته، وقد أصبح يفهم هو ذلك حينما يجدها قد أخرجت عصاها، فلا يجلس بانتظار العصا حتى تقع على ظهره، بعد أن قالت له عويذة يوماً وهي في حالة غضب، وبعد أن ضربته:

- لَمَّا تشوف العصا في يدي وشياطين الدنيا في رأسي، فزّ، اقفز، اركض، لا تجلس رابض كما الدجاجة، الدجاجة وتهش عن نفسها وتفرفر، طير من قدامي قبل عن تصيح العصا في ظهرك.

فهم حمدان وصالح لعبة التخويف التي تلعبها عويذة معهما، لكنهما مع معرفتهما بحنانها وطيبة قلبها، ظلّا يهابانها ويرهبان نظرتها إذا نظرت إليهما في لحظة غضب، فكانا يتجنبان التأخر في المسجد أو اللعب مع أطفال الحارة، وكان صالح يتجنب الخطأ كما يفعل غيره ممن هم في مثل عمره، فيحرص على مخالطة الرجال والجلوس في مجالسهم والتعلّم منهم، مع ما تبثّه عويذة في صدره من توصيات وتعليمات، وما تحدّثه به عن أبيه وشجاعته. وقد اكتسب حمدان صفات صالح ونهَجَ نهجَه، فكان صالح له أخاً كبيراً ومعلّماً، فما اشتكى أحدٌ من حمدان يوماً بل شهد له الجميع بحسن أخلاقه.

(9)

بعد أن ولدت خديجة ابنتها البكر نَفَافَةً لم تسمح لها عويذة بالخروج من البيت خشيةً عليها وعلى الطفلة الرضيعة، فكانت تقوم بمعظم الأعمال عنها قائلة لها بحنان بالغ:

- لو عليّ، خوصة ما حركت من الأرض.

وكانت تلك الكلمات الحنون والمعاملة الطافحة بالعاطفة تجعل خديجة تزداد حباً لعمّتها أم زوجها التي هي في منزلة أمّها، فما كانت تناديها عمّتي كما تفعل زوجات الأبناء، بل تناديها ماه، ولم يكن فخر عويذة بزوجة ابنها بسيطاً ولا محبّتها لها قليلة، وكثيراً ما تحكي عن صبر خديجة وتحملها في أول ولادة لها وكأنّها تحكيها للمرة الأولى، وكأن من يستمع إليها لم يسمع الحكاية من قبل، لما تزيّن به حديثها من تفاصيل تُظهر صبر خديجة، مستحضرة سيرة زَيَانَةَ أم خديجة التي لا تضاهيها امرأة في التحمّل والصبر أيضاً.

هكذا كانت خديجة كما وصفتها عمّتها عويذة ليست عن سبعة رجال فقط بل عن جيش رغم صغر سنّها، فما زالت في الخامسة عشرة وربما أقلّ، وحين حملت لم تكن تعلم عن أمر حملها، فطلّت تقفز كغزالة بين البيت والضاحية والفلاة، لم ترقد يوماً في فراشها شاكية أو باكية، ولم تشعر عويذة أو أحدٌ من أصحاب البيت بما تعانيه في الأشهر الأولى من

الحمل، بل كانت تعصر ليمونة حامضة في فمها مع قليل من الملح لتدفع بهما شعور الغثيان الذي يداهما دون أن تشتكي أو تُخبر أحداً، وما عرفت عويذة عن حملها إلا حين لاحظت أنها تضع يدها على فمها وأنفها وهي تطبخ الغداء، فتركتها وشأنها وكأنها لا تعلم شيئاً.

لم تتوَحَّم خديجة كما تتوَحَّم النساء الحوامل، ولم تشتهِ ثمرة مانجو ولا قرن قاشع ولا ثمرة حايلة من تمور النغال، ولم تطلب فاكهة في غير موسمها، لكنّها أيقظت زوجها ذات ليلة وهو يغطّ في نوم عميق وطلبت منه أن يُحضِر لها قليلاً من الطين، وقالت له بهدوء وخجل وتردُّد:

- قوم، روح جيب لي شوية طين.

لم يكن من عادة خديجة طلب شيء من زوجها إلا قليلاً ونادراً، وكان يسعده أن تطلب منه شيئاً يستطيع إحضاره لها، ولكن هذه المرة كان طلبها غريباً وفي وقتٍ متأخّرٍ من الليل، فضحك منها وهو يفرك عينيه ليتأكد أنّ ما سمعه منها حقيقيّ أم أنّه يحلم، لكنّها أعادت الطلب مرة أخرى، فضحك، ونظر إلى وجهها المتوهّج بالحمرة على ضوء القنديل باستغراب وهو يغالب النوم:

- استهدي بالله يا حرمة، موه باغية بالطين في هذي الساعة من الليل،

الإنس والجن في سبات وأنا وأنت ندور الطين، أي جنون هذا؟

عاد صالح للنوم، حاولت خديجة أن تغمّض عينيها، لكن اشتهاها للطين ورائحته سرق النوم من عينيها، ظلت تقاوم تلك الرغبة الغريبة التي

تلبّستها في تلك اللحظة فلم تستطع، وحينما غفا صالح خرجت، واقتطعت قطعة صغيرة من جدار الحوش وبللتها بالماء وشمّتها طويلاً ثم بدأت بأكلها، حتى إنّها بدأت تخزّن الطين في غرفتها كي تأكله حين تداهمها تلك الرغبة المجنونة في منتصف الليل، دون أن توقظ صالح من نومه خشية أن يضحك عليها ويتهمها بالجنون، وكانت إذا مرت على طين تأخذ منه في قبضة يدها وتأكله في غفلة من الجميع، فكان هذا وحامها الذي لم تُخبر به أحداً إلاّ صالح الذي نسي الأمر وكأن ما سمعه منها لم يكن إلاّ صوتاً في حلم، وما عاد يسمعه مرة أخرى.

استمرت خديجة تأكل الطين سرّاً حتى كشفتها عويذة ذات يوم حينما وجدتها تقتطع قطعة طين جافّة من جدار البيت وهي في طريقها إلى غرفتها، فابتسمت، إذ مرّت هي بمثل هذه الحالة، وقد توحّمت على اشتهاؤها الطين حينما كانت حاملاً بابنها صالح. لم تطل فترة الوحام مع خديجة، فما إن وصلت شهرها الخامس حتى توقفت عن اشتهاؤ الطين، وحين شعرت بحركات الجنين في بطنها أخبرت عمّتها عويذة على استحياء وبخجل شديد أنّها حامل، فباركتها ودعت الله أن يرزقها الولد الذي سيأتي خليفة لجده ناصر. لم تكبر بطن خديجة كثيراً، حتى إنّ من يراها لا يظنّ أنّها حامل، وربما كان ذلك لطول قامتها أو بسبب الملابس الواسعة التي كانت ترتديها فتخفي بروز بطنها، ولم يكن حملها بالشيء الذي يجعلها تلزم البيت أو تتهاون في

أداء واجباتها؛ وكم حاولت عويذة أن تجعلها تلتزم البيت وتكتفي بالأعمال الموجودة فيه من تنظيف البيت وزرائب الغنم ووضع التمر الحائل في أواني البقر والغنم، وإعداد الطعام، ولكنها كانت «هبة ربح» كما تصفها عويذة، تنجز أعمالها الصباحية باكراً وتحمل الهاندوة على رأسها والجحلة في يدها، وتذهب مع جارتها زهرة لتنزف الماء من الفرصة، وتجزّ البرسيم وتعلّق حزمًا منه للأغنام، وتحلب البقر، وتخبز وتطبخ وتذهب للفلاة لتحطب وتجني البوت والعتم والسيداف، كانت تفعل كلّ شيء حتى تكاد تنسى أنّها حامل لولا حركات الطفل داخل بطنها، وقد استشارت جارتها زهرة عمّا ستفعله إذا أنتها لحظة الولادة، فأشارت عليها أن تختبئ في زريبة الغنم وتلد هناك، كيلا يتسخ فراشها، وقد ولدت هي أيضًا قبل ثلاث سنوات ابنها البكر حمود في الزريبة.

وبعد أن أصبح صالح أبًا، كان على عويذة أن تبحث لحمدان عن عروس أيضًا، فقد أصبح في سنّ مناسبة للزواج، ولن يبحث له أحد عن عروس إن لم تفعل هي ذلك، ففكرت أنّه إذا أصبح لحمدان زوجة فستعيش معهم في غرفته بالطابق الأرضي من البيت، وستكون عونًا لها مع حديجة كما كانت أمه زوردة رحمها الله. وأول من خطرت في بال عويذة خلوفة بنت جُميعة، وقد أحست عويذة بميل خلوفة إلى حمدان من

نظراتها إليه وحضورها في الأوقات التي يكون موجودًا فيها بالبيت، ومن رائحة عطرها وبخورها ومحاولتها للفت انتباهه، ورغم معرفة عويذة وفهمها لحركات خَلُوفَة التي لا تخفى عليها، وإن كانت خافية على حمدان الذي لا ينظر إليها ولا يلتفت لها، إلا أن عويذة نبّهتها ذات يوم قائلة لها:

- يا ابنتي، الرجال تثير شهوتهم الرائحة العطرة، وتحرك رغبتهم نظرة العين، فلا تتعطري ولا تتبخري وأنت سائرة بطريق، عن يظنوا بك ظنّ السوء، ويرمونك بما ليس فيك، احفظي نفسك حتى يجي ابن الحلال ومن يستحقك.

فتضحك خَلُوفَة في غير حياء، وتقول:

- يا حيي عويذة، لا ابن الحلال جاء ولا ابن الحرام. ضحكت عويذة من كلامها وفهمت ما ترمي إليه، فالفتاة وإن كانت صغيرة السن لكنّها ليست ساذجة ولا بريئة براءة خديجة وحميدة، لكنّها وبعد أن سألت عنها وتأكدت من أخلاقها، عرفت أنّها بنت ضحوك مرحة، ولكنّها ليست لعبًا ولا تفرط في نفسها وشرفها، فاتخذت قرارها بخطبتها لحمدان، وقبل أن تحدّث أمها جميعّة في الأمر حدّث حمدان عن رغبتها في تزويجه منها، لكنّ حمدان قطّب جبينه وقال على الفور:

- ما أريد أتزوج خَلُوفَة، ولو على قصّ رقبتني.

فغرت عويذة فمّها:

- ومو يعيبها خُلُوفَة؟ وموه ناقد عليها؟
- ما شيء يعيبها، وما ناقد عليها شيء، ولكنني ما أريدها.
- قل لي انزين من تريد وأنا أخطبها لك. من هم في مثل عمرك فتحوا بيوت وأصبحوا آباء، وأنت جالس لا زوجة ولا ولد، وإن تركتك كذاك يسألني الله عنك يوم القيامة.
- هذا بيتي، وما أريد حريم ولا أولاد.
- يا ولدي هذا الكلام ما يقوله عاقل، ما ينفع الرجال غير أولاده، الإنسان ما دائماً بخير، وخُلُوفَة بنت حارتنا ونعرفها ونعرف أخلاقها.
- يا حيي ما أريد أتزوج، وخُلُوفَة الله يرزقها رجل طيب، يحبها ويصونها، أنا ما أصلح لها زوج، ولا أريدها ولو عطية بدون مال.
- وأمسك أذنه بيده قائلاً:
- علووه ما أبغاها...
- دخل صالح وهما يتحاوران، فأخبرته عويذة عن رغبتها بتزويج حمدان من خُلُوفَة ورفضه لها، فعلق صالح ضاحكاً:
- لولا معرفتي بحمدان لقلت عنه إنه....
- سكت صالح ولم يكمل، فأكملت عويذة عنه:
- حمدان رجال، ومتربّي في بيت رجال.

- وأنا أشهد بذلك يا أمي، كنت أمزح بس، لا تكثري عليه، ودعيه لشأنه حتى يطلب بنفسه الزواج، وأنا متكفل بخطبة العروس وبناء البيت وتكاليف العرس.
- هاه يا حمدان، وموه تريد أكثر من كذاك؟
- نظر حمدان إلى عويذة وصالح، وحكّ رأسه مبتسمًا:
- حبابي ما أريد غير سلامتكم.
- ثم قام وحمل حبله وقفيره وأدواته وقال:
- برخصتكم حبي وحبابي، تأخرت على نخيلي.
- علّق صالح ضاحكًا:
- حمدان متزوّج النخلة، فاتركيه يا أمي حسب ما يريد، يقولوا «العطشانة كاسرة الحوض» فلا تصدّعي رأسك ورأس حمدان أصمّ لا يسمع.

(10)

تتذكر عويذة اليوم الذي أحضر ناصر فيه زوردة، فحينما دخل من الباب رأت فتاة صغيرة سوداء تسير خلفه متعثرة في مشيتها، ظنت في البداية أنها زوجة جديدة أحضرها ناصر معه ليلحقها بالجنية الساكنة في الغرفة العلوية، لكنه بادرها قائلاً:

- جبت لك خادمة، تساعدك في شغل البيت.

نظرت عويذة إلى الفتاة الحالكة السواد المرتبكة في حياء وخوف، فرأتها صغيرة هزيلة، فخشيت ألا يكون لها قدرة على تحمّل مشقة العمل في بيتهم:

- هذي البنت صغيرة، تحتاج إلى من يربّيها.

هذا ما قالته لناصر، لكن ناصر قال لها:

- اشتريتها لتساعدك في أعمال البيت وتكون عون حالك، وما عليك غير تعليمها وتدريبها، الصغيرة أتكبر وأتعلّم على يدك.

بقيت الفتاة منكشمة على نفسها ومنزوية في إحدى زوايا البيت، تنظر إلى الجميع بخوف وحذر وتقلّب عينها في كلّ الاتجاهات، نظرت إليها عويذة نظرة فاحصة فرأتها طفلة سوداء فاحمة لا يظهر منها سوى بياض عينيها وسواد مقلتها، وأسنانها البارزة؛ حتى إنّ شفيتها لا تنطبقان على بعضهما لبروز أسنانها العلوية، يحتل أنفها العريض مساحة كبيرة من

وجھها الدائري، حاسرة الرأس بشعرها الأجعد الذي تمّ تضيفه في صفائر كثيرة صغيرة تملأ رأسها، يكاد اللحاف الملّون الذي ترتديه لا يستر جسدها كاملاً، فلم يكن سوى قطعة قماش مربعة كبيرة وغير مخيطة، تلفّ بها جسدها من أعلى الصدر وحتى أسفل الركبة. وحينما اقتربت عويذة منها جفلت وقفزت للخلف كقطّ أسود خائف، وغطت عينيها يديها وألصقت وجهها بالجدار، وحين رأت أنّ عويذة ابتعدت عنها فتحت عينيها وبدأت تقلّب طرفها في المكان والوجوه وكأنها تبحث عن شيء مفقود، دون أن تقول شيئاً أو تتحرك من مكانها.

بدت الفتاة لعويذة صغيرة لضعف جسدها، ويعلم الله أنّها ما تجاوزت العاشرة كما قدّرت عمرها، فعاملتها برفق ولين وبدأت في تعليمها أعمال البيت، فكانت سريعة التعلّم محبّة للعمل، وقد أخبرها ناصر حينما سأله عنها أنّه اشتراها من أحد التجّار الذي أتى بها تهريباً من زنجبار على متن سفينة مع مجموعة من العبيد لبيعهم سرّاً، وأن الفتاة اختطفت من عائلتها هي وفتيات أخريات ليتمّ بيعهنّ في عدن، وفي عدن اشتراها أحد التجّار العمانيين مع فتاة أخرى، وقد سمع ناصر عن الفتاتين، فذهب لينظر إليهما لعلّه يشتري إحداهما، فاشترى الأصغر سنّاً لتساعد عويذة في أعمال البيت.

ظلت زوردة هكذا لأيام لا تنطق بكلمة واحدة، حتى ظنّت عويذة أنّها خرساء وقد رفضت في البداية تناول الطعام الذي كان يُقدّم لها، فخامر

عويدة الشك في أنّ الفتاة مسحورة، وقد بدأ في تلك الأيام شكّها في زوجها بأنّه تعلّم السّحر، وقد سمعت أنّ السّحرة بعد فترة من إخراج المسحور من قبره يعيدونه إلى هيئته البشرية، ولكنّهم يسلبون عقله وذاكרתه فلا يعود يتذكّر شيئاً، ولا يعرف من الحياة إلّا خدمة الساحر الذي سحره واستعبده. ظلت عويدة تروح وتجيء على تلك الفتاة الخائفة واضعةً لها الطعام أمامها دون أن تلمسه، ولكن بعد أن قرصها الجوع أكلت وشربت، وإن ظلت في نفس مكانها كدابةٍ مقيدة، حاولت عويدة أن تتحدث معها بعد أن اطمأنت إلى أنّها ليست مسحورة ولا جنيّة، بل آدمية من مكان بعيد كما قال لها ناصر.

بدأت الفتاة تشير بيديها وتتحدّث بلغة غريبة لا يفهمها من في البيت، أخبرها ناصر أنّها لا تفهم لغتهم العربية، فهي تتحدث اللغة السواحلية، ولم يكن في الحارة من يتحدث تلك اللغة كي يكون حلقة وصل بينهم وبينها. أتت نساء الحارة محاولات الاقتراب منها والحديث معها، لكنها ظلّت على نفس جفولها وخوفها، وكلّما اقترب منها أحد ضمّت ركبتيها وعقدت يديها حولهما، ودفنت رأسها في حجرها، حتى تصبح كقوقعة مقفلة، ولا تدنو من الطعام إلّا حينما تجدهم قد ابتعدوا عنها.

أعطتها عويدة ثوباً جديداً يستر عريّها وسواد جسدها ولحافاً تغطّي به رأسها الحاسر. اقتربت حميدة منها، وكانت تتحدث معها بالإشارات وتحاول تعليمها بعض الكلمات، فبدأت تأنس للمكان وأهله، وبدأت

تطمئن لوجودها بينهم، أخذتها حميدة إلى ضواحي البرسيم وضواحي النخيل، فاقتلعت أوراق خضراء من الأشجار وطبختها وبدأت بأكلها أمام دهشة الجميع. ويومًا بعد يوم أصبحت زوردة أختًا لحميدة ومربية لصالح. فهمت عويده من إشارات زوردة أنّ لها أخًا في عمر صالح الذي كان عمره عامين في ذلك الوقت، كما لاحظت أنّ زوردة تحبّ المزرعة والأشجار، حتى إنّها بدأت تتسلى بعض النخيل لولا أنّ عويده أخبرتها أنّه ليس عليها فعل ذلك، فهذا عمل الرجال؛ ومع مرور الوقت تعلّمت بعض الكلمات العربية، وعلمت حميدة بعض الكلمات السواحلية، فكانوا يضحكون منها حين تشير إلى الدجاج وتقول كوكو، وكانوا يظنون أنّها تشير إلى أن الدجاجة تقول كوكو، فتقول لها حميدة إن الديك من يصيح قوقوع وليس الدجاجة.

وأكثر ما أضحكهم حينما شاهدت زوردة صحن الأرز فأشارت إليه قائلة بفرح:

- والي، والي.

فقال لها ناصر:

- يا زوردة والي في البرزة، مو تريدي من والي؟

- يمكن باغية تشتكي.

- عندي صكّ شرعي فيها، هي ملك يمين.

شرحت حميدة لأبيها وأمها أنّ الوالي الذي تقصده زوردة هو الأرز، فأصبح ناصر حينما تسأله عويده ما يريد أن يأكله على الغداء يقول لها ضاحكاً:

- نأكل الوالي.

مع الأيام أصبحت زوردة واحدة من أهل البيت، ولم تعاملها عويده كخادمة، بل كأحدى بناتها، ولم تكن بالضعف الذي تبدو عليه، بل كانت سريعة الحركة، وتقفز قفزات واسعة بساقيها الطويلتين، وتنجز أعمالها في وقت قصير، وحينما تبدأ بجزّ أعواد البرسيم كانت كفار قارض في سرعتها، وفي وقت قياسي تكون قد جرت أكثر من ثلاث حصص مزروعة، وكومت حزمتين كبيرتين من البرسيم بالقرب منها، وما إن تنتهي حتى تحملهما فوق رأسها بخفة وسرعة، فاستبشرت عويده بها خيراً، فقد حملت عنها نصف أعمال البيت بنشاطها وخفة حركتها، وإن كان الحزن لا يفارق وجهها دون أن تعلم عويده عن حزنها إلا أنّها فارقت أمها وأباها وإخوتها، وأنّ ما رآته وما عاشته بعد اختطافها ليس بقليل.

في بعض الليالي كانت تراها مستيقظة بالليل وهي تبكي، وبعد أن بدأت تتحدث اللغة العربية كما علّمتها حميدة، أخبرتهم عن نفسها وأمها، وكيف أنّ لصوصاً مسلّحين اختطفوها مع مجموعة من الفتيات اللاتي كنّ يلعبن في مكان ليس ببعيد عن بيوتهن، فأخذوهن وخبّوهن في أحد البيوت ليومين، وفي الليلة الثانية قيّدن بحبال وكُمّمت أفواههن، ثم تمّ اقتيادهن إلى سفينة كانت تنتظر في البحر القريب. أُدخِلن في مخزن سفلي

بالسفينية، فلم يتمكن أحد من اكتشاف وجودهن هناك رغم أن زوردة أحسّت أن السفينة قُتشت في أحد الموانئ، وكان لديها أمل كبير في أن يُنقذَن، كما أنقذت فتيات أخريات من قبل، وسُجن اللصوص المختطفون، ولكن لم يدخل أحد من المفتشين مكان احتجاز الفتيات، فبعض المفتشين تمّ رشوتهم من قبل المختطفين والمهرّبين، ويكونون متواطئين معهم فيأخذون نصيبهم من الفائدة في بيع المخطوفين من العبيد؛ فبقين في السفينة مقيّدات الأرجل والأيدي ومُكمّات الأفواه، يفكّون قيودهن عند تناول الطعام فقط. سألتها عويذة إن كانت قد تعرضت للأذى من المختطفين، لأنّ عويذة سمعت من نساء الحارة أنّ الفتيات المختطفات يُغتصبن، لكنّها قالت لعويذة إنهم لم يؤذوهنّ ولم يقترب أحدٌ منهنّ، فكان كبير المهرّبين قد عين حارساً على المخزن الذي حُبسَ فيه، فقد كانوا حريصين على وصولهنّ سالمات إلى من سيشتريهن، وكانوا يتعمّدون اختطاف البنات الصغيرات المحتفظات ببيكرتهن لأنهنّ أغلى قيمةً من الأخريات.

في بيت ناصر تعلّمت زوردة الصلاة، وتعلّمت كيف تُعدّ الخبز الرُّقاق والرّخال، وفي نفس الوقت أضافت إلى مطبخ عويذة وجبات جديدة جميعها من الأوراق الخضراء والحشائش، حتى أوراق البرسيم كانت تطبخها مع البصل وتأكلها، وكانت عويذة تضحك وتعلّق عليها قائلة:

- كما الهايشة.

فتضحك حميدة التي تعلّمت من زُوردة طريقة خبز الشبّاتي، ولكنّ ناصر ما كان يستسيغ طعامها، بل ظلّ يفضل الطعام الذي تطبخه عويدة بيدها.

ومع الأيام تعودت زُوردة على الحياة في البيت العود، وشعرت بالأمان بينهم، فكانت خير من أعان عويدة في بيتها، وسرعان ما كبرت واشتدّ عودها، وسمنت وتكور نهداها وكبرت عجيزتها، حتى إنّ نساء الحارة بدأن يتنדרن بحجم عجيزتها الملفتة للنظر، وحذرن عويدة من أن يطمع ناصر بها لما فيها من فتنة وإغراء وهي تسير مهتزة متمائلة أمامه، فتضحك عويدة وتقول لهنّ بثقة:

- زُوردة كما بنته، وعين ناصر ما تشوف الحريم، شاغلتنه الفلاة عن الحريم وغيرهن.

كبرت زُوردة في بيت ناصر مع أولاده، وحين أصبحت في سن مناسب للزواج زوّجها من خادمه عبيد الذي كان يعمل في نفس الوقت بيداراً في مزارعه ووقفانه، كان عبيد أكبر من زُوردة سنّاً بما يقارب عشر سنوات وربما أكثر، لكنّها وجدت في زواجها منه أماناً، وبقيت في بيتهم، وعاشت معه في الطابق السفلي من البيت بالغرفة التي خصّصتها لها عويدة بعد زواجها.

ومن مثل زوردة في حبها لعويذة وإخلاصها لها في خدمتها! فقد كانت منذ الفجر وقبل أن تستيقظ عويذة تعجن الطحين وتبدأ بخبزه، وتكون قد قشدت السمن بالسُّنوت المقلي المطحون، وقلّت البيض، وحمّصت القهوة وطبختها بحبات القرنفل، وفاحت رائحتها في أرجاء البيت، فأيقظت الغافين من رقدتهم، وتسلفت الرائحة إلى أنوف الجيران الذين كانوا يتحدثون عن قهوة بيت ناصر بن حمّد في مجالسهم.

ظلت زوردة تحلم بالعودة إلى زنجبار، تحنّ لرؤية أمّها وإخوتها، وكان ناصر يعدّها بأنّه سيسعى لتحقيق حلمها، وسيرسلها مع زوجها ذات يوم إذا تحسّنت الأحوال وأصبحت الحياة آمنة ومستقرة، لأن قطاع الطرق ولصوص البحر قد نشطت تجارتهم الخفية في اختطاف العبيد والمستضعفين وبيعهم في تلك الفترة رغم منع ذلك من قبل السلطات، ولكنّ موت ناصر حال دون تحقيق أمنية زوردة بزيارة أهلها.

ولأنّ السعادة لا تدوم أصيبت زوردة وزوجها بالجذري مع مَنْ أصيبوا، وعُزلوا في أحد الكهوف في جبل قريب من أطراف الوادي، فكانت عويذة تحمل إليهما طعامهما وشرابهما، وتركه لهما خارج الكهف، وفصلت حمدان الذي كان عمره في ذلك الوقت خمسة أعوام عن أمّه وأبيه، واعتنت به وربّته مع أولادها. وبعد عام من المعاناة والمرض ماتت زوردة ومات زوجها دون أن تحقق حلمها بالعودة إلى زنجبار والالتقاء بأمّها، بكتها عويذة كما تبكي واحدة من بناتها، وتكالبت

الأحزان على قلبها بعد فقدتها لناصر قبل ثلاثة أعوام، وفقدتها لعزيزة من بعده، ومن بعدهما زوردة وعبيد وقد كانا سندًا وعونًا لها.

أصبح حمدان يتيم الأبوين، لا يعرف أحدًا من طرف أمّه أو أبيه، لكنّ عويذة رعتّه مع أبنائها، فكان صالح الذي يكبره بخمسة أعوام تقريبًا مثل أخ كبير له، يرافقه كظله في كلّ الأماكن التي يذهب إليها، وكما كانت زوردة تحبّ الأشجار والمزارع ورث حمدان عنها هذا العشق، فتعلّق قلبه بحبّ الأشجار والنخيل، وأخلص في عشقه لها، فبدأ يحرثها ويسقيها ويقلمها ويعتني بها، وأحيانًا تجده عويذة جالسًا بالقرب من شجرة مانجو يحدثها ويناجيها، حتى ظنّت به عويذة الجنون والخبل، لكنّها لم تجد في تصرفاته ما يدل على فقدانه العقل، فأطلقتّه في المزارع وضواحي النخيل، فأصبحت ضواحي عويذة أكثر اخضرارًا من بقية الضواحي في الحارة رغم شحّ الماء في بعض شهور السنة، ولم يكن هناك من سرّ سوى يد حمدان الخضراء وحبّه للأشجار والزرع، فما إن يفسل فسيلة في الأرض حتى تنمو وتكبر أسرع من فسائل أخرى في الضواحي المجاورة، حتى إنّ بعض الجيران أصبحوا يستأجرونه لفسل فسائلهم وزرع أشجارهم وتنبيت نخيلهم، فكان يأتي ليستأذن عويذة فتسمح له، فينطلق كطير حرّ، راکضًا بقدمين حافيتين نحو المزارع والنخيل، غير آبه بالشوك والأحجار المُنسّنة، رافعًا ثوبه حتى أعلى ركبتيه، متسلّقًا النخيل وخائضًا الماء في السواقي.

حاولت عويذة أن ترسله مع صالح ليتعلم القرآن، لكنه كان يهرب من المدرسة، وحينما يبحثون عنه يجدونه جالساً تحت نخلة أو متعلقاً في غدرها، أو مندساً بين غصون شجرة المانجو، أسماء معلم القرآن السبّال تشبّهاً له بالفرد لخفة حركته وهو يتسلق النخيل غير هيّابٍ للطويلة العوّانة منها ولا المائلة، فلم تجبره عويذة على الذهاب حينما تكرر هروبه، ويئس المعلم من تعليمه شيئاً أو تحفيظه سورة من القرآن. أصبحت النخلة صديقة حمدان وحبّيته، يعتني بها، يرويها ويُسَمِّدها ويقتلع الحشائش من تحتها، وما إن يبدأ القيظ حتى يجند حمدان نفسه للعناية بالنخيل، مشمّراً عن ساعديه في تحديرها ووضع النبات بين شماريخ العنكيز⁽¹⁾ والتقاط الخلال الأخضر المتساقط منها، وحين تبدأ تابشير القيظ، تكون الرطبة الأولى في يد حمدان يبشّر بها عويذة منتظراً دعاءها له بأن يبشره الله بدخول الجنّة.

(1) العنكيز: ثمار النخيل في أول طلعه.

(11)

لم تكن نَفَافَةً قد أكملت ثلاثة أشهر من عمرها حين حبلت خديجة بحملها الثاني، وقد كانت عويذة تفخر بأن زوجة ابنها ولود ودود وذات حَسَبٍ ونَسَبٍ، لكن حملها هذه المرة لم يكن سهلاً كالحمل بنَفَافَةٍ، فقد تورّمت قدمها في الشهر الثامن، ولازمت فراشها ولم تعد تستطيع المشي أو الحركة، حتى إنّ عويذة بدأت تشعر بالقلق وهي ترى خديجة بهذا الكسل والخمول؛ فليس ذلك من عاداتها ولا صفاتها. وحين أكملت نَفَافَةً سنتها الأولى، تحاملت خديجة على نفسها وأقامت لها مع عويذة احتفالاً دعت فيه نساء الحارة وأولادهن، وألبستها الدشداشة الجديدة (المَزْرَآيَة)، والكِمَّة بو قَرِيخَةَ التي خاطتها لها، وكحلت عينيها ودهنت جبينها بالمَحْلَب والزعفران، ووضعت الياس على شعرها، والزَّبَاد خلف أذنيها، ولم تنس عويذة وضع نقطة سوداء بين حاجبيها، لتقلع بها عين الحاسد والظالم وكلّ من لم يصلّ على النبي حين يراها. ذبح صالح شاة سمينة، قَسَم حمدان لحمها على بيوت الحيران، وأتى أبناء الجيران وبناتهم؛ فأجلستها خديجة وسطهم مكحولة مدهونة معطرة مبخّرة، ارتفعت أصوات الأمهات والأطفال:

«حول حول يا صغيرين

حول دابم يا صغيرين

هذي بيسة وفراخ

وهذا سبال وحناء»

ونشحت عويذة خليطاً من الجوز واللوز والحمص المجفف والفشار فوق رأسها، ووزعت على كلّ طفل قطعة صغيرة من حلوى القشّاط، وأعطت كلّ واحدة من الأمهات معجون الحنّاء في ورقة بيّدام، فكان ذلك اليوم حديث نساء الحارة وأهلها داعين للصغيرة بالبركة وطول العمر.

بعد أيام قليلة من الاحتفال بعيد ميلاد نَفَافَة الأول شعرت خديجة بآلام المخاض، وكانت قد أصيبت بالحمّى في الأيام الأخيرة، وثقلت قدمها وانتفخت، فكان الألم يراودها بين ساعة وساعة، فعرفت أنّ وقت ولادتها قد حان، ولكنّها، وفق حسابها، لم تكن قد دخلت شهرها التاسع، وذلك ما أفزعها وأرعبها، وكم حاولت أن تنهض وتتحرك وتقاوم أوجاعها كما فعلت في ولادتها الأولى، لكنّها لم تستطع، فهي لا تريد أن تكون أقلّ شجاعة وتحملاً من أمّها التي ولدتها في الفلاة؛ فكما أخبرت زَيَانَة ابنتها خديجة، أنّها يوم ولادتها لها كانت ذاهبة مع رفيقاتها إلى الفلاة لجلب الحطب وجني البُوت، وقد اعتادت زَيَانَة أن تصعد إلى قمة الجبل لجنيه لأنّه أكثر جودة وألذّ طعمًا، غير مكترثة بوعورة الجبل وهوامّه، بصحبة إحدى رفيقاتها أو بمفردها، وكيلا تضيع إحداهن عن الأخرى كنّ

يردّدن التعاويذ، فتتردّد أصواتهن بين سفوح الجبال وأعماق الأودية والهضاب:

«يا عوب.. يا عوب... يا عوب

علوه... تعوب تعويبه

علوه... يا عوب تعويبه»

فترد عليها إحدى رفيقاتها:

«علوه.. ردي بصوتش

وبرد لجوب

علوه يا عوب.. يا عوب»

فتجاوبها زَيَانَة بصوت عذب شجي:

«علوه راعي التفق شرق

ساعة غفا وبرق

علوه.. يا عوب.. يا عوب»

فوجئت زَيَانَة بآلام الطلق، فكانت تداري أوجاعها بالتعويذ، وفي ذلك اليوم خطبت عَسْبَقًا وجنت بُوتًا، وجمعت من حشائش الجبل ما استطاعت لغنماتها، وسحلت ورق السِّيداف وفركته مع فتات الخبز، وتناولته وجبة شهية مع رفيقاتها، ولم تسكت عن التعويذ إلا في اللحظة التي ازداد فيها الوجع، ولم تعد لها قدرة على احتمالها. وحين شعرت بتسرّب الماء من رحمها ابتعدت عن رفيقاتها وأخبرت أنهن ستذهب

لقضاء حاجتها تحت إحدى أشجار السَّمر، فلاذت بشجرة عِلْعلان
 ظليّة، تعلّقت بها، فهزّتها ونفضت جسدها مع اهتزاز الشجرة، حتى
 سقطت الطفلة من رحمها، سمعت رفيقاتها صياح الطفلة فذهبن يتراكضن
 نحوها، قطعن سرّة الطفلة بمِجَزٍّ كنّ يقطعن به الحشائش، وغسلن
 المولودة وحنّكها بإصبع مغموس في عسل طازج. اغتسلت زِيَانَة من ماء
 غيل صغير ينحدر من إحدى شِراج الجبل، أَرْضعت طفلتها، وعادت من
 الفلاة بوقر من الحطب، وطفلة صغيرة بين يديها، أسماها أبوها خديجة
 على اسم أمّه.

ولعلّ ذلك كان من أسباب اختيار عويده لخديجة زوجة لابنها رغم
 صغر سنّها، فعويده كانت تبحث لابنها عن زوجة من نسل كريم شجاع،
 ولأنّ «الشجاعة تُورَث والأخلاق تُورَث» كما تقول عويده دائماً، عرفت
 أنّ خديجة لن تكون أقلّ من أمّها، وسيأخذ أبناؤها صفات جدودهم،
 وهي لن ترضى لابنها بزوجة أقلّ نسباً ولا شجاعة من شجاعة ناصر
 ونسبه، فكانت تُردّد قول صاحب المثل «إذا بغيت البنية عليك بالميّة،
 وإذا بغيت الولد نقّي له جدّ وخال». والأمر الآخر هو أنّ عويده تربطها
 صلة رحم بزيانة حيث تلتقي شجرة العائلة في فرع واحد من الجدّ الثالث،
 وبذلك تعتبر عويده ابنة خالة زيانة من شجرة نسب طويلة، كما هو حال
 جميع أهالي حارة الوادي الذين تنحدر أنسابهم وأصولهم من الجبل.



حين أصبح عُمر صالح أربع عشرة سنة ولمّا يتزوج بعد، استبدّ بعويذة القلق وبدأت تفكّر في تزويجه، بحثت في بيوت حارة الوادي وبناتها، وأخبرت جُميعة أم خَلُوفَة أن تبحث لها عن فتاة وفق الصفات التي تريدها، ولكن كلّما اقترحت جُميعة لها فتاة استبعدتها من أن تكون زوجة لصالح لعيب تراه عويذة ولا تراه جُميعة، فسألت وبحثت طويلاً، وحينما وجدت أنّ ما تطلبه ليس موجوداً بالقرب منها، وأنّ البنت التي تبحث عنها ليست في الحارة، فكّرت أنّها قد تكون في الجبل، ولن تجد من تريدها إلّا هناك. نعم، هناك عروسه المنتظرة، هكذا اتخذت قرارها، فسألت أول ما سألت عن الشيوخ وزوجاتهم وعائلاتهم، ثم اقتصر بحثها عن شيخ قد تزوج امرأة من سلالة عريقة ونسب واحد، أرادتها خالصة الجدين فلا عرق دخيل في أصولها مهما كان نقاؤه.

كانت عويذة قد ادّخرت مالاً من ثمن السّمْن الذي بدأت تبيعه بعد موت زوجها، وبفضل ما لديهم من خير وضواحٍ بعد أن تسلّم صالح مزارع أبيه وأمواله من يد عمّه، تأكّدت أنّ لديها المهر الكافي الذي يجعلها تخطو هذه الخطوة. وحسب الشروط التي أرادتها عويذة في زوجة صالح أتى من يخبرها أنّ البيت المناسب لمصاهرتة هو بيت الشيخ سعود بن سعيّد، فالشيخ سعود لديه فتاة صغيرة بين خمسة من الذكور وهي أصغرهم، جميلة جدّاً جمالاً يُسقط الطير من السماء كما وصفها الواصف، لكنّها أصغر من أن تصلح للزواج. ولكن حين سمعت عويذة ذلك عرفت أنّ هذه الفتاة هي من تريدها زوجة لصالح. وذات يوم وبعد

صلاة الفجر، أخذت ابنها صالحًا وصعدا إلى الجبل، حاملين معهم هداياهم وعطاياهم، وحينما وصلا رحّب بهما الشيخ سعود وزوجته وأكرموا ضيافتهما. رأت عويذة الفتاة وسألتها عن اسمها فقالت لها في حياء: خديجة، فوقعت الفتاة في قلبها قبل عينها من حسننها وجمالها وأدبها، فهاج بها الحنين إلى عزيزة التي تأخذ شيئًا من ملامح وجه خديجة كما تهباً لعويذة، فاتخذت قرارها بأن تخطبها، وألا تكون غيرها زوجة لابنها، وقد وجدتها رغم صغر سنّها تتحرك وتعمل وتساعد أمها، وزاد ذلك من إصرارها عليها.

خطبت عويذة الفتاة من فورها، ووافق الشيخ سعود دون تردد قائلاً: إنّه النسب الذي يبحث عنه في زوج ابنته، والبيت الذي يشرفه بأن تذهب خديجة إليه، فيكفي أن تتزوج صالح ولد ناصر بن حمّد المعروف بشجاعته وهيبته. استبشرت عويذة خيراً فالرجل اكتفى بقدومها وابنها، ولم يطلب عمّ الابن أو أحداً من رجال العائلة، مكتفياً بوصولها إلى بيتهم، وكان صيت عويذة قد بلغ أيضاً إلى الجبل، لذلك لم يردّ لها الشيخ سعود طلباً، ولو أتى صالح وحده خاطباً لما رده خائباً كما قال لها، فالبنت ابنتها وإن أرادت أخذها معها من تلك اللحظة ما وجد في نفسه مانعاً، ولم يشترط مهراً كبيراً لابنته، قائلاً لعويذة حينما سألته عن المهر:

- أفلُهنّ مهراً أكثرهنّ بركة.

لكنّ زِيَانَة أم خديجة طلبت من عويذة طلباً، وهو أن تنتظر عامًا حتى تكبر الفتاة قليلاً، وتكون قد علّمتها شؤون الحياة أكثر، فلم تردّ لها عويذة

طلبًا وقد كان ذلك، فيكفي أنّها اطمأنت على صالح بعد خطبتها لمن اختارتها هي له زوجة وفق شروطها ومواصفاتها. وبعد أن عادت عويذة مع ابنها إلى السهل، بعث صالح برفقة الشيخ ياسر ابن عمّه وزوج أخته حميدة إلى الجبل حاملين المهر الذي تستحقه خديجة وبعض الهدايا.

رُفّت خديجة إلى صالح بعد عام من عقد قرانه عليها، في موكب من الحمير والإبل من الجبل إلى حارة الوادي، لتقع في قلب صالح كما وقعت في قلب أمه، وما كان قد رآها من قبل، وما نظر إلى وجهها إلّا في ليلة زفافها فشغفته حبًّا، ومع ذلك حرّمته أمّه منها وأصرّت أن تجعلها تنام عندها حتى بلغت مبلغ النساء، وكان جمال خديجة وحسنها وأدبها وخفّتها في القيام بأعمال البيت حديث نساء الحارة. وقد أقامت لها عويذة عرسًا آخر حينما زفّتها إلى صالح عروسًا للمرة الثانية بعد أن أصبحت امرأة مكتملة النضج، وقد ازدادت حسنًا وجمالًا، فملأت قلب زوجها وعينه بحسنها وجمالها، فما كان يرى في النساء غيرها، أحبّها فكان لها كلّ رجال الأرض، وكانت له كلّ نساء العالمين، وما هي إلّا أشهر قليلة حتى حملت حملها الأول، وما كانت هشة ولا ضعيفة، ولا شاكية ولا باكية رغم صغر سنّها.

(12)

- كلنا أصولنا من الجبل، وكل واحد يرجع إلى أصله.
قالت عويذة لصالح بفرح في طريق عودتهما من الجبل بعد خطبتها
لخديجة:

- وكيف كذاك يا أمي؟
- أخبرك يا ولدي عسى نقصّر الدرب بالهَرَجَة.
أخبرته بما سمعته عن أبيها نقلاً عن جدّها أنّ تسمية حارة الوادي في
الأصل تعود إلى أنّ الوادي يتوسط الحارة ويشق طريقه بين بيوتها المبنية
على جوانبه، رغم أنّ مجراه يظل جافاً معظم أيام السنة لندرة سقوط
الأمطار، حتى إنّ ذلك المجرى في أيام الجفاف والمحل يتحول إلى درب
قاحلة يعبر منها الحمّالون على حميرهم والركبان على إبلهم وهم
صاعدون ونازلون بين الجبل الأشم وحارة الوادي، واليوم الذي تسقط
فيه الأمطار وتجري المياه في مجرى الوادي يعتبره أهالي الحارة يوم عيد
وفرّح، والفرح الأكبر حين تتحول الحارة إلى جنّة خضراء ويكتسي
الجبل والسهل المنحدر كساء أخضر من جرّاء نمو الحشائش الصغيرة
وأوراق الحُمَيْضا وشجيرات السّيداف في شقوق الأحجار التي تخزن
الماء داخلها، ولكنّه فرح لا يدوم وعيد تنقضي أيامه بسرعة، فما هي إلّا
أيام حتى تتحوّل الفلاة إلى صحراء جافّة بعد أن ينتشر أهل الحارة في
الجبال وجوانب الوادي مقتلعين كلّ ما تقع أيديهم عليه من أوراق

خضراء لهم ولحيواناتهم، ولكن رغم أيام المحل الطويلة تظل أرض حارة الوادي أرضاً أكثر خصوبة من الأراضي الأخرى المجاورة لها والبعيدة عنها، فتكثر فيها زراعة أشجار النخيل والليمون والمانجو وكروم العنب.

وكما تقول الحكاية المتناقلة عبر ألسنة أبناء الحارة في سمر ليالي الشتاء، أنه منذ زمن قديم كان رجلٌ من رجال الجبل الأشم يطارد وعلاً، ويقفز خلفه قفزات رشيقة وسريعة بين القمم والسفوح والمنحدرات، حتى انحدر الوعل من الجبل قافزاً من تلة إلى أخرى، والرجل خلفه، مصمماً على الإمساك به أو إصابته بسهم، وقد ظل الرجل سائرًا بين الشعاب المنحدرة من الجبال، وهو يتتبع أثر الوعل الذي يريد اصطیاده دون أن يعرف الوقت الذي قضاه وهو راكض خلف ذلك الوعل، حتى وجد نفسه أمام نبع ماء صاف رقيق، يجري من فجّ بالجبل تحطّ عليه الطيور والوعول وأسراب الحمام والأرانب البرية، فوقف مندهشاً من ذلك المنظر الخلّاب، وكان قد أصابه العطش، وجفّلت الحيوانات وابتعدت، فشرب الرجل وأطفأ لهيب ظمئه من ذلك النبع، وهناك وجد قطعاناً من الوعول والحيوانات البرية تسكن تلك المنطقة، فبدأ يتبعها حتى ابتعد كثيراً عن موطنه في الجبل وهو يسير نحو المنحدر، غير آبه بالأحجار المسننة التي تجرح قدميه، وحينما نزل وتوغّل سائرًا أسفل الجبل اكتشف رابية مخبئة لم تنظرها عين بشر من قبل، تتعانق غصون أشجارها الخضراء من سمر وسدر وسيداف وعِلّيلان، وأشجار بُوت

مثقّلة بالثمار، فعرف أنّها امتداد لأرض الجبل، بل كأنّها قطعة منها، فكان ذلك الرجل أوّل من اكتشف هذه الأرض المختبئة تحت الجبل.

بحث الرجل في الدرب التي أوصلته من الجبل إليها، فكانت الدرب واضحة للعيان حتى إنّهُ استطاع أن يرى أطراف قريته البعيدة في الجبل على امتداد بصره، عرف أنّ كلّ الدروب توصل الماشي أو الراكب إليها، قلب تربتها وشمّها فعرف أنّها أرض بكر لم تطأها قدم إنسان قبله، ولاحظ الرجل أنّ الماء الموجود في تلك المنطقة عذبٌ زلالٌ باردٌ يسقط من الشعاب المنحدرة من الأعلى كشلالات مائية غاية في السحر والجمال، وبعضها ينحدر في مجارٍ مائية طويلة تصل إلى الأسفل مشكّلةً برگا مائية صغيرة صافية، ثم يتوزع الماء في جداول طويلة، تنمو الأشجار على جنباتها.

وأكثر ما تعجّب منه الرجل هو الجداول المُرتبة التي تسير فيها المياه وكأنّ يداً شقّتها وأبدعتها، فظنّ أنّ الجنّ هم من شقّوا تلك الجداول المتفرّعة من الوادي. وتوغّل الرجل أكثر، ففتنته أشجار السدر المحمّلة بالثمار على جنبات الوادي، وأخذ الرجل ما استطاع من ثمار، واصطاد أرانبَ وطيورًا، واقتلع خلية من خلايا العسل التي كانت تتغذى على أشجار السمر، وقفل راجعًا إلى موطنه بالجبل. أخبر قومه عن تلك المنطقة التي أطلق عليها «المِخْتَبِية» لاختبائها تحت الجبل، فهي لا تشبه طبيعة الجبل في وعورتها وبرودة طقسها، فجوّ المِخْتَبِية معتدل يميل إلى

الدفء، وبعد أيام عاد الرجل ومعه آخرون في رحلة صيد إلى المِخْتَبِيَّة، فعرفوا المنطقة واكتشفوها واعتبروها منذ ذلك اليوم ملكاً لهم.

حينما وصل الرجال إلى المِخْتَبِيَّة اندهشوا كما اندهش الرجل الأول من مائها العذب البارد رغم حرارة الجو في ذلك اليوم، حتى إنَّ الرجال حينما تتبعوا مجرى الماء، عثروا على نبع في بطن الجبل، مكثوا أياماً هناك، فلاحظوا أنَّه نبع لا ينضب ماؤه، ولا تسرقه الأرض، ولا تجففه حرارة الشمس، ماء يتقاسمه الإنس والجنّ والطير والبشر والشجر؛ وكما أصيب الرجل الأول بعشق هذه الأرض البكر أصيبوا هم أيضاً بعشقها، فعادوا إليها وقد أحضروا عائلاتهم ليسكنوا فيها وتكون مستقراً لهم. وفي بداية الأمر كانوا يقيمون فيها فترات الصيف حين تبدأ الثمار بالنضج، وأحياناً ينزلون في فصل الشتاء هرباً من البرد القارس في الجبل كي ينعموا بالدفء، فيسكنون في بيوت سعفية مؤقتة حتى طاب لهم المقام فيها، فأحبوها كما أكرمتهم، وجعلوها حارسة لجبلهم الأشم ووطناً جديداً للبعض منهم.

ومع الأيام بدؤوا يزرعون أرضها الخصبة بثمار لا يُزرع بعضها في أرض الجبل، زرعوها بالنخيل والليمون والعنب والمانجو. وتكاثرت زراعة النخيل، فكانت ثمارها وفيرة ومتنوعة، ومع الأيام أصبحت المِخْتَبِيَّة أرض النخيل الباسقات الطارحات ثمارها بأصنافها المتعددة، وأرض العنب بنوعيه الأسود والأخضر، فعصروا منه خمراً شهياً، حتى اشتهرت المِخْتَبِيَّة بجودة كرومها ولذة خمورها، فأقاموا معاصر الخمر في

بيوتهم، وكان ذلك كما تقول الروايات المحكيّة عن حارة الوادي قبل أن يدرك أهلها الإسلام ويعرفوه. ومع الأيام تحوّلت عرشانهم إلى بيوت حجرية وطينية بنيت على جنبات الوادي، وشيئاً فشيئاً تحولت المخبئية إلى قرية مزدهرة بالخير والزراعة، فكانت مواشيهم ترعى بمعيّة الطباء والغزلان في تلك السفوح الجبلية المنبسطة، واستبدلوا بحياة الكهوف حياة البيوت المبنية من الحجر والطين وسعف النخيل، حتى أَلْفُوا الحياة وألْفَتهم، واستمرت حياتهم بين الوادي والجبل في تواصل مستمر وكأنّها بلدة واحدة، فكانت بعض الأسر تنقسم فيعيش نصفها في الأعلى ونصفها الآخر في الأسفل.

ولكن ولأنّ نعيم الحياة لا يدوم حدث ذات يوم أن تراكمت السحب في فضاء المخبئية وأظلمت السماء وأرعدت وأبرقت، وانسكبت أمطار غزيرة مصحوبة برياح ليومين متواصلين دون توقّف، وقد تركّزت الأمطار على قمم الجبال، فسالت الشّعاب وملأت الوادي حتى أصبح كبحر هائج لا يُعرَف له قعر أو نهاية، ارتفعت أمواجه وعَلَت، فلم يجد القاطنون في حارة الوادي ملجأ أو مهرباً من الفيضان، وقد قيل إنّ غضباً من الربّ حلّ عليهم، ولا أحد يعلم أسباب ذلك الغضب، وبعضهم يقول إنّ الجنّ كانوا يحركون الماء حين وجدوا أنّ الإنس قد استأنسوا الحياة في قريتهم، وقد ضايقوهم وآذوهم، فقرروا الانتقام منهم.

جرف الوادي كلّ ما كان في طريقه وعلى جوانبه، البيوت والأشجار والحيوانات والحجر والبشر، فلم يبقَ منهم إلّا من احتتمى بالجبل الأشمّ

ليكون عاصمًا له من الماء، وليكون من بقي منهم شاهدًا يروي ما حدث في سنة الغرقة. لقد هلك كل شيء، وهُجّر من بقي منهم على قيد الحياة، وعاد إلى الجبل ليحيا حياة الكهوف مرة أخرى، وقد بنى بعضهم بيوتًا من الأحجار في الجبل أسوة بالبيوت التي بنوها في قرية المختبة، لكنهم لم يطبقوا صبرًا عنها، فمن يحب لا يصبر على فراق محبوبته ولو كانت أرضًا، وعشق الأرض أشدّ رسوخًا في القلب من حبّ البشر. أرجعهم الحنين إليها، أعادهم الشوق رغم ما حدث إلى أحضانها، ولأنّ المُحبّ ينسى ويغفر، نسوا أو ربما تناسوا، وأصبح ما حدث مجرد حكاية يتناقلونها جيلًا بعد جيل، فمثل المختبة لا يُهجّر، ومثلها لا يُنسى، وهي لا تُستبدل بأخرى.

عادوا إليها وقد استفادوا ممّا حدث في سنة الغرقة، فبنوا مساكنهم بعيدًا عن مجرى الوادي، حتى تكاثرت البيوت مرة أخرى، وزُرعت الأشجار، وتدلّت عناقيد العنب في كرومها، كالدّ عنب يذوقه إنسان، وتناولت أشجار النخيل زاهيات سامقات في كبرياء لا مثيل له، وثقلت أغصان المانجو بثمارها الشهية، وعادت الحياة أجمل مما كانت عليه.

ظلّ بعضهم يسكنون أطراف القرية، رافضين الحياة داخل البيوت، مفضّلين الحياة مع أغنامهم يسرحون بها صباحًا ويعودون معها مساءً، وهي كلّ ثروتهم وما يملكون، يشربون حليبها، ويأكلون لحمها، ويغزلون صوفها، يحبّونها محبّتهم لأبنائهم، يعيشون معها متنقّلين بها حيث يكون

المرعى أكثر خصوبة، فأطلق عليهم من سكن داخل الحارة اسم الشواوي.

ومع الأيام وتكاثر العائلات في المكان، أجمعوا على تغيير اسمها، وأصبحت تُعرف بحارة الوادي، فلم تعد مختبئة بعد أن ظهرت وبانت وأشرقت عليها شمس الحياة، بل أصبحت ممراً للقوافل العابرة من الجبل والسهل؛ فأبناء الجبل بعد أن سكنوا السهل، تكاد لا تفرق بينهم وبين أبناء الجبل الأصليين، تتشابه ملامحهم في بياض البشرة وحمرتها، ولون العيون السود أو المائلة إلى اللون العسلي؛ وهذا ما يميزهم عن غيرهم ممّن أتى من غير أصول الجبل الأشم واختلط بهم.

تبادل أبناء حارة الوادي ثمار نخيلهم وكروم أعناهم بسلع أخرى مع أبناء المناطق المجاورة، وتزاوجوا مع قبائل ومناطق أخرى، فاختلطت أنسابهم وتغيّرت ملامحهم ولون بشرتهم، على عكس من بقي في الجبل منهم ممّن رفضوا الاختلاط بغيرهم والتزواج من غير أصولهم، مُدقّقين في العرق والأصل والحسب والنسب حتى الجدّ الأخير حفاظاً على نقاء الدّم وضمان عدم اختلاطه، فكانوا يتفاخرون بأنّ أحدهم «خالص الجدين» مثلما فعلت عويذة حين اختارت خديجة زوجة لصالح لضمان نقاء سلالة أولاده منها.

(13)

في منتصف ليلة شتوية باردة والجميع يغطّ في نوم عميق، والحارة هادئة إلا من صوت صرّار الليل في المزارع، ونقيق الضفادع في سواقي الماء، ومواء بعض القطط التي تتعارك بين البيوت، وحفيف أوراق الشجر التي يحركها الهواء الخفيف، تدفق ماء رجم خديجة وسال بين ساقها، فأصاب البلل ملابسها وفراشها، ولم تكن تشعر قبل ذلك بأية إشارة أو ألم لاقترب ولادتها، فقامت مفزوعة خجلة من تدفق الماء الذي بلل فراشها فلم توقظ زوجها، لأنّها ظنّت في البداية أنّ البول قد تسرّب منها دون أن تدري، خصوصاً أنّها في الأيام الأخيرة باتت رغبته في التبول ملحّة ومتقاربة، وأحياناً تتسرب قطرات من البول قبل أن تصل إلى مكان قضاء الحاجة في مترب البيت، فتغتسل وترتدي ثياباً أخرى، وكان ذلك يشعرها بالإحراج من زوجها ومن عويذة التي كانت تجد كلّ يوم سروالها مغسولاً ومعلّقاً في حبل الغسيل.

طوت خديجة فراشها الرطب وأخرجته وخلعت سروالها كي تستبدله، لكنها لاحظت أنّه سائل لزج لا يشبه البول في قوامه ورائحته، وما إن تدفق ذلك السائل من رحمها حتى أحست بخفة في قدميها، وكأنّ ذلك الماء الذي تسرّب كان محبوساً في قدميها أيضاً وسبباً لانتفاخهما وثقلهما. تناولت خديجة كفّاً من تراب حوش البيت وغطّت به ما سقط من ماء رحمها على الأرض، وعرفت أن ساعة ولادتها قد حانت، فتناولت ثلاث تمرات من

جراب التمر وأكلتها دون اشتها لعل تلك التمرات تساعدها في تسهيل ولادتها فلا تزعج زوجها ولا عمّتها عويذة.

مشت خديجة وهي تجرّ قدميها إلى زريبة الغنم بعد أن بدأ الألم يمسك بظهرها ممتدّاً حتى أسفل بطنها وساقها، ثم شيئاً فشيئاً تسارعت وتيرة الألم وبدأت آلام الطلق تتلاحق، تأتي ثم تذهب في فترات متقاربة بطيئة ومتسارعة، ألم حاد يمزق أحشاءها فوق ما تطيق وتحتمل، وفي الزريبة وفي نفس المكان الذي ولدت فيه ابنتها نفّاثة جلست وأسندت رأسها على الجدار، فتحت ساقها وبدأت تدفع الجنين كلما أحست برغبة في الدفع في زفير متواصل وبكل ما أوتيت من طاقة، تدعو ربّها أن يخلّصها مما هي فيه دون أن يستيقظ أحدٌ من أفراد البيت، فالمرأة الصالحة تصبر وتحتمل ولا تصرخ أثناء الولادة مهما اشتدّ بها الوجع، كما قالت لها أمها وكما سمعت من الجارات في مجازة الحارة، لكنها لم تستطع كتم أناتها هذه المرة وهي تدفع الطفل خارج رحمها دون أن يخرج، وكأن شيئاً ما يمسكه ويستبقيه في الداخل، ألم يمزق روحها.

رفعت رأسها ونظرت إلى الأعلى والعرق يتصبب من جبينها وكأنّها تبحث عن ربها لينقذها مما هي فيه، بدأت تقرأ المعوذات وكل ما تحفظ من سور قصيرة وأدعية، وحينما رأت الموت يزحف نحوها ويتراءى لها أمام عينيها بدأت بترديد الشهادتين، ترفس الأرض بقدميها وهي في تلك الزريبة المعتمة وقد ارتفع صوت أنينها المكتوم وكلما حاولت إخفاء وجعها وكتّم أنينها لا يخفت الأنين ولا يهجع الوجع؛ بل يستبد ويزداد أكثر رغم مقاومتها له بعض يديها وإدخال لحافها في فمها. سكاكين تمزّق جسدها كلّما عاودتها

موجة الطلق التي كانت تشتد وتتضاعف في كل مرة وهي تصارع الموت وحيدة معزولة حتى جفلت الأغنام وبدأت بالثغاء، استيقظ حمدان مفزوعاً من نومه في غرفته القريبة من الزريبة، وركض إلى عويده، يطرق الباب بكلتا يديه، غير قادر على قول كلمة غير: «حيي خديجة...».

استيقظت عويده مفزوعة خائفة، وكان صالح قد استيقظ على صوت ثغاء الغنم وأتات خديجة المكتومة، فذهبا إلى الزريبة مسرعين، يسابق أحدهما الآخر، بينما خرج حمدان من البيت إلى الضاحية، تسلق شجرة المانجو، ومكث في أحد فروعها يدعوربه خائفاً وجلاً على خديجة.

دخلت عويده إلى الزريبة حاملة قنديلها، وأمرت صالح أن يبقى أمام الباب وهي تتلو المَعَوَّذَات بصوت هامس خافت، فرأت خديجة تصارع آلام المخاض وكأنّها تصارع سكرات الموت، فحالة الإعياء والتعب التي وصلت إليها جعلتها لا تستطيع أن تفعل أو تأتي شيئاً سوى ذلك الأنين الخافت الذي ينز من أعماقها كما تنزّ روح من جسد، والعرق يتصبب سواقي في وجهها وجسدها. قرّبت عويده القنديل من ساقي خديجة لترى إن كان رأس الطفل ظاهراً وأنه على وشك الخروج أم لا، فوجدت قدميه خارجتين وباقي جسده معلقاً داخل رحم أمه، ارتعبت عويده وهي ترى ذلك المنظر، فعرفت أن ولادة خديجة متعسّرة هذه المرة وأنّها لن تستطيع مساعدة خديجة التي كانت تنفصد عرقاً وتئن أنين المذبوح، سقتها قليلاً من الماء، وخرجت إلى صالح الذي كان يذرع المكان ذهاباً وإياباً منتظراً خارج باب الزريبة. قالت له والقلق بادٍ على صوتها:

- خديجة متعسرة، خبر حمدان يروح إلى العجوز صبيحة ويجيها معه.
بحث صالح عن حمدان فلم يجده، فذهب هو مسرعاً لا يلوي على شيء
غير الوصول بسرعة إلى بيت العجوز صبيحة، ركض مطلقاً ساقيه للريح
مذهولاً مرتبكاً قلقاً بلا فانوس أو قنديل، مهتدياً بنور ذاكرته في تلك الدروب
المظلمة، يركض غير مهتمٍّ بالعمّة ولا بمن سيصادفه من جنٍّ أو إنس في
ذلك الوقت من الليل، يطرق باب العجوز صبيحة طرّقاً سريعاً وعنيفاً، فيأتيه
صوتها هادئاً ضعيفاً:

- خير إن شاء الله من يطرق الباب في هذي الساعة؟

- أنا صالح بن ناصر ماه صبيحة، افتحي الباب وتعالني بسرعة، خديجة
متعسرة.

يسمع صالح العجوز صبيحة وهي تنهض من فراشها وتتحرك ببطء نحو
الباب، يسمع خطوات أقدامها وهي تقترب، تحرك المزلاج فيصدر خشب
الباب القديم والمزلاج الصديء صريراً، يعيد عليها ما قاله بصوت متقطع
لاهث:

- خديجة متعسرة...

تخبره أن ينتظرها حتى تحضر «بخشتها» من السحارة، تتحرك ببطء
وهدهوء والقلق يأكل قلب صالح على خديجة، تخرج وهي تحمل بخشتها
وتغلق بابها وتتبعه، فصبحة تعيش وحيدة في بيتها الصغير الذي ورثته عن
زوجها والذي لم يكن أكثر من غرفة واحدة وسط الضاحية المزروعة

بالنخيل حيث يجتمع أطفال الحارة معها في المساء لتحكي لهم الأخبار والحكايات، ويستعين بها أهل الحارة لتوليد نسائهم ومعالجة مرضاهم. يهرول صالح، لكن صبيحة لا تستطيع مجاراته، فهي تسير في غير استعجال، لضعف بصرها وطبيعتها الهادئة وحركتها البطيئة، يقف صالح بانتظارها وكل تفكيره مع خديجة التي كان يسمع أنينها فيقطع قلبه مع أناتها ووجعها ولو كان بيده لحمل العجوز صبيحة على كتفيه وطار بها إلى خديجة التي لا يدري ما أصابها خلال تلك اللحظات التي غاب فيها..

- ماه صبيحة ناوليني يدك، أقودك بالطريق، خديجة تعبانة واجد.
- يا ولدي اتركني على راحتني، أمش قدامي وأنا أتبعك، خديجة ربك معها ويسهل عليها، لا تكن عجولاً وجزوعاً، إن الله مع الصابرين، اتق خالقك وتذكر أن «مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يسراً».

ولكن صالح رغم تقواه ما كان يستطيع فعل شيء غير القلق، يبطئ خطواته ويسير بمحاذاة العجوز صبيحة كيلا تسقط في شيء من الحفر التي حفرها الأطفال أثناء اللعب على جوانب الطريق، أو تقع في أحد السواقي دون أن تنتبه وتصبح المصيبة مصيبتين، وفي نفس الوقت لا يملك القدرة على جدالها فهو يعتبرها أمه الثانية، مثلما يعتبرها معظم أبناء الحارة ممن هم في مثل عمره.

(14)

وصل صالح يقود العجوز صبيحة، من يدها إلى باب البيت، تتحسس صبيحة الجدران وتهوّد وتسمّي بالله الرحمن الرحيم، ترفع قدمها بحذر وهدوء وهي تدخل من درجة الباب، ينادي صالح:

- ماه، ماه..

تركض عويذة نحوهما وتأخذ بيد صبيحة وتدخلها إلى الزريبة، حيث خديجة تكابد آلامها بمشقة تكاد تقضي عليها، تمسك عويذة العجوز صبيحة من يدها وهي تحدّثها عن حالة خديجة والطفل الخارج بقدميه من رحمها. طلبت صبيحة من عويذة «إناء الخلوّص»، فأحضرتة لها، مسحته بيدها ووضعت فيه قليلاً من الزيت المبارك المقروء عليه الذي أخرجته من بخشتها، غمست يدها في ذلك الزيت ثم أدخلتها في رحم خديجة وبدأت بتحريك الطفل ودفعه إلى داخل الرحم مرة أخرى، استطاعت صبيحة أن تغيّر اتجاه الطفل وتوجّه رأسه إلى الأسفل، لكن الألم المتزايد كان فوق طاقة خديجة التي لم تعد تحتمل، فكان الموت أهون عليها ألف مرة من تلك الآلام التي تكابدها بصبر وقلة حيلة.

شعرت خديجة وكأن سيفاً حاداً قد شق جسدها إلى نصفين، فكأنّها شلّت وما عادت تشعر بالجزء السفلي منه، فرأس الطفل وإن تغيّر اتجاهه لا ينزل إلى الأسفل، بل يرتدّ إلى الأعلى، ولا يدفع رغم نوبات الوجع المتقاربة التي وصلت أقصى حدّها، ظلت العجوز صبيحة جالسة بين

ساقى خديجة حائرة في أمر هذا الطفل الذي يكاد يقتل أمه، وعويذة تخرج بين وقت وآخر لإحضار ماء حار من المرجل الموضوع على الأثافي فوق النار، بينما صالح يسند رأسه على الجدار؛ وكان المؤذن قد رفع الأذان فنهرت عويذة صالح في غضب وقلق:

- قم واذهب إلى المسجد وصل صلاة الفجر، وادعُ لها بدلاً من جلوسك (مهنن) كما الحريم، خديجة أ تكون بخير وعافية، بإذن الله الكريم القادر على إخراج روح من روح.

ذهب صالح إلى المسجد وفكره مشغول على خديجة، رفع يديه وبصره إلى السماء:

- يا رب الابن يتعوض، ولكن خديجة ما تتعوض، يا رب لطفك بها. بدا صالح هشاً وهو يدعو ربه صادقاً متألماً في تلك اللحظة، وتلك المرة الأولى التي يشعر فيها صالح بمثل ذلك الشعور المرّ والموجع، وبذلك الضعف الذي يحتل قلبه، وكأن وجع خديجة في روحه وأنيها المكتوم يرتدّ صدهاء في أعماق قلبه.

تُدخل العجوز صبيحة يدها إلى داخل الرحم ممسكة برأس الطفل محاولة سحبه، لكنه كان ينزلق من يدها ويرتدّ إلى الرحم مرة أخرى، وكأن شيئاً ما يدفعه إلى الداخل، قالت لعويذة بصوتها الهادئ الضعيف وقد بلغ بها هي أيضاً التعب مداه:

- أظن الطفل ما فيه حياة، الطفل ما يدفع، أشعر به كما السمكة ينزلق بين يدي، وخديجة تعبانة ما لها قدرة تزفر وتدفع.
- أوقفت عويذة تلاوتها للصور القرآنية القصيرة التي تحفظها، وصمت عن دعائها المتواصل لله رب العالمين لتخليص خديجة من محتتها وقالت لصبيحة:
- بو تقدري عليه افعليه، فما يهمني تو غير سلامة خديجة، هي رأس المال، الولد يتعوّض، وخديجة لا شيء يعوّضها، سحبيه، خديجة تعبانة.
- جلست عويذة مسندة رأسها على صدرها وبدأت تجفف العرق الذي يتفصد من جبين خديجة بلحافها، سقتها قليلاً من الماء، محفزة لها لأن تدفع الطفل:
- زفري، زفري...
- لكن خديجة كانت قد استنفدت كلّ طاقتها فلم تكن قادرة على الدفع أكثر، قرأت صبيحة بعض سور القرآن همساً، وغمست يدها في الزيت مرة أخرى ومسحت على بطن خديجة ورحمها محاولة تحريك الطفل ودفعه للأسفل لعله يخرج، وحينما أحسّت أن رأس الطفل اتجه إلى عنق الرحم، أبقت يدها اليسار ضاغطة على البطن وأدخلت يدها اليمنى إلى الرحم جاذبة الطفل من رأسه حتى أخرجته، ولكن لم يُسمع للطفل صوت.

وقبل أن ترسل الشمس أول شعاع لها كان الطفل خارج بطن أمه وفي يد عويده، وحين نظرت إليه كان جسده أخضر كلون ضفدع، وعلى وجهه كدمات زرقاء وسوداء، ورأسه منبعج وعينه بارزتان، طوت عويده الطفل بقماش نظيف كانت أعدته له، وأخرجته إلى صالح الذي عاد من المسجد وظل واقفاً في نفس المكان، مسنداً رأسه على الجدار في وهن، نظر صالح إلى وجه ابنه وتأمله فكان أشبه بكائن صغير ممسوخ، قالت له عويده في يأس:

- الولد ميّت، وربك يعوّضك خير، روح خبر الرجال الجالسين عند بوابة الحارة يتجهّزوا لتغسيل الولد وتكفينه ودفنه.

أعاد صالح الولد إلى يدي أمه:

- لله ما أعطى ولله ما أخذ، طمّنيني على خديجة، كيف حالها؟

- خديجة بخير، معها العجوز صبيحة.

خرج صالح من البيت مولياً ظهره للطفل الملفوف في القماش وأمّه، دمعت عينه رغم تماسكه فمسحها بكُمّ ثوبه حين تأكد أنّ أمه لم ترَ دمعه التي سقطت حزناً على ولده الذي كان ينتظره ويتمناه خليفة له ولأبيه، لكنّه حمّد الله على أنّ خديجة بخير، وذلك كلّ ما كان يتمنى، وكان الله استجاب له دعاءه فحمّده وشكره على النعمة والمصيبة.

بقيت صبيحة مع خديجة، خلّصتها من المشيمة وسقتها بعض الأدوية، ثم نادى على عويذة لتساعدّها على إخراج خديجة من الزريبة والاغتسال. قالت عويذة بألم:

- الله يعوّضها خير، سيكون شفيع لها يوم القيامة.

طلبت خديجة من عويذة أن تعطيها الطفل قبل أن يُدفن، احتضنته وضمّته وشمّته، تناولت صبيحة الطفل من بين يدي أمه، وبحكم خبرتها بدأت تتحسس مواقع النبض في رقبته وساعديه وقدميه وقلبه لتتأكد من موته، فابتسمت ونظرت إلى خديجة قائلة بذات الهدوء والسكينة:

- الولد فيه حياة. عويذة جيبي لي ثمرة مدلوكة.

قامت عويذة وهي تكاد لا تصدّق أن الطفل ما زال حيّاً، ركضت وأحضرت لها ما طلبت وقلبها يرجف، أخذت صبيحة قطعة صغيرة من التمر المدلوك وبلّلتها بقليل من الماء حتى أصبحت شفّافة سائلة وغمست أصبعها فيها ثم أدخلتها في فم الطفل وحلقه لتحنّكه، فتقيّاً سائلاً أسود لزجاً، فاستبشرت صبيحة خيراً، وطلبت من خديجة أن تعصر ثدييها لاستخراج السرسوب منهما في فنجان، فعصرت خديجة ثدييها، ورغم قلة السائل الذي قطّرت في الفنجان لكن صبيحة قطّرت منه في فم الطفل بإصبعها قائلة:

- هذا دواه، ويأذن الله خير.

ربطت صبيحة رأس الطفل بعصابة حتى يستعيد الرأس المفلطح استدارته الطبيعية، وحينما عاد صالح ركضت إليه عويذة وبشرته بأن

الطفل ما زال على قيد الحياة، فأنسته فرحته بنجاة ابنه العودة إلى المنتظرين خارجاً لأخذ الطفل الميت؛ لولا أن أتى حمدان مفزوعاً بعد أن قضى ما تبقى من ليلته مختبئاً في شجرة المانجو محتضناً أحد فروعها، داعياً ربه أن تنجو خديجة وتلد بسلام.

دخل حمدان إلى البيت جزعاً حينما رأى الرجال المتجمعين أمام الباب، سأل صالح عنهم، فأنبه صالح إلى أنّ فرحته بنجاة ولده أنسته العودة إليهم، خرج إليهم معتذراً، وأخبرهم أنّ الطفل ما زال على قيد الحياة، فطلبوا منه ذبيحة صدقة على سلامة ابنه وزوجته، وقد فعل.

يوماً بعد يوم، استعادت خديجة عافيتها، فكانت عويذة تطعمها اللحم والخبز بالثوم والسمن والعسل الجبلي وسخانة الحلبة، فبدأ الحليب يتدفق غزيراً من صدرها، بينما الطفل لا يفتح فمه، ولا يلتقم صدر أمه حتى وإن حاولت خديجة أن تُلِمْه الحلمة التي يدرّ منها الحليب ويفيض ويتخلل من ثيابها، فبدأت تعتصر ثدييها في إناء صغير وتغمس قطنه في ذلك الإناء حتى تتشبع بالحليب ثم تقطرها في فم الطفل، ولكن الحليب بدأ يحتقن في صدرها ويسبب لها آلاماً مبرحة.

لم يكن أمام خديجة من حلّ كما أشارت عليها العجوز صبيحة إلا أن تعود لإرضاع نَفَاقَة التي أوقفت رضاعتها قبل أن تكمل عامها الأول، ولم يكن وقت فطامها قد حان. التقت الصغيرة صدر أمها بنهم، فقويت عظامها واحمرّت خدودها، وزاد وزنها وطولها فكانت تفيض من بين

جانبى حجر أمها وهي ترضعها، وكأنّ حليب أمّها الذى عادت إلى رضاعته مدّها بالقوة والعافية، فمشت قبل أوانها، وأصبحت تتحرك في البيت وتركض هنا وهناك كغزالة صغيرة، تحيط بها قططها ودجاجاتها، وبينما كانت نَفَافَة تزداد عافية وصحة وجمالاً كان أخوها يزداد ضعفاً وهزالاً وتشوّهاً.

بدأت الصغيرة تستكشف زوايا البيت بمفردها، فتسير هنا وهناك، فانشغلت عنها أمها بالعناية بأخيها المريض، وشُغِلت عنها جدّتها بأعمالها في الضاحية أو الذهاب للفلاة. اعتادت الصغيرة المشي والجري في مساحات البيت الواسعة وهي تطارد الدجاجات وتهرس صيصانها بين يديها، أو تمسك القطط الصغيرة من رقابها وتسير بها معلقة في الهواء، فتستغيث القطط في مواء متواصل حتى تأتي أمها فتخلّص القطّ المسكين من قبضة يديها، فتبدأ الصغيرة بالصياح والصّراخ، ولا تهدأ حتى تمسك بالقطّ الذى يعود إليها متمسّحاً في قدميها كأنها ما كادت تخنقه قبل قليل، فتضحك خديجة قائلة: «السّنّور يحبّ خنّاقه».

بدأت نَفَافَة تعتمد على نفسها في الطعام فصارت تأكل بمفردها، وقد التقطت بعض الكلمات وبدأت في نطق باباه وماماه وجوّه في وقت أسرع من غيرها، وكأنّ وجود أخيها المريض ساعدها على أن تعتمد على نفسها وتعلّم، فكانت أمها تترك لها الطعام الذي يكون في معظم الأيام خبزاً مقطّعاً في لبن تكون عويذة مخضته في الصباح الباكر، تناولها أمها عدة لقيمات منه ومن ثم تترك الصحن أمامها، فتشاركها القطط والدجاج ما

تبقى فيه، وحينما تعود إليها لا تجدها في مكانها، وتبحث عنها فتجدها تنكش التراب بين الدجاجات والقطط ووجهها معفر بالتراب وخزق الدجاج، وكلّما قامت أمّها بتنظيفها تعود إلى لعبها مرة أخرى.

لم يكن قلب الصغيرة جزوعاً ولا روحها خوافة هشة، فكانت تحاول الإمساك بكل شيء تراه يتحرّك، وقد وجدت عويذة يوماً تُمسك بثعبان بين يديها وتطوّح به يَمَنَةً وَيَسْرَةً! فأسرعت إليها وانتزعت من بين يديها وقتلته. ومنذ ذلك اليوم بدأ أبوها يأخذها معه حينما يخرج للجلوس عند بوابة الحارة مع أصدقائه، تاركاً إياها في حجره أو بجانبه، أو على قارعة الطريق تحت قدميه تلعب بالتراب والحصى، وأحياناً يتركها مع حمدان بعد أن يُكْمِل عمله في سقي النخيل، حتى بدأت تنادي حمدان (باباه) كما تنادي صالحاً، وظلّت تناديه كذلك حتى كبرت واستطاعت التفريق بينهما، فعرفت أن حمدان بيدار العائلة وخدامها الذي تحبه كأبيها.

(15)

لم يطلق صالح على الولد اسمًا، فكانوا يشيرون إليه بكلمة الولد، وكلّما طلبت خديجة من صالح أن يسميه قال لها:

- ننتظر سبعة أيام، إذا عاش أسميه وإذا مات أسميه، ما يجوز يروح من الدنيا بلا اسم.

- أيعيش وأيكون رجال تفخر به، توكل على ربك وسميه، ملائكته ترفرف، تبحث عن اسمه.

قالت له خديجة ذلك آملة أن يمنح الولد اسمًا، لعله حين يصبح له اسم يكون من أهل الدنيا ويتعافى ويطمئن قلبها، ولكن أن يظل معلقًا هكذا بلا اسم فذلك نذير شؤم في قلبها وهي ترى حالته تلك. لم يستجب صالح لطلبها وقد كان يرى حالة ابنه ويشعر بما تشعر به خديجة، حدث نفسه قائلاً في ألم: «ملائكته تنتظر خلاصه من هذه الحياة التعيسة التي سيعيشها لو بقي على قيد الحياة، الله يلطف به وبنا ولا حول ولا قوة إلا بالله». ونظر إلى الطفل وكأنه رأى ملك الموت ينام بقربه ولم ير الملائكة ترفرف حوله، فأطلق تنهيدة عميقة ونظر إلى الأعلى متجهًا إلى ربه الذي يناجيه قائلاً في سرّه: «يا رب».

اعتنت خديجة بطفلها وفي قلبها بصيص أمل ينير لها عتمة اليأس الذي يكاد يطغى على ذلك الوميض. لكنّ حالة الطفل كانت تسوء يوماً بعد يوم، حتى إنّ الحليب الذي كانت تعصره له بالقطنه يخرج من فمه ولا يبتلعه. استدعت عويذة صبيحة مرة أخرى كي تراه ربما تستطيع أن تعرف علته وتصف له دواء

يشفيه، وحينما أتت صبيحة حملت الولد بين يديها وتحسسته، وقربته من عينيها العمساوين، وقلبته على ظهره، ثم على بطنه، وقالت بنبرة هادئة:

- الولد ما ولدكم، هذا بديل!

فزعت خديجة من الكلمة وهي تنظر إلى طفلها الذي كان وجهه معوجاً بعينين بارزتين، حاولت أن تصدق ما قالته صبيحة؛ لكنّها تعرف في أعماقها أنّه ابنها، حتى ولو كان مشوّهاً وقييحا، إنّها تحبه بأيّ شكل، وإن كان بديلاً.

أضافت العجوز صبيحة:

- أُرْصِّصْ له، وإذا كان بديلاً سيظهر، وإذا كان ولدكم سيظهر، الترصيص يكشف كلّ شيء.

أحضرت لها عويذة إناءً نحاسياً قديماً فيه ماء حتى منتصفه، وورصاً ناعماً كالرمل، قامت صبيحة بتدويبه في النار على إناء معدني، وحينما انصهر الرصاص سكبه في الوعاء النحاسي المليء بالماء، كانت عيون خديجة وعويذة ترقبان الرصاص وهو يتشكّل. سرعان ما تشكّل الرصاص في الماء واتخذ شكلاً غريباً به قرون كثيرة، وحين اكتمل الشكل في الماء أخرجته العجوز صبيحة وقلّبت في يدها وقربته من عينيها فاحصة مستكشفة، ثم أرته عويذة وخديجة قائلة:

- هذا هو الشكل، الولد مبدل به، من لحظة سقوطه من بطن أمه تلقفته ساكنة المكان، يعلم الله كان ولدها مريض، وأخذت ولدكم بدلاً منه وأعطتكم ولدها، «الولد ما حالكم»، هذا ما يقوله الترصيص، وكل شيء يعلمه ربّ العالمين، ونحن لا نعلم من علمه شيئاً.

قلّبت صبيحة الشكل مرات ومرات ثم ناولته عويده، وأكدت كلامها بذلك السائل الأسود الذي تقيّاه حينما حنّكته، فذلك هو حليب الجنيّة الأم التي أرضعته. تناولت عويده قطعة الرصاص المتشكّلة من يد صبيحة وقلّبتها وعايبتها وهزّت رأسها وأكدت كلام صبيحة، وفي داخلها تقول: «أعطيتك كلّ شيء، شاركتك الزينة والشينة، ما أذيتك وأذيتيني وأذيتي أولادي، نسيتي أنا أهل وشرايك، وإذا كنت ميّنة رحمة الله تغشى المؤمنين، وإذا كنت حيّة فما بريتك ولا سامحتك دنيا وآخره».

- عويده، عويده، هين رحّ؟

- معك صبيحة، معك.

لم تبح عويده بشكوكها وظنها أنّ ميمونة الجنيّة هي من فعلت ذلك أو أحد زوجات أولادها، فهي لم تخبر أحداً بذلك السرّ العظيم الذي إن قالته فلن يصدّقها أحد، بل سيظنون بها الجنون، سكتت وهي تحتسب الله وتوكّله أمرها وأمر أولادها. تناولت خديجة ابنها بين يديها وظلت تحدّق فيه، فرأته هزياً مشوّهاً أكثر من قبل، ليس في وجهه وجسده حياة إلا ذلك النبض في رقبتة ينبض (كما الخاليج) كما تقول عويده، تحتضنه وتبكي وهي تكاد لا تصدق ما تسمع، فما زالت تحبّه، ولا تتخيل أن تفقده يوماً.

لم يتحسن حال المولود، بل كانت حالته تزداد سوءاً، فأنت العجوز صبيحة مرة أخرى وفي هذه المرة طلبت من عويده أوراق بصل وليمون ولبان وقامت بتبخير الولد وتبخير المكان، ثم قرأت آيات من القرآن وأغمضت

عينها وصمتت طويلاً والولد بين يديها لا يحرك ساكناً ولا يُسمع له صوت،
وحين فتحت عينها، أكدت أن الولد ليس ولدكم.

- قلت لكم الولد بديل، أجي باكر بعد صلاة العصر، وإذا الجنّ ما
استرجعوا ولدكم وأرجعوا لكم ولدكم، أبقى على هذه الحالة، ولكن
إذا مات ولدكم عندهم أيموت الولد الجني بو معكم.

- مؤمنين وراضين بقضاء الله وقدره علينا.

قالت عويذة، بينما ظلت خديجة ممسكة بطفلها بين يديها حزينة باكية،
وهي بين مُصدّقة ومُكذّبة لما تقوله العجوز صبيحة، وفي داخلها شعور يقول
لها إنه ابنها. وحينما ذهبت العجوز صبيحة حلبت صدرها في فنجان صغير
وحاولت إعطائه الحليب بالقطنّة، لكن الولد لم يفتح فمه، فبلّلت به شفّتيه
الجافّتين.

في اليوم التالي جاءت العجوز صبيحة كما وعدت، وكانت حالة الولد أسوأ
من الأمس، وحين حملته بين يديها كانت عظامه رهوة ومرتخية ككائن
هلامي، أدارت العجوز صبيحة رأسها يميناً ويسراً وهي تتفّ في يدها وتقرأ
عليها ثم تمسح بها وجه الطفل وجسده، وحين انتهت قالت:

- الولد تعبان وطايحنه الحقّ، ولكني أدلكم على دلالة، وأشور عليكم
بشور، بس هذا الأمر يحتاج له جسارة وقوة قلب.

نظرت خديجة إلى عمّتها، فهزّت عويذة رأسها وقالت للعجوز صبيحة:

- قلّبي ما عندك، وما تقولي لي أفعله، شورك وهداية الله، وعسى على
يدك الخير.

تنهّدت العجوز صبيحة وزفرت زفرة خافتة وقالت:

- اليوم بعد منتصف الليل اخلعي ملابس الولد، لفيه بقمط خفيف حتى لو لحاف قديم واتركيه في السطح تحت ضوء القمر، لكن لا تكشري الفراش تحته، قطعة قماش صغيرة تكفي، وليتها تكون بيضاء، ليسطع ضوء القمر بياض على بياض، ويلتقي جسمه بين بياضين، أ يكون نجمه حاضرًا بين النجوم، واتركيه هناك حتى مطلع الفجر، انسيه إذا استطعت، ولا تجعلي الوسواس يأكل قلبك، ولا تستعجلي في إنزاله، وإذا سمعتي صياحه فاعلمي أنّ الجنّ أرجعوه، اتركه يبكي في مكانه، عسى يخرج منه كلّ شرّ كان قد تلبّسه من عالمهم، وإذا ما سمعتيه يبكي على كلّ هذا البرد، فهذا يعني أنّ نجم الولد غايب، والولد قُضي أمره وذهاب من الدنيا، فوكلي أمرك لربك وجهّزي كفنّه، وانتظري ساعة موته، فالإنسان لا يملك في يده شيئًا، وكل شيء مكتوب ومقدّر.

في الليل سلّمت خديجة ابنها لعمّتها عويّدة، وهي تقاوم عاطفتها القلقة عليه، شعرت كأنّها تقتله بيدها، ولكن قد يكون في ذلك خير، اعترض صالح على ما قالته العجوز صبيحة لولا أن أمه أصرّت على تنفيذ الأمر، قائلة بصوت حاسم لصالح وخديجة:

- إنّوا بعدكم صغار وما تعرفوا الدنيا، وما شفّتوا ما شفّته أنا في حياتي، والعجوز صبيحة حرمة متعلّمة وحافظة لكتاب الله، وما تشور علينا بشور يضرّ الولد، انفعّل ما قالته وننوّكل على الله رب العالمين.

فعلت عويذة ما أمرتها به صبيحة وبقيت خديجة ساهرة جالسة في إحدى الدرجات المؤدية إلى السطح رغم برودة الجو، تنظر إلى طفلها من بعيد، ظلّ الطفل هكذا شبه غائب أو نائم، وبعد فترة سمعت خديجة ولدها ييكي وما سمعته باكيًا من قبل بذلك الصوت الذي يقطع نياط القلب، صمّت أذنيها بيديها، وعيناها تسحّان الدمع مدرارًا على خديها، جلست تنتظر متحمّلة صابرة كما قالت لها العجوز صبيحة ولا تستعجل في إرجاعه، ولكنها لم تحتمل سماع صوته الضعيف وهو ييكي، فذهبت إليه واحتضنته وأعادته إليها وقالت لزوجها:

- آمنت بربي الذي خلّقني، إذا هذا الولد من نصيبي أبقى لي، وإذا ما من نصيبي أياخذه ربّه ليكون شفيعي يوم الدين، ما أقدر أشوفه يتعذّب.
- «والنعم بالله». وافقها صالح.

لامت عويذة خديجة على قلة صبرها، لكنّها لم تستطع منعها، وما كانت أقلّ منها جزعًا على الطفل، فتناولته من يدها وضمته إلى صدرها ولفته بلحاف رأسها كي يدفأ، ثم ألبسته ملابسه وبخّرتة بالقسط واللبن الذي أحضرته العجوز صبيحة، ولكنّ الطفل ظلّ على حالته، فما تغيّر شكله ولا استعاد صحته. بعد يومين من وضعه في السطح صرخت خديجة:

- مات الولد.

طلبت عويذة من صالح أن يطلق عليه اسمًا، فلم يجد غير «البديل» كي يكون اسمًا له، حاولت تغيير الاسم وقالت له إنّ هذا الاسم لا يليق بطفل

يلاقى به ربه، وبعد إصرار منها ونزولاً عند رغبة أمه أطلق عليه اسم «سعيد» لسعادته بحياته في الجنة.

آمنت عويذة أن ابنهم قد مات في عالم الجن السفلي، وأن من مات الآن معه هو ابنهم الذي أرجعوه لهم بعد موته، فحينما كانت النساء تغسله وتكفنه تشهد عويذة أن وجه الطفل تغير وعاد إلى هيئته الآدمية، وأن ذلك الانبعاث الذي كان في جبهته والتشوه الذي كان في وجهه لم يعد موجوداً، بل أصبح أقرب إلى الشكل الآدمي! بكت عويذة يومها وشاركت خديجة البكاء لفقدائها ابنها، ولعنت في داخلها شريكها الجنّ الميمونة التي كانت سبباً في موت حفيدها، ولامت المرحوم زوجها في قبره، لأنه أدخل الجنّ بيتهم، وجعل تلك الجنّ شريكة لها، وقد مات هو وبقيت هي وأولادها تعيش في بيتهم وحياتهم خراباً، لكنها تداركت غضبها وطلبت له المغفرة والرحمة من الله رب العالمين.

تجلّدت خديجة وصبرت رغم الحزن الذي سكن قلبها بعد موت ابنها، لكنها انشغلت بتربية نَفَافَة وإرضاعها، فكانت الفتاة الصغيرة تشبّ اليوم عن يومين والشهر عن شهرين، حتى إنّ جدّتها ما كانت تغسل نقطة الكحل السوداء من بين عينيها خوفاً عليها من عين حاسد أو ظالم، وتعيدها كلّ صباح ومساء من عيون الجنّ والإنس.

(16)

لم يطل انتظار خديجة بعد موت ابنها حتى شعرت بأعراض الحمل مرة أخرى، ولكن حملها كان خفيفاً هذه المرة لدرجة أنها لم تكن متأكدة نظراً لانقطاع دورتها الشهرية بعد ولادتها الأخيرة، ولم تنتبه ولم تعرف أنها حامل إلا في الشهر الخامس حين شعرت بحركات الطفل داخل بطنها. وفي أثناء حملها هذا حلمت خديجة ذات ليلة بطارق يطرق الباب عليها، وحين فتحت الباب للطارق رأت رجلاً طويلاً يكاد رأسه يلمس السقف، أبيض البشرة يرتدي ثياباً بيضاء، لكن وجهه بلا عينين، فسألته:

- من أنت؟

- «أنا ناصر»، رد عليها بصوت واضح مسموع.

فقامت مفزوعة مستبشرة ببشرى خفية لامست قلبها، وحينما حدثت عمّتها عويذة في الصّباح بما رأت في حلمها، سألتها عن صفات الرجل الذي رآته في الحلم، فأخبرتها، اقشعرّ جسد عويذة ودمعت عينها، فقد عرفت أن من أتى في الحلم لخديجة هو ناصر بن حمّد، ولكنها لم تستطع تفسير أن يكون وجهه بلا عينين، استبشرت عويذة أيضاً بالحلم رغم قلقها من غياب العينين في الحلم وقالت لخديجة:

- أيجي ناصر، وانتبهي على نفسك هذي المرّة.

مرّت أشهر حمل خديجة خفيفة ومريحة، فلم تتوحم كما توحمت في حملها السابقين، ولم تشعر في جسدها إرهاقاً أو تعباً، ولولا حركات الطفل ورفساته التي تحرمها لذة النوم لكذّبت ما هي فيه، شيء واحد فقط بدأت تشعر به أنّها أصيبت بالأرق، فكانت تظلّ فاتحة عينيها حتى ساعات متأخرة من الليل، وقد كانت جارتها زهرة حاملاً أيضاً بحملها الثالث، بعد ابنها البكر حمود الذي يكبر نفّافة بثلاثة أعوام، وسلامة التي كانت من عمر نفّافة، وابن آخر توفي بعد ولادته بعام، لكن زهرة تعاني الغثيان والدوار والرغبة المتواصلة في النوم، حتى إنّها تكاد لا تستطيع فتح عينيها بسبب النعاس الذي يغشاها، على عكس خديجة تماماً. وحينما أخبرت خديجة زهرة بخفّة حملها وأرقها ليلاً، قالت لها ضاحكة مازحة:

- حامله بنبي.

- استغفري ربك يا زهرة، بس الغريب أنّي ما أنام، طول الليل جالسة كما البومة، لا جفني يغمض، ولا عيني تسنى.
- عجب ابشري يا خديجة، جاينك ولد، هذي علامات على حمل الحرمة بالولد، وهذا عوض ربك عما فقدتي، وعسى هذا الولد بخير وعافية بإذن الله الكريم، فما أخذ الله منا شيء إلا ليعوضنا بما هو خير منه، ولكن أنا على هذا النعاس وهذا الرقاد جايتني بنبيّه.
- الحمد لله على نعمه، وكل ما يعطينا إياه ربنا خير.

مرت الأشهر سريعة، وحينما عاد صالح ذات مساء بعد صلاة العصر من المسجد كانت خديجة قد ولدت، ولكن هذه المرة ولدت في غرفتها ولم تذهب إلى الزريبة بعد أن حذرّتها عويذة من الذهاب إلى هناك إذا حانت ساعة ولادتها. بشرّته أمه بولادة الولد الذي كان ينتظره بعد الولد الذي مات، فاتجه فوراً إلى رؤية الصغير، وناولته خديجة إياه، فرفعه حتى لامس أنفه، وشمّه شمة طويلة، وأذن على أذنه اليمنى، وسأل خديجة عن صحتّها، فأخبرته أنّها بخير وعافية، وأنّ ولادتها لم تكن صعبة حتى إنّ الأمر لم يتطلّب إحضار العجوز صبيحة. أبقى صالح الوليد طويلاً بين يديه، ثم ناوله خديجة برفق والتفت إلى عويذة وقال بفرح:

- اسمه ناصر، هذا أبي.

تهلّل وجه عويذة بشراً وفرحاً بميلاد الولد؛ خليفة جده وامتداد أبيه، تناولته من يد خديجة وتأملت ملامح وجهه ثم نظرت إلى الغرفة العلوية في البيت وامتداد سفح التلة، فتخيّلت الطابق الثالث الذي سيقوم صالح بإكمال بنائه سيراً على نهج أبيه وأجداده، وتخيّلت الطابق الرابع الذي سيبنيه ناصر الصغير حينما يكبر، وضمّرت في نفسها أن تذبح دجاجة تطييراً للدم على باب الغرفة العلوية.

استبشر صالح خيراً لأن ابنه ولد في نفس الشهر الذي ولد فيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فبالأمس احتفلوا بالمولد النبوي في المسجد، واليوم يولد ناصر وفي ذلك إشارة خير، يوم ميلاد لا يمكن

نسيانه. فتح صالح المصحف وسجل على هامشه بخط يده، ولد ناصر بن صالح بن ناصر بن حمد يوم السبت ١٣ من ربيع الأول ١٣٧٣هـ، وذهب على الفور إلى زريبة الغنم وذبح من الشياه أسمنها، ثم ذهب إلى الضاحية ونادى على حمدان الذي كان يقوم بسقي النخيل لأن اليوم كان دورهم في السقاية حسب تقسيم الأثر من الماء، فأثاه راکضاً، فطلب منه أن يساعده في سلخ جلد الذبيحة وتقطيعها وتقسيمها للجيران في الحارة، حاول حمدان التملص من المهمة خوفاً من ضياع الماء وعدم اكتفاء النخيل من السقي، لكن صالح قال له:

- رغده.

فلم يجد حمدان بداً من رغد الماء وتركه مورعاً في السواقي منتشراً في جلب البرسيم وضواحي النخيل بشكل عشوائي، والذهاب مع صالح ومعاونته، فرحاً بسلامة خديجة، ومتشوقاً لرؤية ناصر الصغير.

وأثناء تقطيع صالح وحمدان للذبيحة وتقسيمها، جلست عويذة على الأرض ومدت رجليها، وفرشت قطعة قماش مربعة الشكل على ساقها ووضعت عليها الوليد الصغير، فظهر جسده الصغير الأحمر، ضمت عويذة يدي الصغير فوق بعضهما ولفت جسده بقطعة القماش تلك، حتى يكتسب جسده الاستقامة والصلابة التي تريدها كما قالت وهي تُقَمِّطُهُ، وشدت أنفه الصغير بإصبعيها، ثم بخرتة وقرأت عليه المَعَوَّذَات، ووضعت على جبينه نقطة من دهان الباطل، ثم مررت يدها على وجهه

وجسده بعد أن تَفَلَّتَ عليها، وقرأت مرة أخرى سورة قصيرة لا يسمع منها سوى حرفي السين والصاد.

اقترب حمدان من الصغير ووضع على جبينه خطاً من دم الذبيحة، ضحك صالح وضحك حمدان، وابتسمت عويذة وهي تنظر إلى ناصر الصغير بين يديها. لم تذهب عويذة ذلك اليوم إلى المزارع وضواحي النخيل ولا إلى الفلاة، وكأنّها نسيت كلّ شيء إلا خديجة ومولودها، حتى إنّ الصغيرة نَفَافَة التي كانت تركض هنا وهناك وراء الدجاجات لم يتبّه إليها أحد، فأخذها حمدان معه وهو يوزّع اللحم على بيوت الحارة حاملاً إياها على كتفيه.



عجنت عويذة الطحين وخبزته، وأوقدت النار تحت القدر لتطبخ اللحم المتبقّي داخله، واحتفظت لخديجة بكمية قليلة منه، فطبخته لها في قدر صغير، وأكثر في الثوم والزنجبيل والقرفة والفلفل الأسود، وحين تأكدت من نضجه غمرته بكمية كبيرة من السمن، فهذا اليوم بالنسبة لعويذة لا يشبه بقية الأيام، وهو فرح يغسل هموم القلب، مردّدة بفرح: «وليس الذكر كالأنثى».

لم يخرج صالح في ذلك اليوم من البيت، وبقيت خديجة راقدة في الفراش مع طفلها الصغير الذي يصيح بجانبها صياحاً أشبه بالثغاء فتُلَقِمُه صدرها حتى يهدأ، بينما نَفَافَة البالغة من العمر ما يقارب ثلاثة أعوام غير

مدركة لما يحدث، متعجبة من ذلك الكائن الصغير بين يدي أمها، تنظر إليه في فرح وغيره، إذ يوجد كائن صغير يبكي ويتحرك ويحتل حضن أمها وحجرها، ويحظى باهتمامها.

فرحة العائلة بناصر لم تقتصر على يوم ميلاده، بل استمرت كل يوم، فقد حاز ناصر كل الحب والاهتمام، فقبل أن يخرج صالح من البيت يُلقِي نظرة على صغيره، وحينما يعود يهرع لتناول الصغير فيشمه ويقبله منادياً له بالشيخ ناصر، صنع حمدان للصغير مهداً من أعواد سعف النخيل، أجاد صنعه ووضع كل مهارته فيه وأضاف إليه إضافات تجميلية، جعل له طبقة سفلية أشبه بصندوق ملحق به، كي تضع خديجة فيه ملابس الصغير، ولم يتركه مفتوحاً من الأعلى بل غطاه بأعواد من سعف النخيل في مسافات متباعدة ليترك للهواء فرصة الدخول، وفتحة من الأمام لإدخال الطفل منها، ثم علّقه في قطعتين طويلتين من الخشب بشكل متقاطع في صدر الحوش المسقوف، حتى إنّ كل من رأى المهد تعجب من دقة صنعه وجماله.

ملأ ناصر البيت بصياحه، وأصبح محطّ اهتمام الجميع، وفرحت نفاة بأخيها الصغير الذي ظنّته في بادئ الأمر دمية تلهو بها، حتى استوعبت أنّ هذا الكائن الصغير أخوها، وأنّها مسؤولة عن العناية به وهزّ سريره حتى ينام.

ويومًا بعد يوم أخذ الصغير يكبر، وبدأت ملامحه تتضح مع الأشهر والأيام، فكان أشبه بأمّه من جدّه وأبيه، حتى يكاد يكون نسخة مصغّرة منها في بياض بشرته ودقة أنفه ولون عينيه الأشبه بقطرة عسل. أحبّ الجميع ناصر بما فيهم نَفَافَة التي كانت تمسك به وتضعه في حجرها؛ وكانت جارتهم زُهرة التي ولدت هي الأخرى بنتًا أسمتها مِنَّة تشاكسها وتقول لها إنّها ستأخذ منهم ناصر وتترك لهم مِنَّة، فتبدأ نَفَافَة بالصياح.

اهتمت عويذة بتغذية خديجة، فكانت تطعمها طعامًا خاصًا بالمرأة النفساء لفترة لم تقتصر على الأربعين يومًا في فترة النفاس، بل أطعمتها ثلاثة أشهر كاملة طعامًا مشبعًا بالسمن والعسل، وما كانت تسمح لها أن تأكل سوى اللحم الطازج ولحم الدجاج الصغير التي تربّيها عويذة في البيت، وكلّ ذلك من أجل عيني ناصر الذي ترتبط تغذيته بغذاء أمه، وطالما ردّدت عويذة وهي تُقنّع خديجة بالأكل والاهتمام بتغذيتها: «إن صحة الولد من صحة أمّه، وكل ما تأكله يأخذه الطفل من الحليب الذي يشربه من صدرها».

كبر ناصر حتى إنّ وزنه بدا أرزح من نَفَافَة، وشعره البني الحريري الناعم أصبح أكثر كثافةً وطولاً، وقد اكتمل جمال وجهه بجمال عينيه، فكانت عويذة كلّما نظرت إليه تسمّي بالله الرحمن الرحيم، وتدعو على كلّ عين تراه ولا تصلّي على النبي. وحينما أكمل ناصر عامًا من عمره، ذبح صالح ثورًا ضخماً ووزّع لحمه على كلّ بيوت الحارة فقيرها وغنيّها،

صدقةً عن ابنه داعياً الله أن يبارك له فيه وأخته التي لم تكن أقلّ شأنًا من أخيها في قلب أبيها، رغم أنّ ذلك لم يفعله صالح بعد إكمال نَفَاقَةِ عامها الأول.

وبعد أن انتهى الاحتفال بإكمال ناصر عامًا، نادى عويذة صالح ودعته للجلوس بجانبها ليستمع لما ستقوله:

- أريد منك تبني غرفتين، أريدك تكمّل الطابق الثالث في الجهة العلوية صوب الجبل.

لم يتعجّب صالح من طلبها ببناء الغرفتين، فهو يعلم أنّها ستطلب ذلك منه ذات يوم، وقد آن أوان إكمال البناء كما هي العادة بعد ولادة ذكر في العائلة، ولكنّه ما كان يجد لذلك ضرورة، وخصوصًا أنّ البيت كبير بما يكفي لهم، وهو أكبر بيت في بيوت الحارة بعد أن بنى جدّ أبيه الطابق السفلي الذي تحوّل إلى مخازن للحبوب وزرائب للبقر والغنم في عهد جدّه الذي أضاف الطابق الأول ليخصّصه لمعيشتهم، فبنى ثلاث غرف وسبّلة استقبال الرجال ومطبخًا، وأنشأ في الوسط حوشًا مسقوفًا، ثم أضاف أبوه الطابق الثاني الممتد بشكل أفقي نحو الجبل، فبنى غرفتين، وأعلى منهما بقليل غرفة منعزلة عن بقية الغرف، وهي الغرفة العلوية المقفلة دائمًا، والتي ظلت مقفلة حتى بعد موته، وكلّ من يرى البيت الذي يقع في بداية الحارة لا يلاحظ سوى الطابق السفلي والطابق الأول

منه بنوافذه الخشبية المٌطلّة على درب الحارة وبوابتها التي تقع جهة اليمين من البيت، فامتداد البيت كان نحو التلة الجبلية التي بُنيت عليها الغرف الأخرى، قال صالح لأمه محاولاً إقناعها بعدم ضرورة البناء:

- لكنّ البيت كبير والغرف واجدات وما يسكنها أحد.
- ما عليك أنت من كبر البيت وصغره وعدد الغرف، هذا عُرف متوارث من عهد أجدادك، وهذي وصية أبوك لك ولو لم يقلها بلسانه، ولكنّ اعتبره قالها، فلو كان على قيد الحياة ما كان يرضيه إلّا يكون البنيان مكتمل.

- هذي قلعة ما بيت... حشا!

- افعل ما قلته لك، ولا تخالف لي رأي ولا شور.
- ما لم تخبر به عويدة صالح أنّها رأت رؤيا في المنام، فقد زارها ناصر ليلة أمس مرتدياً ثوبه الأبيض، محتجباً خلف حجب من البياض الشفيف، مذكّراً إياها بإكمال بناء البيت، فرأته يسير نحو الجهة العلوية، حيث ستبنى الغرف الجديدة التي سيسكنها ناصر وزوجته حينما يكبر.

أخبر صالح حمدان بأن عويدة طلبت منه بناء غرف جديدة كطابق جديد في البيت امتداداً باتجاه الجبل، وأنّه لن يخالف لها رأياً. فرّ حمدان من فوره ولم يتوان لحظة واحدة، مسرعاً بإحضار من يساعده على العمل وتنفيذ أوامر الأم عويدة، أحضر حمدان مع الرجال التراب والتبن

والأحجار من الوادي، وخلال يومين كانوا قد بدؤوا العمل، ومزجوا التراب بالماء، وشكّلوا طوب الطُّفال استعدادًا للبناء.

وما هو إلّا شهر وأيام حتى بانّت الغرف، وأصبح البيت كما قال صالح أشبه بقلعة من ثلاثة طوابق بشكل متدرّج في سفح تلة جبلية تطلّ على الفلّج، حتى إنّ الناظر من الغرف العلوية في البيت يستطيع رؤية الحارة كلّها ورؤية «حلّة الشواوي» حيث يقيمون، وأشجار العِلّعلان في الطريق الممتدة نحو الجبل. وكلّما نظر صالح من عليائه إلى الحارة شعر بالفخر بينه وبين نفسه أن يكون هذا البيت الكبير بيته وحصنه، وأن تكون هذه القلعة قلّعته، حتى إنّ بيت عمه الشيخ الذي ورثه أبناؤه بعد موته لا يساوي ربع هذا البيت العود الذي احتفظ به أبوه ولم يتنازل عنه كما تنازل عن المشيخة، فبقي البيت العود مقصدًا للمحتاجين وملادًا للجائعين ومعبرًا للزائرين، وبقي ناصر ومن بعده ابنه شيخًا بأفعاله وشجاعته وما كان يقدمه لأبناء حارته في سنوات الجوع والفقر والحاجة، بينما تفرّق أبناء أخيه من زوجاته الثلاث، فاستقلّت كلّ زوجة في بيت بمفردها مع أولادها بعد أن تقاسموا الميراث، إلّا ياسر الولد الأكبر من الزوجة الأولى، والذي تزوّج من حميدة ابنة عمّه، واستلم المشيخة بعد وفاة أبيه.

وجد صالح في البيت العود، مخبأ مناسبًا للأسلحة التي كان الإمام يخصّه بها، ومن ثمّ التصرّف بها بتوزيعها على الثّوار حين استعرت نار الحرب، لكنّ ما كان يحير صالح أمر الغرفة العلوية المغلقة التي تعلّق أمه

مفتاح قفلها في رقبته، فقد دخل كلّ الغرف ويعرف ما فيها إلاّ الغرفة المغلقة قبل موت أبيه، والتي رفضت عويذة فتحها له لأسباب يجهلها، وحينما أراد صالح كسر القفل يومًا، وقفت عويذة بينه وبين الباب، وحلفت عليه ألاّ يقترب من تلك الغرفة وألاّ يكسر قفلها وألاّ يفتح بابها، قائلة له بصوت حازم حاسم:

- الغرفة مسكونة.

(17)

تستيقظ خديجة قبل أذان الفجر كعادتها فتعجن عجينها، وتذهب إلى المَجَازة لتصلّي، ثم تشرع بإصلاح الأثافي وتهيتها استعدادًا لإعداد الخبز، حتى يكون الخبز الطازج مع الحليب الدافئ بنكهة السمن المقشود جاهزًا حين يعود صالح من المسجد، فهي تعرف أنه يحب أن يتناول إفطاره باكراً ولا يريد أكثر من تلك الوجبة، وإذا تناول شيئاً بعدها فليس سوى ثلاث تمرات وفنجان من القهوة من يد عويذة.

يتوالى صياح الديك ماداً عنقه مرفقاً بجناحيه، مجاوباً ديوك الحارة التي تصبح صياحاً متواصلًا، تغمغم خديجة: «دواهن يذبحن، هلكنا، الصغيرين قاموا من سقيعن». وعلى رائحة الخبز الشهية الطازجة التي تملأ المكان وصياح الديكة تستيقظ نَفَافَة ذات الأربع سنوات، تقفز من فراشها، وتنزل من السطح عبر الدرجات المبنية من الحجر والطين وهي تفرك عينيها منادية: «ماه، ماه»، تردّ عليها خديجة لتأتي، تقفز الصغيرة في فرح راكضة باتجاه أمّها حاضنة إياها من الخلف، متعلّقة برقبته وملتصقة بظهرها.

- نَفَافَة ابتعدي عني، خنقيني، تركيني أكمل الخبز.

تقول خديجة لابنتها وهي تزيحها عن ظهرها وتناولها خبزة مدهونة بالسمن، تجلس الفتاة بالقرب من أمّها تأكل رغيفها الشهيّ بلذة

واستمتع، تنظر إلى وجه أمها وحركة يدها في طوبج الخبز بسرعة وخفة، وتراقب ألسنة النار الممتدة من بين الأثافي حتى تكاد تلامس يد أمها الممتلئة بالعجين المتخلل من بين أصابعها، تراقب الصغيرة أمها وهي تمسح العجين بيدها بشكل سريع على سطح الطوبج الساخن، يعجبها صوت رشّات الماء على الطوبج حين ترشه أمها كلّما عاندها ولم يلتصق به العجين كما تشاء، فتظنّ الصغيرة أن تلك لعبة تلعبها أمها، فتغمس هي الأخرى يدها وتبدأ برشّ الماء كما تفعل أمها وهي تضحك وتكركر في فرح مستمتعة بصوت قطرات الماء وهي تتطاير من أثر ملامستها للسطح الساخن.

تواصل خديجة إكمال دوائر الخبز الرقيقة وأذنها منصتة لأي حركة أو صوت من صغيرها النائم بمفرده في فراشه على السطح، وقد اكتسى وجهها حمرة من أثر حرارة النار ووهج العجين. وحين أوشك العجين على الانتهاء ولم يبق منه إلّا ما يقارب حجم ثمرة ليمون، أضافت خديجة قليلاً من الماء عليه وفركت جوانب الإناء بكرة العجين حتى أزال بقايا العجين العالق به، لتخبز منه الخبزة الأخيرة التي تكون أكثر سمكاً من بقية الأرغفة، فتكون غطاءً لأرغفة الخبز الأخرى. وبينما تنضج الخبزة الأخيرة تكون نفاقة قد أكلت خبزتها، ونثرت بعض الفتات المتكسّر على الأرض للدجاجات التي أحاطت بها، وكي تبعد خديجة الدجاجات من قرب الموقد ترمي الماء الذي غسلت فيه يديها ووضعت فيه بقايا العجين

وفتات الخبز المتبقي على أرض الحوش، تقوقى الدجاجات، وينفش الديك ريشه مترقّصًا وسطها فرحًا بوجبة الإفطار ودجاجاته المتحلّقة حوله.

تتبع نَفَاقَة أمّها بعد أن ترفع صينية الخبز في السّلة السّعفية المعلّقة في الحوش بعيدًا عن القطط والدجاج حتى يعود صالح من مدخل الحارة الذي يجلس فيه عادة مع رفاقه وجيرانه بعد انتهائه من صلاة الفجر، وتذهب إلى ناصر الذي كان مستيقظًا في فراشه بالسطح، تنزله وتضعه على مهده المعلّق في حوش البيت المسقوف بعيدًا عن الشمس، وتأمّر نَفَاقَة بالجلوس بجانبه وهزّ المهد حتى يغفو.

- انتبهى على ناصر، عن تنقبه الدجاج. قالت خديجة لابنتها.

تعود خديجة إلى السطح وتنفض الفراش وتطويه وتنزله ثم تركنه في إحدى زوايا الغرفة، تكنس الأرض، وتُخرج الحصير، وتفتح النوافذ المغلّقة المطلّة على الطريق، تترك نَفَاقَة أخاها النائم في مهده وتجلس خلف النافذة تتلهى بمشاهدة الطريق والناس وماء الفلّج في الساقية المقابلة لبيتهم الذي يسير منسبًا بين مزارع النخيل الممتدة إلى مدى لا تراه عينها، فرحة برؤية أبيها جالسًا في مدخل الحارة مع جيرانه في جانبي البوابة، تراه بينهم يلوّح بيديه ويحرّك شفّتيه ولا تسمع ما يقول، تظل ممسكة بقضبان النافذة وفي يدها الأخرى دميّتها الخشبية التي صنعها لها حمدان. تنادي الصغيرة أباهما وهي ترقب خطواته قادمًا في الطريق إلى

البيت، ثم تركض لتنتظره خلف الباب كي ترتمي في حضنه لحظة دخوله، يدخل صالح فتركض خديجة لاستقباله، يرمقها بنظرة لا تخلو من الإعجاب دون أن يُبين لها ذلك، يحمد الله في سرّه على هذه المرأة التي تملأ عينه بالرضا وقلبه بالحب، يتأمل وجهها البضاوي وعينيها الواسعتين المكحولتين، تعجبه بشرتها الصافية وفمها الصغير وشفتيها الرقيقتين وأنفها الدقيق الحاد كحدّ سيف كما وصفتها له أمّه حين خطبتها له ولم يكن قد رآها بعد. يحبها ويحب كلّ شيء فيها، ذلك ما لا يستطيع نكرانه بينه وبين نفسه، ويرى نفسه محظوظاً بأن رزقه الله إياها زوجةً دون نساء العالمين، وينظر إلى نَفَاقَةِ التي أخذت بياض بشرة أمها وشيئاً من ملامحها التي لا يجهل الناظر إليها أنّها ابنة خديجة، وكأنّ شيئاً خفياً في وجهها أخذته من أمها، لكنّها أقرب شبهاً إليه وإلى جدّها عويدة بعينيها الصغيرتين الناعستين السوداوين والذابلتين في حزن فطري، ووجهها الدائري الذي يحيط به شعر ناعم أسود مقصوص الأطراف يغطي جبينها حتى أعلى حاجبيها الأزجّين، فيمنحها جمالاً يأسر قلب أبيها قبل عينيه.

ترفع الصغيرة يديها إليه فيحملها، ويذهب بها إلى حيث يرقد ناصر في مهده الآمن وقد أسدلت عليه خديجة وقايتها الخضراء الشفّافة، فيبدو له تحت الغطاء كملاك صغير يحلم، تضع خديجة وجبة الإفطار، وتنادي صالح وعويدة، فيجتمعون جميعاً على سماء الإفطار. يسألها صالح قبل أن يمدّ يده:

- خبزنا ولا خبز غيرنا؟

فترد عليه خديجة وهي تبسم:

- خبزنا، خبزته قبل شوية، بعده حار، اترك عنك الوسواس.

- ومتى طحنت الحَبّ؟ أمس قلتي ما عندنا طحين.

- جارتنا زُهرة زوجة سيف طحنت وجابت لنا شوية، فعجبته وخبزته.

تناول صالح قطعة من الرغيف الذي وضعت له خديجة أمامه، وعلقت عويذة وهي تدس خبزة مغموسة بالحليب في فم نَفَافَة:

- يقول راعي المثل: قصّ صبع ولا تغير طبع، هذا ولد ناصر بن حمّد، كان المرحوم ما يأكل خبز غير المخبوز في البيت.

ابتسم صالح ودعا بالرحمة لروح أبيه. وضعت خديجة أمامه أرغفة أخرى من الخبز وهي تبسم بعد أن لاحظت أنه أكل الأرغفة التي وضعتها له من قبل، وكانت خديجة قد عرفت صالح وحفظت طباعه، ولا تستطيع الكذب عليه حتى ولو على خبزة، فهو يعرف خبزها من أيّ خبز آخر حتى لو لم تخبره بذلك، فحينما تحضر بعض الجارات خبزاً إلى بيتهم، يعرفه ويرفض تناوله، فتحضر له خديجة الخبز المتبقّي في الصينية من عشاء البارحة، معذرة عن تقصيرها. وفوق أنّ صالح يشبه أباه في ذلك كما قالت عويذة كان نادراً ما يأكل أو يشرب من بيت أحد إلا مضطراً؛ وقد أصيب بذلك الوسواس بعد أن شرب ذات يوم من جحلة معلّقة في

بيت أحد الجيران فسقط فأر صغير ميت في الكوب الذي سكب فيه الماء، ومن يومها وهو لا يستطيع الشرب أو الأكل إلا من بيته، ومن يد أمّه أو زوجته.

وقبل أن ترفع خديجة صينية الإفطار دخل حمدان حاملاً في يده قفيراً من الرطب، تنحنح وهوّود:

- هووود هووود.

تركض نَفَافَة نحوه وتمدّ يديها إليه كما فعلت مع أبيها، يُنزل قفير الرّطب من فوق رأسه ويرفعها إلى صدره، يلتفت إليه الجميع، ويقول له صالح ضاحكاً:

- هود هود، قَبّ عود، تريّقت يا حمدان ولا بعدك؟

- حبابي، أكلت رطب خلاص من النخلة وأنا أخرف.

- عجب اشرب حليب بالملح والزعتر، تكسر به حرارة رطب الخلاص، واتبعه بفنجان قهوة.

ناولته عويذة عدة أرغفة من الخبز وملة من الحليب أضافت إليه قليلاً من السمن، وقالت له:

- كلّ يا ولدي، أنت من الصباح وحتى المساء ما تستريح ولا تذوق

شيء، يا ولدي الإنسان أهم شيء عنده صحته، الشغل ما طير.

قال صالح وهو يتسم:

- لا تخافي على حمدان يا العودة، جرّة السمن كلّها في كرشه، عويذة متوصّية فيه ومتوصّية بكرشه.

- قول ما شاء الله عليه، نحن لو ما حمدان كنا متغلّقين.

يضحك صالح ويتسم حمدان وهو ينظر بخجل إلى خديجة، فرغم كلّ السنوات التي عرف فيها حمدان خديجة منذ أتت إلى البيت، ورغم أنّه كان يلعب معها حينما أتت عروسًا صغيرة، لكنّه صار يخجل منها، وكبر الخجل معه فأصبح لا يرفع عينه نحوها حتى حين يحدثها.

جلس حمدان جانبًا ليس بعيدًا عنهم وتناول إفطاره، وحين انتهى غسل إناءه من وعاء الماء القريب وأعادته إلى المطبخ، وحمل القفير الفارغ وخرج عائداً إلى المزرعة.

تعود نَفَافَة إلى النافذة تتربّح ذهاب الأغنام إلى المرعى وعودتها ثم تنشغل بهزّ سرير ناصر حين يبكي، أو ملاحقة الدجاجات والقطط ومتابعة أمّها أينما ذهبت داخل البيت؛ وقبل الظهر بقليل وحينما تسمع صوت صفير الراعي وثغاء الأغنام قادمةً من المرعى، تعود مسرعة لتجلس خلف النافذة قابضة بيديها الصغيرتين على قضبانها الحديدية لترى الراعي وسط الأغنام وهو قادم من بعيد بوجهه المتغضن بالتجاعيد، وساقيه النحيلتين وقد كشف عنهما بأن ربط دشدشته مع إزاره إلى ما

فوق الركبة، فتشكّل تلك الأصوات نغمات عذبة، تلامس سمع الصغيرة وقلبها فتطرب لها.

تجلس نَفَافَةً مترقّبة تلك اللحظة التي ترى فيها الغبار الذي يسبق قدوم الماشية فتعرف أنّها أصبحت قريبة، فتركض صوب أمّها التي أصبحت تعلم أن مجرد تحرّك صغيرتها من خلف النافذة يعني أن الشياه عادت من المرعى، تغمغم الصغيرة:

- مباع، ماماه مباع.....

فتنزل خديجة حاملة ابنتها لاستقبال غنماتها لتدخلها إلى الزريبة

- زرب، زرب...

تدخل الشياه فيركض صغارها التي لا يُسمح لها بالذهاب إلى المرعى نحوها وتُدخل كلّ واحدة منهن رأسها تحت أمّها ملتزمة الضرع الذي يكون ممتلئًا بالحليب وهي تهمهم وتثغو ماسحةً رؤوسها ببطون أمهاتها، هازّة أذياها في حال من النشوة والفرح، بينما تشمّ الأم صغيرها وتباعد ما بين ساقها حتى يستطيع أن ينال حصته كاملة من الرضاعة.

تعود نَفَافَةً إلى النافذة فترى الراعي وقد ابتعد وهو يسير في درب الحارة بين البيوت، يهشّ على أغنامه ويجمعها حوله بحركة من يديه وصوت صفيره، فبمجرد أن تسمع الأغنام صوته تتوقف، وكأنّها تفهم ما يريده منها، فتدخل كلّ مجموعة إلى بيتها الذي تعرفه، وتكون النسوة واقفات أمام البيوت في استقبال الشياه، وأحيانًا يقوم الأطفال الصغار بهذا

العمل بعد أن اعتادوا استقبال الأغنام وإدخالها في زرائبها. يواصل الراعي دربه مع باقي الشياه حتى يوصلها إلى بيوتها، وبعد أن يختفي عن عين الصغيرة يكون قد خلف في الطريق غبارًا من تحت أقدام الشياه، وبعراً تظل رائحته تملأ المكان ساعات طويلة بعد ذهابه، حتى تقوم النساء بكنس بعر المواشي من أمام بيوتهنّ، ونضح السيكة بالماء فتخفّ حدة تلك الرائحة، وهكذا تبدو سيكة الحارة نظيفة ومبللة بالماء على الدوام. تظل نفافة خلف النافذة حتى يغيب الراعي وشياهه وكلبه عن ناظرها.

(18)

أكمل ناصر العامين، وذبح صالح كبشين احتفالاً به وصَدَقَهُ عنه لياركه الرب، ودعا رجال الحارة لتناول وجبة الغداء، ودعت خديجة جاراتها، ومن لم يأت تكفل حمدان بإيصال الغداء إلى بيته. ألبست خديجة ابنها في ذلك اليوم دُشداشة بيضاء، وأحاطت خاصرته بمحزم صغير، وضفّرت شعره النبي الناعم في صفائر كثيرة زادته جمالاً على جماله، ولولا دُشداشته البيضاء لظنّه من رآه بنتاً، فلعينيه الواسعتين المكحولتين نظرات أسرة ساحرة، فما رأت عين أجمل منه ومن عينيه، يسير هنا وهناك بين ضيوف أمّه وأبيه، تحيطه نظرات الإعجاب من كلّ صوب، وأغلب العيون التي رآته صلّى أصحابها على النبي محمد، وعيون أخرى لم تذكر الله ولم تصلّ على نبيّه، وقد انشغلت عويذة في ذلك اليوم فلم ترقّه رقية كاملة، ولم تقرأ المَعَوّذات عليه، واكتفت بوضع نقطة الباطل بين عينيه، وذكر اسم الله عليه قبل وصولهم.

في المساء بدأ ناصر في البكاء، ولاحظت خديجة أنّه يفرك عينيه، حاولت إسكاته وإلهاءه، لكنّه لم يكفّ عن الصياح، وظلّ واضعاً يده على عينيه، وحينما قرّبت السراج من وجهه كانت عيناه حمراوين وتذرّفان الدموع، «لعلّ رمشاً أو ذرّة تراب قد دخلت فيها» قالت في نفسها، لكنها لم تر شيئاً. تناولته عويذة من يدي خديجة واحتضنته، وقرأت عليه ما

تحفظ من سور القرآن، أخذه صالح بين يديه وصعد به إلى السطح ونزل به إلى أسفل محاولاً تهدئته وإسكاته، لكن الصغير لم يسكت، لم يهدأ ناصر في تلك الليلة ولم ينم، ولم ينم كلٌّ من في البيت معه، وعيناه تذرفان الدمع بلا توقف. كان يتألم ألماً واضحاً ويبكي دون أن يجيد الشكوى ودون أن يعرفوا ما الذي أصابه تماماً، خلعت عنه عويذة ملابسه فقد تكون نملة دخلت داخل ثيابه وقرصته، أو أصابه لدغ من عقرب أو ثعبان أو حتى دبّور، لكنها لم تجد شيئاً، تحسّست عظامه لعلّ كسراً أصابها، لكنها لا تذكر أنّه سقط ولم يكن يتألم من ضغط يدها على جسده، بل كان يضع يديه على عينيه ويبكي.

استمرت الحال بالطفل وهو يبكي دون توقف، دهّنت جسده بالزيت، بخّرتّه بمسحوق جمعته بنفسها من قشور البصل والثوم والحبة السوداء والملح، وقرأت عليه ما تحفظ من سور القرآن، لكنّه ظلّ يبكي؛ وعلى ضوء القنديل رأت عويذة أنّ عينيه تزدادان احمراراً حتى أصبحتا كقطعة من الدم المتخثر، فأرجع صالح ذلك إلى كثرة البكاء والدموع.



حينما أطلّ الصباح، كانت عيناه منتفختين تحيطهما بقع زرقاء وسوداء وكأنّ يداً ضربته على عينيه الاثنتين، نام قليلاً بعد صلاة الفجر، ولكنه سرعان ما استيقظ مفزوعاً قبل أن تذهب عويذة إلى الضاحية لجزّ البرسيم للأغنام. لم يستطع ناصر فتح عينيه، فقد كانتا مغلقتين بمادة

شمعية صفراء. غسلت له خديجة وجهه، ومسحت عينيه بالماء، وعملت جاهدة لفتح عينيه حتى ترى ما أصابهما، فرأت بياض عينيه قد تلون بلون الدم، عصبت له عينيه بقطعة قماش ثم قطرت فيها قطرات من دواء كانت تحتفظ به في مندوسها، لكن عينيه ظلتا حمراوين وتذرفان دموعاً بغير انقطاع، أخذته إلى جارتهم مبيوعة زوجة مرهون التي ولدت حديثاً بولد ذكر، كي تُقَطَّر له فيهما، لعلّ في حليبها دواء، قَطَّرت مبيوعة عليهما وأخبرت خديجة أن تحضره كلّ صباح ومساء لعلّه يشفى ويزول عنه الأذى، بعد أيام توقفت العين عن ذرف دموعها، وهذا صياحه وصراخه، لكنه لم يستطع فتح عينيه إلا بما يشبه شقاً صغيراً في جدار، ومن ذلك الشق الصغير كانت خديجة ترى العين من الداخل كجمرة ملتهبة أو قطعة دم متخثرة من احمرارها، لم يستطع ناصر أن يفتح عينيه، فاحتار صالح، وملاً قلب خديجة الهم، ودعت عويذة ربّها أن يرفع الضرّ عن حفيدها، ودعت على الجنيّة ميمونة التي قد تكون سبباً فيما أصاب حفيدها، فما من أذى يصيب أحفادها إلّا وميمونة سبب فيه، نذرت عويذة نذورها، وبخّرت البيت، وحرقت النذور والطلاسم، وعند شروق الشمس ذبحت دجاجة، وأهدت ساكنة المكان أمعاء الدجاجة ورأسها، وأهدتها في اليوم الثاني عند غروب الشمس بيضة بأن كسرتها على عتبة باب الغرفة العلوية. وحينما رأت عويذة أن كلّ ما فعلته لم يجد نفعاً، أرسلت حمدان إلى المعلّم خلفان ليقراً عليه ويمسح على رأسه وعينيه، فأتى المعلّم خلفان

بعد صلاة العصر، وطلب من عويذة مبخرة عليها قليل من الجمر، فوضع على الجمر فصًا من الصمغ وفصًا من اللبان، أدار المبخرة فوق رأس الصغير، لكنَّ عينيَّ ناصر ذرفتَا دمعًا غزيرًا، بل زادت حالتهما سوءًا. ذهب صالح إلى الجبل لعله يجد عند إخوة خديجة دواءً لناصر، فأعطاه كلَّ منهم دواءً وزيتًا من أشجار قمم الجبل حسب خبرتهم ومعرفتهم، لكنَّ عينيَّ ناصر ظلَّتا كما هما، وظلَّ الصغير لا يبارح مكانه إلا بمقدار البصيص الذي يرى به الدرب.

نظرت عويذة إلى عينيَّ ناصر اللتين كانت كلَّما نظرت إليهما تَفَلَّت عن يمينها وعن شمالها، وذكرت الله وصلت على نبيِّه محمد، وقالت: ما شاء الله من جمالهما وصفاء لونهما العسلي، فأصابها الجزع والهلع وهي ترى النور في عينيه ينطفئ يومًا بعد يوم؛ وقد لاحظت أنَّ حركة الطفل قلَّت في البيت، فكان يبقى ساكنًا حيث تضعه أمه، أرجعت عويذة حالته إلى أن عينًا حاسدة أصابته، ففكرت في كلِّ من رآه ذلك اليوم، ولم تستطع تحديد أيِّ عين قد أصابت عيني حفيدها، لكنَّ المعلِّم خلفان، وبعد حساب وتفكَّر وتأمل، عاد إلى عويذة وقال إن ناصر به مسَّ من جان، فقد صفعته جنية على عينيه، لأنَّه داس على قدم ابنها وهو يركض في تلك الليلة، ولن يشفى حتى ترضى تلك الجنيَّة، مضيِّفًا بنبرة الإنسان المتدين: إن الشفاء بإذن الله.

حارت خديجة في أمرها، وما عادت تدري أتصدِّق المعلِّم خلفان أم تصدق ما قالته جاراتها من أقوال متضاربة؟ فكلَّ واحد منهم يقول شيئًا

ويصف له دواءً، لكنّ عويذة رأت أنّ ما قاله المعلّم خلفان أقرب إلى الصدق، فأهدت ساكنة المكان هدايا أخرى لعلّها تعيد لناصر نور عينيه، ودفنت هذه المرة خاتماً فضياً عند باب الغرفة العلوية، وترجّت شريكها الجنيّة إن كانت هي سبباً فيما أصاب حفيدها أن تسامحه إذا كان قد تسبب في إيذاء أحدٍ من أولادها بلا قصد منه، وناجتها مناجاة المتوسّل المتضرر أن تتركهم في شأنهم ولا تؤذيهم.

ورغم كلّ ما فعلته عويذة وما قدمت من نذور وهدايا وصدقات، وما علّقت في صدر ناصر من طلاسّم وحروز، وما سقته من ماء المحو المقروء عليه آيات من القرآن، وماء زمزم، ظل ناصر على نفس حاله، فقد سرقت الجنيّة ساكنة المكان نور عينيه، ولم يتبقّ أمام عويذة بعد أن أعيّتها السبل والتجارب إلّا أن تذهب إلى العجوز صبيحة لعلّها تجد عندها دواء ناجعاً لعيني ناصر، أنصتت صبيحة لحديث عويذة وصمتت قليلاً ثم قالت:

- يعلم الله أنّ عينه فيها رمد.

أعطت عويذة قارورةً فيها كحل خاص لتضعه في عيني ناصر؛ وهو علاج كانت صبيحة تصنعه بنفسها، وقدّمت لها حرزاً كي تربطه بخصلة من شعره، وتعلقه له بين عينيه، وأوصتها أن تحرص على تنظيف العين ولا تهملها.

رفضت خديجة في البداية أن تضع كحل صبيحة على عيني ابنها قائلة:

- ولو صبيحة عندها طبّ كانت عالجت نفسها.
- يا بنتي استغفري ربك، كحل صبيحة معروف وموصوف، وما هي فيه قدر من ربّ العالمين.

حرصت عويذة على وضع الكحل على عيني ناصر ومسحهما بقطعة قماش مبللة وكذلك كانت تفعل خديجة لعلّ ذلك يأتي بفائدة، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً، ويوماً بعد يوم كانت العتمة تحتلّ قطرة العسل في عيني ناصر في مقلته الواسعة، وحينما فتح عينيه ذات يوم كان بريقهما قد خبا، واشتكى الظلمة وسأل عن نور الشمس وهم في منتصف النهار، فعرفت عويذة أنّ نور عينيه قد ذهب، وأنّ ناصر أصابه العمى، وأنّ الرجل الذي كانت تبني عليه آمالها وتسمّيه الشيخ ناصر سيحيا سجيناً في العتمة. أصاب الحزن قلبها كما أصاب قلب خديجة، وانزوت في غرفتها وبكت، ثم خرجت ورجمت ميمونة الساكنة في الغرفة العلوية بالحجارة، ودعت عليها بما أتى على لسانها من أدعية وهي في قمة غضبها.

بكت خديجة ذهاب نور عيني ناصر، واحتسبت أمرها وأمر ابنها لله رب العالمين، وبشّته شكواها وحزنها، وقد تذكّرت الرجل الأعشى الذي رآته في الحلم حينما حملت بناصر، وقالت لعويذة وهي تحتضن ابنها بألم:

- هذا قدر يا عمتي، وما من القدر مفّر.

(19)

- تسمع مني، جهزوا أنفسكم الحرب في الطريق.
- قال خلف للرجال الجالسين في دكوك الحارة، نظر إليه سيف:
- بشرنا بشارة خير يا رجال.
- جلس صالح مستمعًا منتظرًا ما يقوله خلف الذي بدأ يخبرهم بما تنهى إلى سمعه من أن السلطان طالب بتوحيد البلاد تحت راية واحدة، وأن يكتفي الإمام بمنصبه الديني لا أكثر، لكن الإمام، وفقًا للمعاهدة القديمة والمعروفة للجميع رفض التنازل أو التنحي عن منصبه السياسي، وقد كانت المعاهدة تنص على أن للإمام المناطق الداخلية وللسلطان المناطق الساحلية، ولا يحق لأحدهما أن يتدخل في شؤون الآخر، أو يتجاوز الحدود الجغرافية وحدود الاتفاق المبرم بينهما بأي شكل كان، وأن مصلحة البلاد تسير وفق بنود تلك المعاهدة.
- نظر سيف إلى صالح مستنكرًا، ومنتظرًا منه أن يقول شيئًا. عدل صالح من هيئة جلوسه وقال:
- لكن السلطان قال إن الإمامة انتهت بموت الإمام السابق، وأنه يريد أن يخرج بالبلاد من التفرقة والانقسام، وأن تسير بلادنا كما سارت عليه باقي الدول مثل مصر وغيرها، حاكم واحد يحكمها.
- وأنت مو رأيك يا صالح؟ قال مرهون.

- يا أخي ما حدّ يريد الحرب.
- لكن يقال: البلاد فيها خير ورزق، والأرض تخفي كنوز وبترو لـ
خرجوها أتصبح بلادنا من أغنى البلدان في المنطقة، وأنخرج من
حالة الفقر والضيق بو نحن فيها.
- تسمع مني، إنزين وهين المشكلة، خيرنا وحالنا؟
- يا خلف هنا المشكلة، لأنّ هذا الخير والرزق موجود في المناطق
الواقعة تحت بيرق الإمام وسيطرته ونفوذه، وطبعاً الإمام ما
أيسمح للإنجليز يدخلوا البلاد.
- هذا الكلام ما يأكل عيش يا صالح، وحدي شايف إذا يجي منهم
خير ما يمنع يساعدونا نطلع هذا البترول، ونترزق بيستين. قال
مرهون.
- تسمع مني، مو قلت؟
- ردّ عليه خلف بغضب:
- ما قلت شيء، الله يكفش يا لسان.
- يا جماعة عيّنوا خير، ترى القرار ما قرار مرهون ولا خلف، القرار
قرار العودين. قال سيف.
- تريدوا الصديق وحسب ما سمعت أنّ السلطان وحده ما يريد
الحرب، وشيخ الشراقي يقول: السلطان قال لهم: «ما تحوجونا

للأجانب»، لما استضافهم في قصره، ووعدهم خير وأعطاهم هدايا ومبالغ.

- وأنت مو عطوك يا صالح؟ قال مرهون.
- ما عطوني شيء يا مرهون، ولا كنت حاضر معهم، لكن ترى بعض القبائل انضمت إلى السلطان وتخلّت عن الإمام وبيرقه.
- ناس تدور مصلحتها.
- ولكن يا مرهون بعض القبائل بعدها موالية للإمام، ونحن منهم ومعهم.
- وحدنا شفنا الإمام وعرفناه بس ما شفنا السلطان، شفنا هاذولا أولاد الحمرا بو سراويل، الله لا جابهم ولا ردّهم. قال سليمان.
- ضحك الرجال، وأكملوا حديثهم ونقاشهم ثم ذهب كلّ واحد منهم إلى بيته وفي نفوسهم قلق خفي من الحرب التي هي على وشك أن تشتعل.



بدأ أهل الحارة يستعدّون للحرب، منهم من يخزن المؤونة، ومنهم من يتفقّد الأسلحة ويحضّرهما، عقدوا اجتماعات سرّية فيما بينهم، وذهب بعض منهم إلى الجبل، وهناك التقوا بالإمام والمشايخ. والتحق صالح بالشوّار المناصرين للإمام.

وما هي إلا أيام حتى حلقت الطائرات فوق قمم النخيل وأسطح المنازل في حارة الوادي، فأرعبت قلوب الأهالي المسالمين وقصّت مضاجعهم الآمنة، وحين رأت عويذة وخديجة الطائرات لم يكن صالح موجودًا، فهو قد التحق بالثوار مع من التحق من شباب الحارة وما جاورها، ثم أصبح أحد قادة الفصائل التي انتظمت تحت إشراف الإمام المباشر، وبدأ يغيب عن البيت لأيام طويلة وفق ظروف الحرب واستعداداتهم لها.

انتشرت الأقاويل أنّ الحرب قد بدأت بين جيش السلطان وجيش الإمام، ولن تتوقف حتى ينتصر أحدهما على الآخر. انطلقت الرصاصات الأولى فغضب السلطان، وقرّر أن يتحرّك نحوهم بجيشه مستعينًا بقوات أجنبية أفرادها حُمِر الوجوه وصُفرها، جيش خليط من ملامح غريبة وألسنة أكثر غرابة، وذلك ما أثار حفيظة أهالي البلاد مرة أخرى، فأعلنوا رفضهم الحازم لوجود أجنبي على أرض بلادهم، وقالوا: إنهم لن يحاربوا السلطان بل سيحاربون النصارى الذين أتى بهم.

ومع استمرار المناوشات بدأت المفاوضات بين الطرفين، ولم يصلوا إلى اتفاق يرضيهم، واستمرت المفاوضات أيامًا وأشهرًا، ولكن الأمور بقيت معلقة والمناوشات مستمرة رغم كلّ محاولات الصلح بين الطرفين تجنبًا للخسائر في الأرواح والأموال؛ وكان فتيل الحرب يشتعل والنار تحرق كلّ من يقف في طريقها.

تحركت جيوش السلطان وانقسمت القبائل بين مؤيد ومعارض، إلّا أهالي حارة الوادي وأهلهم في الجبل الأشم الذين أعدّوا عدّتهم، فجندوا أنفسهم صغارهم وكبارهم، نساءهم ورجالهم، ليكونوا جيش الإمام وجنّده، فناصروا الإمام وانضمّوا تحت لوائه رافعين البيرق الأبيض.

انضمت إليهم بعض القبائل من البلدان المجاورة، فشكّلوا جماعات صغيرة بنظام حرب العصابات، وحسب ما أوحى لهم خبرتهم وتجاربهم البسيطة في الحروب، واعتمادًا على معرفتهم بمدخل البلاد ومخارجها وثغورها وكهوفها دون أن يتنظموا في جيش واحد، كما هو الأمر مع السلطان وجنوده.

اشتعلت نار الحرب، واستمر القتال في حرب غير منظّمة، وكان جيش السلطان ومن معه هو الغالب في أكثر المعارك لما يملكه من أسلحة حديثة وطائرات ومدافع لا يملكها ثوار الجبل وحارة الوادي، بل كانت أسلحة يرونها للمرة الأولى في حياتهم.

تحصّن الثوار في الثغور والكهوف والقلاع والحصون التي لا يعرفها الأجنبي الغريب ولا يستطيع الوصول إليها، انتصر جند الإمام في بعض الحروب والمناوشات، وسقط قتلى من كلا الطرفين، فلم يكن أتباع الإمام أقل بأسًا وقوّة من الجيش الآخر بما فيه من خليط أجناس مختلفة، وخصوصًا أنّهم أبناء المنطقة التي يعرفونها كما لا يعرفها الطرف الآخر، إذ جعلوا من الجبل الأشم حصنًا منيعًا لهم وملجأ آمنًا وملاذًا، فعرف

الجيش أنّ البيرق لن يسقط وأنّ جيش الإمام لن ينهزم إلاّ بسقوط الجبل، لكنّ الجبل لن يسقط وحارة الوادي ظلّت كأسد رابض تحته، تحرسه كما تحرس الأم أبناءها. كثّف الجيش حملاته وهجماته على حارة الوادي، وازداد عدد الطائرات المحلّقة فوق أسطح المنازل. قُتل أحد الرعاة، وأسقطت الطائرات أوراقًا تناثرت على الأرض، ولم يقرأ أحد ما كُتب عليها.

زرع صالح لغمه الأول في طريقه نحو الجبل، وتبعه رفاقه بزرع ألغامٍ أخرى، أصابت من أصابت، وكانت سببًا لخسارة أرواح من الطرفين، ولكنّها ساعدت على عدم تقدّم الجيش وزحفه إلى حارة الوادي، ومنعت وصوله إلى الجبل، لكنّ ما لم يعرفه صالح ورفاقه أنّ الجيش كان له خطط أخرى، وأنّ ما سيحدث لم يحسبوا له حسابًا ولم يتوقعوه.

(20)

في صباح أحد الأيام، وبعد أن اشتدت وطأة الحرب؛ وبينما كانت نَفَافَة ذات الخمسة أعوام تجلس بالقرب من النافذة وناصر يجلس بجانبها، رأت رجالاً يرتدون سراويل قصيرة وقمصاناً بُنِيَّة اللون، ويضعون قُبَّعات يغطّون بها رؤوسهم، رأتهم يأتون من مدخل الحارة وهم يحملون بنادقهم في أعداد كبيرة، ويسيرون في الدرب الذي يتوسط الحارة بين البيوت، فتن المنظر الذي لم تره الصغيرة ذات الخمسة أعوام من قبل، فأعجبت نفاة بتلك الملابس الغريبة، وظنّت أنّ في الأمر لعبة جديدة سيلعبها الرجال أو رزفة سيرزفونها كما يفعل رجال الحارة في أيام الأعياد. كان مدخل الحارة في تلك اللحظة فارغاً إلا من رجلين جالسين في دُكّ بمدخل الحارة في ذلك الوقت المبكر من النهار، ولم تكن الأغنام قد أُخْرِجَت من زرائبها إلى المرعى. رأت نَفَافَة أنّ الرجلين وقفا حينما رأيا الجنود يدخلون، فلم يلتفت الجنود إليهما ولم يتحدثوا معهما، بصق أحد العساكر في الفلج وهو يلحق برفاقه، لاحظت الصغيرة أنّهم لم يتجاوزوا الدرب بعد بيوتهم، لقد اختفى العسكر لمجرد تجاوزهم مدخل الحارة، ولم تعد باستطاعتها رؤيتهم، ينتابها الفضول لمعرفة أين اختفوا، تركض إلى أمها لتخبرها بما شاهدت.

وقبل أن تكمل نَفَافَةَ حكايتها لأُمّها وبينما كانت خديجة تمسك بمكنستها لتبدأ بكنس البيت، دخل مجموعة من عساكر الجيش مندفعين كاللصوص دون استئذان، وكانت عويذة قد خرجت إلى الضاحية، ولم يكن صالح موجودًا، وكذلك حمدان الذي خرج منذ الفجر لسقي النخيل. تفاجأت خديجة بذلك الجمع الغفير من العساكر الذين يقتحمون البيت، وركضت الصغيرة لمشاهدة ذلك المشهد الغريب وتلك الوجوه الغريبة، التصقت بأُمّها في رهبة وخوف وفضول، تزايدت أعدادهم لدرجة أنّ المشهد لم يعد جميلًا في عينيها بل مرعبًا وهي تراهم أمامها ممسكين بنادقهم، أمسكت بساق أُمّها التي سقطت المكنسة السعفية من يدها وقد أصابها الفزع وهي تراهم مقتحمين البيت، توارت الصغيرة خلف أُمّها خوفًا وظلّت ملتصقة بها، يعلو صدرها ويهبط من الخوف، كانت تحاول أن تراهم لكنّها لا تستطيع رفع عينيها إليهم، فمستوى رؤيتها لهم لا يتجاوز سيقانهم الطويلة وأقدامهم التي كانت مخبأة في أحذية جلدية مغلقة لم تكن قد رأت مثلها من قبل. أخذوا يتحركون في البيت ويتشرون فيه، يتحدثون لغة غريبة لا تفهمها، بعضهم ينزل إلى الأسفل، وبعضهم يصعد إلى الأعلى، وبعضهم يقف حيث كان، وكأن البيت بيتهم وليس للبيت ربّ أو أسرة تسكنه، ألجم الموقف المباغت لسان خديجة لأوّل وهلة وأربكها، لكنّها استجمعت شجاعتها فرفعت مكنستها في وجوههم، وقالت لهم:

- خير إن شاء الله، موه هناك؟! داخلين علينا بلا خجل ولا استئذان،
ما تعرفوا أنّ البيوت لها أبواب وحُرمة؟!
 - نظر العساكر بعضهم إلى بعض وكأنهم يبحثون عن شخص يردّ على سؤال المرأة الذي لم يفهموا منه شيئاً.
 - تقدم أحدهم وردّ عليها بلغة عربية:
- أختي نحن لا نريد منك شيئاً، نحن نبحت عن صاحب البيت،
عندنا أوامر بالهدم.
- أي هدم، موه تعني بالهدم؟
- هدم البيت.
- نظرت إليه خديجة باستغراب وفزع ووضعت يدها على رأسها ويدها
الأخرى تمسك بالمكنسة السعفية وتلوح بها على وجهه:
 - موه قلت، تهدم البيت؟!
 - كما سمعت، ولكن أين صاحب البيت؟
 - ومن أنت، وموه تريدوا من البيت وصاحب البيت؟
 - نحن الجيش.
 - أعرف أنّكم الجيش، ولكن موه فعل لكم البيت حتى تهدموه؟
 - البيت لم يفعل لنا شيئاً، لكنّ صاحب البيت مطلوب، فإذا كنتِ
تعرفين أين هو فمن الأفضل لك أن تخبرينا عن مكان وجوده.
 - صاحب البيت ما موجود، وما أعرف هين راح.

نظر إليها الرجل ولم يعلّق بشيء، ثم نظر إلى أنحاء البيت وتحرك صوب العساكر المنتشرين ببنادقهم في كلّ مكان.

وبينما كان الرجل يتحدث إلى خديجة، أخذ عناصر الجيش المختلط بأشكال وألوان مختلفة بين أحمر وأسود وحنطي يتوزعون وينتشرون، بل يتكاثرون بعد أن التحقت بهم أعداد أخرى. فكّرت خديجة بما يمكن أن يفعله هؤلاء وهي وحيدة مع أطفالها. تسارعت نبضات قلبها وهي لا تريد أن تظهر خوفها، فكانت تحاول إظهار شجاعة غير موجودة في قلبها تلك اللحظة. التفتت إلى نَفَافَة وأمرتها أن تذهب إلى الغرفة وتجلس مع أخيها، كان ناصر ما زال جالسًا في نفس المكان حيث أجلسته نَفَافَة بالقرب من النافذة، فمِنذ أن أصيب بالعمى أصبح طفلًا هادئًا وصَموتًا، وكأنّ العمى سرق منه طفولته ولهوّه وعبثّه وصوته، فلم يعد يتحدث كثيرًا ولا يشاغب ولا يتحرك من المكان الذي تضعه أمّه فيه، وما عاد يتعبها بالركض خلف الدجاجات، ولا يدخل قنّها ليكسر بيضها، ولا يضغط على صيصانها بقبضته ويقتلها، فالطفل الأعمى لا يشبه الطفل الشقي الذي كانت تتذمر منه ومن شقاوته، وكأنّ العتمة ابتلعت لسانه، ففي الأيام الأولى كان يمدّ يده الصغيرة إلى وجوههم ويتلمس ملامحهم التي كان يحفظها ويعرفها، ومع الوقت بدأ يميزهم من أصواتهم وروائحهم، ثم بدأ يعرفهم من وقع أقدامهم على الأرض. احتاج الأمر منه وقتًا حتى اعتاد على العتمة، وكان في البداية كثير البكاء، وكثير الأسئلة عن هذا الليل

الذي لا يطلع له نهار، يسألهم عن الشمس التي لا تشرق أبداً، وعن زينة السماء التي غابت من نجوم وقمر، ولكن شيئاً فشيئاً خبا السؤال مع انطفاء نور عينيه، وزادت ساعات صمته، ولم يعد يسأل أو يكي، بل سلم نفسه للظلام وبدأ يعتاد حياته الجديدة المعتمدة، متخيلاً ما يقال له من كلمات، أصبح هادئاً إلى درجة أنهم قد لا يشعرون بوجوده لولا حبهم الشديد له وعنايتهم التي زادت بعد أن أصيب بالعمى، فما كان يتحدث إلّا إذا بادروا بالحديث معه، ولكنّ خديجة لاحظت أنّه مع ذهاب بصره، أصبح سمعه قوياً، حتى إنّ يستطيع سماع دبيب النمل في الأرض، وبدأ يعرف ويفرّق بين أنواع الطيور والحشرات من حركتها ورفرفة أجنحتها، ويعرف البشر من وقع أقدامهم على الأرض وأصواتهم، ويميّز بين القطط الأسود منها والأبيض والصغير والكبير من موائلها.

حينما دخلت نَفَاقَةَ الغرفة وجدت ناصراً جالساً بالقرب من النافذة متمسكاً بقضبانها، ينظر إلى الفراغ المعتم خلف النافذة، فالتفت إليها فور دخولها، فأسرعت إليه وهي تكاد تتعثّر في طرف ثوبها، وهمست في أذنه أنّه يوجد رجال كثر في بيتهم، فلم يعلّق بشيء، بل رمش بعينه في إغماضة قصيرة، وضم شفثيه وأشاح بوجهه للجهة الأخرى، دخلت خديجة لتطمئن على طفليها وهي ما زالت تحمل المكنسة في يدها، ودخل أحد الجنود خلفها، فوقفت خديجة له أمام الباب وهي تقاوم الخوف الذي

تلبّسها على أولادها ونفسها من هؤلاء الجنود الأغراب، قالت له وهي ترفع المكنسة أمام وجهه:

- هنا أطفال، عندك البيت كله.. فتّشه. هذي الغرفة ما أحد فيها غير أولادنا وثيابنا، فاقلب وجهك عنّا.

تراجع الجندي الذي لم يفهم كلامها، لكنّه فهم من حركة المكنسة أنّها غاضبة، وأتى الرجل الذي كان قد تحدّث معها في البداية وقال لها:

- يا أختي مطلوب منهم تفتيش البيت بأكمله، هذه أوامر، ولو تكرمتٍ اخرجي مع أولادك واتركيهم يتابعون عملهم، لن تتعرضوا للأذى، هذا وعد مني.

- البيت عنده واسع، ليش يتبعني أنا؟ عيب عليكم تتبعوا حرمة إلى غرفتها، فوالله لو واحد منكم دنا مني قتلته.

- لا تخافي يا أختي، لن يؤذوك بشيء، أضمن لك الأمان.

خرج الرجل وذهب إلى الجيش متحدّثاً معهم بنفس لغتهم، ولم تفهم خديجة ما قاله لهم، فخرجت تمسك ابنتها من يدها وتحمل ابنها في صدرها، وهي لا تدري ما تفعل في هذه اللحظة.

حين خرجت رأتهم قد تفرّقوا في البيت وبقي عدد بسيط منهم حيث تركتهم، انتزعوا السلاح المعلّق في الجدار، وهو إرث من جدّ صالح لأبيه ومن أبيه له، فتّشوا الملابس المعلقة في الغدان، أسقطوها على الأرض. أخبرتهم حينما أخرجوا البندقية التي ستكون إرثاً لابنها بعد أبيه، أنّ هذه

البندقية إرث ولا تُستخدَم في قتل أحد، لكنّ الرجل أشار لها بيده أن تسكت، والتفت إليها وكأنّه لم يسمع ما قالتها وسألها:

- أختي ما هذا الذي تخبئونه في بيتكم؟

ردت خديجة وهي تغالب ابتسامة مع خوف متسائلة عن هذا السؤال

الغبيّ، فكيف لا يعرف أنّ الذي بيده سلاح؟!

- هذا سلاح.

- آهه، هذا سلاح نعم، وماذا تريدون بالسلاح؟

تساءلت خديجة إذا كان السؤال غبيّاً أم الرجل، فقلّبت طرفها بين

الرجل والسلاح الذي في يده:

- واعجبي، وهل هناك بيت في حارة الوادي لا يزيّن جداره تفق،

وهل هناك رجل لا يملك سلاح؟!

سكت الرجل إذ وجد أنّ حديثه لن يأتي بنتيجة معها، وأنّها ليست من

يريد أن يستجوبها، فهم يبحثون عن صالح، وصالح ليس هنا، ولكن كما

يبدو أن زوجته ليست أقلّ بأساً منه. خرج بعضهم ونزلوا من تلك

الدرجات الحجرية التي تسبق الباب «العامد» في البيت، لكنهم لم يتعدوا

كثيراً، لأنّ أصوات أقدامهم انقطعت بعد نزولهم، فخمّنت أنّهم واقفون

هناك مطوقين البيت ومحاصرين له، ربما ينتظرون عودة صالح أو حتى

يقومون بعملية الهدم كما قالوا.

اقترب الرجل من خديجة حتى أصبحت المسافة بينها وبينه أقرب من قبل، لكنها أشارت له بالمكنسة التي كانت في يدها وهي تمسك بطفليها،
بألا يقترب أكثر فقال لها:

- أختي أنا ما أتيت لأذيتك، ولا اقتربت لفعل سوء، ولكني أريد سؤالك عن صالح ربّ هذا البيت، أين هو الآن؟ فلو تخبريني بالحقيقة، ربما أستطيع التوسط معهم بإيقاف الهدم مقابل القبض عليه، صدّقيني أنا هديني مصلحتكم ومساعدتكم.
- قلت لك وسمعتني، أنا ما أعرف شيء، وصالح رجال ولي نفسه، وما يخبر أحد هين رايع ولا متى يرجع.
- أختي أنا أحذّثك لمصلحتكم.
- مصلحتنا نحن أعرف بها منك ومن غيرك.

كرّر الرجل عليها أسئلة كثيرة، متى خرج زوجك من البيت؟ من هم رفاقه؟ هل رأيت أسلحة قام بإدخالها إلى البيت؟ متى طلع زوجك الجبل؟ هل هناك من يزورك؟ هل أتى الإمام هنا؟ هل دخل بيتكم...؟
كانت الأسئلة تنهال على مسمعها، وكان يحاول الخروج ولو بإجابة واحدة، لكنها لم تكن تجيبه إلا بكلمة واحدة: لا أعرف. وحين لم يحصل الرجل منها على الإجابات التي كان يبحث عنها، قال لها وبفسس
النبرة الهادئة التي يتحدث معها بها:

- أختي أنتِ لا تريدين التعاون معنا، والجماعة لا يريدون ضياع وقتهم، لديهم أوامر بالهدم، سنمنحكم وقتاً حتى تخرجوا ما تريدون إخراجهم من بيتكم، لا نستطيع الانتظار أكثر.

وجدت خديجة نفسها محاصرة بأسئلة الرجل وطلباته والجيش الذي يطوق البيت، دارت بها الدنيا وهي لا تدري بمن تستنجد، رفعت يديها إلى السماء ودعت ربها أن يحفظها وأبناءها منهم ومن شرهم، وأن يسلم البيت من الهدم، في تلك اللحظة سمعت ضجّة بالقرب من الباب.

(21)

عرفت خديجة أنّ عويذة قد وصلت ومعها حمدان، وممّا سمعت فهمت أنّهما يحاولان الدخول وما كانوا يسمحون لهما، فصرخت فيهم من الداخل:

- تركوهم يدخلوا، ها ذلّا هم أصحاب البيت.

تحرك الرجل نحو الجُند وتحدّث معهم فسمحوا لهما بالدخول، دخلت عويذة مسرعة لاهثة متجّهة صوب خديجة والأطفال تريد أن تتأكد مما قاله لها حمود بن سيف الذي أتاها راكضًا يلهث فأخبرها، وكان حمدان قد عرف أيضًا، فالتقيا بالطريق، سألتهم عويذة في غضب:

- موه تريدوا، وليش تهدموا البيت؟

- الوالدة لقد تحدّثت في الموضوع، ولا أرغب في زيادة الحديث، اجمعوا ملابسكم وما تودّون إخراجهم حتى لا يُهدم البيت على من فيه.

كانت لغة الرجل مستفزّة لعويذة، تكاد لا تصدّق ما يقوله لها، فكيف يهدمون بيتًا وضعت فيه كلّ أحلامها وآمالها، البيت الذي تراه يكبر بأبناء صالح وعدد الغرف التي تُبنى جيلاً بعد جيل، تستعيد ذكرياتها في البيت العود الذي عاشت فيه مع زوجها، وقضت فيه أجمل أيام حياتها، التفتت إلى الرجل:

- البيت ورث أجدادنا، ما لكم حق تدموه، ترى هذا البيت من حجر وطن، أعوذ بالله من شرِّكم، تتضاربوا حتى مع الحجر والشجر؟!
 - الوالدة هذي أوامر. ردّ عليها بصوت ذي نبرة هادئة.
- لم يدخل الرجل في حوار طويل مع عويذة وكأنّه يريد أن ينتهي بسرعة من مهمته المكلف بها، اتجه ليتحدث مع الرجل العسكري الأحمر الطويل الذي يقف بجانبه، فبدا قصيراً أمامه، كأنّه طفل يحدث والده، هكذا تهيأ لعويذة التي دخلت إلى غرفتها وهي في حالة ذهول مما يحدث، فلا تدري ما تفعل وقد سقطت من يدها كلّ حيل المقاومة، تذكّرت أن بندقية ناصر التي أحضروها بعد موته ما زالت موجودة معها مخبأة تحت كومة الفراش في غرفتها، تحسست موضعها، أخرجتها، حمدت الله أنّهم لم يروها، لقد أعمى الله أعينهم عنها، قالت في سرّها، لمستها ورفعتها في يدها وخرجت في غضب شاهرة سلاحها في وجوههم وهي لا تدري ما هي فاعلة بتلك البندقية في تلك اللحظة.
- في ذات الوقت دخلت خديجة غرفتها، فهالها الذي وجدته من أدوات زينتها المنتشرة وملابسها المرمية على الأرض، فقد فتحوا علبة الياس وعلبة المحلب والزعفران، أسقطوا جرة مخلّط الزيت والورس، نشروا وبعثروا كلّ شيء حتى ملابسها بلا خجل أو تقدير لحرمة أهل البيوت وخصوصية نسائه، فبدأت بجمع ملابسها وملابس زوجها وأطفالها، متألّمة باكية على الإهانة التي لحقت بها في غياب صالح.

وقبل أن تضع الملابس في القماش المبسوط على الأرض والذي كانت تنوي أن تستخدمه كصرة للملابس سمعت صوت عويذة وهي تهدر كشلال غاضب:

- البيت ما أيهدم، ولو كنتوا رجال ما تشجّعوا على الحريم، وبيتنا ما نخرج منه، هدموه على رؤوسنا لو فيكم قدرة.

خرجت خديجة مسرعة من داخل الغرفة وهي تعرف عويذة إذا غضبت، رأتها تمسك بالبندقية في يدها، وتصوّبها تجاههم، بينما هم يصوّبون سلاحهم نحوها أيضًا، وحمدان محتجّزٌ وسطهم قريبًا من الباب غير سامحين له بالتقدم، وقفت خلفها، ثم تشجّعت وتحركت بجانبها، وأشارت لثَقَافَة أن تجلس مع أخيها في الداخل ولا تخرج. غضب الرجل العسكري الأحمر الطويل وزمجر، وتحدّث بكلام لم تفهمه عويذة، لكنها خمّنت أنّه نادى على جنوده ليؤبّبهم على تقصيرهم وعدم انتباههم للسلاح المخبأ، عاد الجنود الذين نزلوا من قبل وانتشروا في المكان وبدؤوا بالتفتيش مرة أخرى، لكنّ عويذة لم ترتبك ولم يهتز رمش في عينها، ولم تتراجع ولم تترك البندقية من يدها، بل ألّقت البندقية رصاصة كانت في يدها الأخرى بسرعة ودقة وبمهارة أذهلت الضابط والعساكر الذين معه، صوّبت بندقيتها تجاههم وتهبّأت لأن تضغط الزناد وتطلق عليهم رصاصتها، أشهروا بنادقهم نحوها فلم تخفها حركتهم تلك، بل ظلت واقفة شاهرة سلاحها تجاههم، ارتبك جمعهم، تمللموا بين خوف

من تهوّرهما وبين إعجاب بتلك الشجاعة التي أظهرتها، تراجع أكثرهم إلى الخلف، صرخ فيهم كبيرهم الذي كان المترجم أو الوسيط يأتمر بأمره، وأمرهم بالعودة، فعادوا إلى حيث هو واقف مقابل عويذة، تحدّث الضابط مع الرجل الذي كان يترجم، ثم تحدّث المترجم مع عويذة وقال لها:

- الوالدة ليس هناك من داعٍ لأن تعرّضي نفسك وأسرتك للموت، لديهم أوامر من الحكومة بهدم البيت، والحكومة صاحبة قرار في هذا الشأن، أطلب منك تسليم السلاح الذي في يدك.

لكنّ عويذة ظلت على وقفعتها تلك، ممسكة بالسلاح وخديجة خلفها وقالت له:

- قلت لك وسمعتني، البيت ما يُهدم إلّا على جثثنا، وما نخرج منه. هزّ الرجل رأسه:

- يا الوالدة الموضوع ليس كما تقولين.

رفعت عويذة بنديقتها وصوّبتها عليه هذه المرة ويدها على الزناد، فتراجع الرجل في خوف حتى كاد أن يسقط على الأرض، أشهر الجند بنادقهم باتجاه عويذة، فجأة ركض حمدان من وسطهم واندفع الجيران خلفه داخلين إلى البيت وهم يحملون بنادقهم، ويصرخون بأن البيت سيُهدم على جثثهم أيضًا، فالبيت لا يُهدم وصاحب البيت غير موجود. ظلت عويذة بنفس وقفعتها بين أن تضغط على الزناد وبين أن تلزم الحذر،

تفاجأ الجُند والضابط والرجل المتحدث بالعربية الذي كان معهم بأنهم أصبحوا محاصرين بين رجال مسلحين من الخلف وعويذة توجه سلاحها عليهم من الأمام، ارتبك الجند وتحركوا يمنة ويسرة، لكن الضابط أمرهم بالهدوء والبقاء دون حركة، وأمرهم بإنزال بنادقهم، التفت الرجل المتحدث بالعربية إلى الخلف وهو رافع يديه متحدّثاً لعويذة:

- الوالدة نتفاهم ونسمع منكم وتسمعوا منا، اعطيني فرصة أنكلم.
لم ترد عليه عويذة إذ كانت في قمة غضبها، ثم خاطب الضابط والجند أن يهدؤوا. أنزلت عويذة سلاحها لترى ما سيفعل، التفت إلى الخلف فرأى رجال الحارة الذين أربكوا مخططة فتفاجأ بعددهم، وأخذ يبحث عن الكلمات التي سيخاطبهم بها، تحرّك إلى الخلف حتى ضمن له مكاناً وسط الجند، ثم قال بعد تردد وهو يدير بصره بين الضابط والجند والرجال وعويذة:

- يا إخواني! يا إخواني! هذه أوامر ولا نستطيع سوى التنفيذ.

ردّ عليه سيف بغضب:

- هذي أوامر لك أنت وأمثالك.

- نحن أعلم منكم بمصلحة البلاد، البلاد تمرّ بفترة عصيبة، تعبنا يا إخواني من الحروب، نحن نطمح إلى التغيير، ونريد الخير لكم ولأولادكم، وهؤلاء الذين ترونهم معنا والله ليسوا أعداء بل

أصدقاء، هم قادمون من بلادهم ليساعدونا على التغيير في البلد
وتوحيدها، وكلّ ما نرجوه تعاونكم.
ردّ عليه خلف:

- تسمع مني، كيف نتعاون معكم على هدم بيوتنا، أي صديق تقول
عنه، وأي خير؟ نحن ما طوينا فراش العزاء في موت الراعي بو
قتلتوه بدون ذنب.
- كان خطأ وليس مقصودًا.

ردّ سيف في غضب مندفعًا صوب الرجل لولا أنّ خلف أوقفه:
- ما كان خطأ، كانوا متعمدين قتله، رجال فقير يرعى الغنم، بأيّ
ذنب يُقتل؟ ويقول خير بعده.

- الخير الذي أتحدّث عنه، ذهب مضموم في باطن الأرض، كنوز
وبترول، وهؤلاء الذين لا يعجبوكم وتقولوا عنهم كفّار هم من
سيساعدوننا لاستخراج البترول، لنبيعه ونحصل على أموال كثيرة
من بيعه، ونصلح بها حال بلادنا، سنصبح أغنياء بعد استخراج
البترول، ألا تحلمون أن تتغير أحوالكم ويتعلّم أولادكم في مدارس
حديثّة؟

نظر إليهم وكأنّه ينتظر جوابًا له أو اتفاقًا على ما قاله، ولكن لم يردّ أحد
عليه، فأضاف:

- هذا لن يكون إلّا إذا سمحنا لهم بمساعدتنا، الخير بأيديهم،
صدّقوني.

ردّ عليه سليمان:

- اشرب مرق جندب انتّه، قال الخيرات.. ومن يسمعه يظن المورّق⁽¹⁾ مورقته أو شايف ليلة القدر، اقلب بوجهك من هنا، وما حدّ منا مصدقّك.

ضحك الرجال، لكن الرجل تجاهل تعليق سليمان وضحكهم وقال:
- أنا أخبرتكم وشرحت لكم، وما عليكم إلّا أن تسمحوا لنا بتنفيذ المهمة في هدم هذا البيت.

- وموه الفائدة من هدم هذا البيت، أخاف يكون تحته بئر بترول ونحن ما نعرف، تسمع مني ما تفعلونه لعبة ومضحكة. قال خلف ضاحكاً.

وبينما كان الرجل الوسيط المرافق للجيش يتحدّث مع رجال الحارة، وجد الرجال أنفسهم محاصرين بجيش من الجند، مصوّبين عليهم أسلحتهم، التفت الضابط يخاطبهم، وأمر أحدهم أن يراقب عويذة كيلا تطلق رصاصة من بندقيتها، تحدّث الرجل الوسيط بلهجة أمرّة حازمة هذه المرة:

- يا إخواني، ما زلت أرى فيكم رجالاً عقلاء، البيت محاصر وملغم بالديناميت، عليكم جميعاً بالتحرك من هنا والابتعاد، وإذا هناك ما تودون

(1) المورّق: شخصية وهمية من الجن، يقال حسب ما جاء في الخرافة أنه يأتي ويوقظ أحد النائمين ويدلّه على كنز مخبأ في مكان ما، فكان كلّ من أصابه شيء من الغنى والخير، يقال المورّق مورقته كما في اللهجة الدارجة.

قوله أو فعله فبعد أن يُهدم البيت، فلا وقت لدينا لإطالة حديث بلا فائدة. قُضي الأمر، وعليكم الآن أن تساعدوا أصحاب البيت لإخراج ما يودون إخراجهم، الوقت ليس في صالح الجميع.

أطلقت عويذة رصاصة في الهواء، ثارت نائرة الرجال مع عويذة، وهياً أحدهم سلاحه ليطلق رصاصة أخرى، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين والرجل يصرخ فيهم من بين الجند:

- لا تتهوروا وتصبح مجزرة، إذا أطلق أحد منكم رصاصة فالجيش يردّ عليه بعشر رصاصات، والطائرات فوق رؤوسكم، فإن قتلوكم فليسوا ملومين، فهم يدافعون عن أنفسهم.

نظر الرجال بعضُهم إلى بعض، ونظرت عويذة إلى الرجال المحاصرين، والعدد الكبير من الجند الشاهرين بنادقهم، والطائرات المحلّقة الهادرة فوق سطح البيت، أدركت أنّ المقاومة لا تفيد الآن، ابتسم الرجل المتحدّث بالعربية نصف ابتسامة، ومسح على لحيته ونظر إلى الضابط الذي بادله النظر والابتسام، وقال لهم:

- القائد يقول ما تستطيعون إخراجهم من البيت أخرجوه بسرعة، الآن سيتم الهدم، ومنكم العذر والسّموحة فأنا يا إخواني لست سوى عبد مأمور.

بصق سيف على الرجل وقال له:

- وأنت كما قلت عبد وتبقى عبد.

(22)

لم يجد الجيران بدءاً من الاستسلام أمام الحصار الذي أحيط بهم، تحدّث مرهون إلى عويذة وأقنعها بأن تسلّم السلاح الذي في يدها، فلا هي ولا هم يستطيعون الصمود أمام هذا الجيش والدّبّابات التي تحاصر البيت، أخبرها أنّ الموجودين في الخارج بمدافعهم ورشاشاتهم أكثر من الموجودين بالداخل، قاومت عويذة دمعة كانت على وشك أن تطفّر من عينيها وهي تسلّم بندقية زوجها المرحوم ناصر للرجل وهي تردد «حسبي الله ونعم الوكيل» وتدعو عليهم، تقدّم خلف وقال للرجل:

- احذر وأنت تمسك هذا التفق، تسمع مني هذا تفق رجل شجاع، فوالله لو كان على قيد الحياة ما لمست أنت تفقه، ولكنت أنت ومن معك تحت الأرض قبل أن تلمسها، ولكنّ الزمان تغيّر، وكما قال راعي المثل: «إذا ما طاعك الزمان طيعه».

نظر الرجل إلى البندقية وقلّبتها في يده، ثم سلّمها للضابط الإنجليزي، نزل الرجال إلى الأسفل ومعهم حمدان فأخرجوا الأبقار والمواشي من الزرائب، أخرج حمدان شوالات الحبوب وطحين البرّ وأجربة التمر من غرفة النضد، دخلت عويذة بسرعة إلى غرفتها والرجل يتبعها ويقول لها:

- الوالدة إذا يوجد سلاح مخبأ عليك تسليمه لنا.

نظرت إليه عويذة وقالت:

- البيت قدامك.

دخلت عويذة إلى غرفتها مرة أخرى لتجمع ملابسها، لاحق حمدان الدجاجات كي يمسك بها، لكنها طارت ناحية الفلج، سقط بعضها في الساقية وبدأت تقوقى، فجرفها ماء الفلج دون أن يلحق بها أحد، أما خديجة فكانت قد جمعت ملابسها وملابس زوجها وأولادها في صرة صغيرة، والرجل يدخل هنا وهناك يحثهم على الاستعجال للخروج وإخلاء البيت، ومع ذلك الاستعجال والارتباك الذي حدث، ظلت كثير من الأشياء مكانها، فكل شيء حدث بشكل مباغت، فلم يتم إنذارهم من قبل بأمر الهدم، ولم يمهلوهم وقتًا كافيًا لإخراج كل شيء، كثير من شلالات الحبوب التي تم حصادها والمؤن الموجودة بالمخزن بقيت حيث كانت.

أخذت نفاة قطتها بين يديها وأمسكت بيد أمها التي كانت تحمل ناصر في حضنها وهو يبكي في فزع، يسمع الأصوات ولا يرى وجوه أصحابها، ولم يكن يفهم ما يدور حوله وليس هناك من وقت أو سعة صدر لإفهام طفل في الثالثة من عمره ما يحدث، فلا عمره يسمح له بفهم الحادثة واستيعابها، ولا عمى عينيه يسمح له برؤية وجوه أعدائه كما يراهم الجميع.

ساعدت النساء عويذة وخديجة في إخراج أوانيهم وأغراضهم وملابسهم من البيت، وحينما خرجن مع الأطفال كان عدد من رجال

الحارة يطوقون البيت بنادقهم، والجنود حولهم، شاهرين بنادقهم خلف ظهورهم، وصالح في مكان آخر غائب عن المشهد ولا يعلم ما يحدث لأسرته وبيته.

أمر الجنود الرجال بالتحرك بعيداً عن البيت، لم يكن بينهم من يعرف كيف ستكون طريقة الهدم، يتعد الجنود ويعدون الرجال، يهبط الرجل المتحدّث بالعربية ومعه الضابط والجنود إلى الدرب حيث يجتمع الجميع بجانب البيت العود، تبعد النساء المحمّلات بالشوالات، يسرن في الدرب لكنّ عويذة تتوقف لتلقي على البيت العود النظرة الأخيرة، تفكّر في تلك المرأة الساكنة هي وأولادها وربما أحفادها في الغرفة العلوية، تقول في نفسها: «لو كان لهذه الجنيّة خير ومقدرة ومحبة لناصر فلتبثها اليوم في حماية بيته وعائلته، أو ليس البيت بيتها وأولادها كما هو بيت عويذة وأولادها؟ لعلها تفعل بهم الأعاجيب إذا كانت موجودة هناك حقاً، ولم ترحل بعد موت ناصر، ولكن يعلم الله ولا تعلم إن كان ما قاله ناصر رحمة الله عليه حقيقة أو من وحي خياله ليداري سرّاً من أسرارهِ».

عاش ناصر كلغز ومات كلغز، وجعلها تدور حول نفسها غارقة في شكوكةا نحوه، تستعيد من الشيطان تارة وتستغفر الله تارة أخرى، فقد كان حريضاً على عزلته ووحدته محتفظاً بأسرارهِ في قلبهِ، ولم يأتيها في الحلم زائراً لينذرها أو يضع لها إشارة تتبعها في أمر هدم البيت، لكنّها تذكرت أن ناصر لا يأتيها زائراً إلا لبشارة خير، وأيّ خير سيخبرها به،

واليوم يسقط تاريخ آبائه وأجداده، ولو كان ناصر على قيد الحياة لما تجرّأ أحد منهم بالاقتراب من البيت، تتذكّر صالح الذي لا يقلّ شجاعة عن أبيه، وتتساءل كيف له القدرة على مواجهة هذا الجيش الغريب بتلك الوجوه الحمراء، وكيف سيقا تل طائراهم، «اليوم مات ناصر، اليوم مات...» تردد عويذة هذه العبارة بينها وبين نفسها، فتسقط دمة ساخنة من عينيها، تقاوم صرخة مكبوتة في أعماقها مع شعورها بالذلّ والخذلان والموت في هذا اليوم.

انتشر الجنود في كلّ مكان، في الطرقات والمزارع وبعضهم دخل البيوت المجاورة للبيت العود آمرين سكّانها بالخروج منها ومغادرتها، يسأل أصحاب البيوت في قلق إن كانت ستهدم بيوتهم أيضًا، فيردّ عليهم أحدهم أنّها لن تُهدم، ولكن خشيةً من تأثرها لتساقط الأحجار عليها أثناء هدم البيت العود، أو تصدّعها مع هزة الانفجار وسقوط البيت، فجميع البيوت في حارة الوادي مبنية في خط واحد، متلاصقة بحيث لا يفصل بين البيت والبيت الذي يليه غير جدار مشترك، ولو سقط جدار أحد البيوت انكشف البيت الذي يليه وسقط تبعاً معه.

تخرج النساء مع أطفالهن من البيوت حاملات ما يستطعن حمله من داخلها، يركض بعضهم نحو المزارع بينما يظل بعض الرجال واقفين في أماكنهم متأبطين بنادقهم، متحفزين لأية حركة أو إشارة لإطلاق النار والاشتباك مع الجنود، تنظر عويذة إلى البيوت الصغيرة المجاورة للبيت

العود، فتبدو كملحقات تابعة له، بيوت متشابهة لا يختلف بعضها عن الآخر إلّا في أشياء بسيطة جدًّا، ولا يمكن للرائي العادي أن يلاحظها أو أن يستطيع تمييزها، بيوت مرتبطة مع بعضها بأحجارها وجدرانها ومحبة أهلها وكأنّهم أسرة واحدة. لقد عاشت عويذة في هذه الحارة، سيدة البيت العود وزوجة ناصر بن حمد «ابن الليل» المعروف بشجاعته، وأرملته بعد ذلك، فكان لا شيء أحبّ إلى قلبها من أن تحمل اسمه حيًّا وميتًا، وكان جيرانها عونًا وسندًا بعد موت زوجها، تنظر إلى تلك الأبواب الخشبية القصيرة في تلك البيوت، والتي كان عليها أن تنحني لتستطيع الدخول إلى داخلها حتى لا يلمس رأسها حافة الباب، فتضحك عليها جارتها وتقول لها:

- هذي بيوتنا وأبوابنا على قياسنا، وسكّان البيت العود بابهم عود. تنهد عويذة تنهيدة تكاد تجرحها وهي تتذكر ما كان عليه البيت العود وما آل إليه، تلتفت إلى الخلف تتأمل جدرانه، الغرفة العلوية حيث يعتزل ناصر مع جنّيته، الغرف الحديثة التي بناها صالح مؤخرًا، هذه القلعة التي اجتمع فيها رجال الإمام ذات يوم وهم يرسمون خططهم ويحددون أهدافهم ويقسمون الأسلحة فيما بينهم، هذا هو البيت العود بكلّ ما لها فيه من ذكريات وحكايات وأفراح وأوجاع، تقف وهي ترتجف غضبًا وحزنًا ومهانة ودُلاً، وقدامها لا تحملانها لتتحرك وتسير في طريقها إلى حيث لا تدري، وكأنّها تحاول أن تحفظ في قلبها الصورة الأخيرة للبيت

والمكان والحارة قبل الهدم. تنظر إلى الباب «العامد» المصنوع من خشب جذوع النخيل، تلك النقوش المحفورة في خشبه بدقة ومهارة، لا تدري من صنع هذا الباب الكبير، ولكن كما عرفت أنّ جدّ ناصر وصّى عليه أمهر النجارين والعاملين في صناعة الخشب، فكان الباب تحفة تضيفي على البيت مهابة ومكانة، فكما يقول ناصر رحمة الله عليه: «إن قوة البيت في شيئين: باب يحرسه، وامرأة تربّي الخير فيه»، ورغم ضخامة الباب في مدخل البيت العود وقفله الكبير المعلق أعلاه، ما كان يغلق مطلقاً، بل كان يُترك مفتوحاً ليلاً ونهاراً على مصراعيه حتى إذا جاء محتاجٌ أو فقيرٌ يدخل دون طرق الباب؛ وفي سنة الجوع والمحل كان ناصر رحمة الله عليه يضع الطعام في الدكّتين المتقابلتين الأشبه بمقاعد بعد مدخل الباب من الداخل لكلّ جائع أو محتاج إنسا كان أم جنّا، بشراً أم حيواناً، فالبيت العود ليس في حجمه بل في الخير الممتلئ به.

تذكّر عويذة أوانيها الخزفية وصحونها النحاسية ودلال القهوة ومصاحف القرآن التي تركتها في روازن البيت، جرح يشق صدرها ويدميه، ودمعة تجري على خدها وهي تكاد لا تصدق أن كلّ هذا سيصبح مجرد ذكرى: «ألا لعنة الله عليهم إلى يوم الدين»، ترددها عويذة وهي ما زالت متسمة واقفة في مكانها والنساء يصرخن عليها أن تسير.



تتحرك عويذة من مكانها لتلحق بخديجة وأولادها والنساء اللاتي يسرن معها، لقد خرج الجميع، حتى تكاثرت أعداد الخارجين من بيوتهم، يتصايح الأطفال ويصرخون في أحضان أمهاتهم، فالיום سيُعدم البيت العود، وستعدم معه بيوت أخرى، حتى الحجر لم يسلم منهم كما تقول إحدى النساء الباقيات، يقف الجميع بعيداً بمسافة تضمن لهم السلامة، تضم نَفَاقَةً قطتها إلى صدرها، وكذلك يفعل بعض الأطفال الآخرين، يتصاعد مواء القطط التي تحاول الفرار من قبضة أيديهم ويتعالى صياح الأطفال وبكاء النساء، وكأنّ جنازة تسير إلى مدفنها.

يرتفع صوت الهدير من الأعلى، يرفعون رؤوسهم، زاد عدد الطائرات المُحلّقة، واقتربت كثيراً من مستوى أسطح المنازل ومن قمم النخيل حتى تكاد تلامسها، تهتز البيوت، تثير حركة الطائرات غباراً تحتها، يلقيهم الغبار، يكاد يُعمي عيونهم فلا يرون شيئاً. تنطلق نداءات من مكبرات الصوت تحذّر الأهالي بأنّ يتعدوا، تركض النساء بأطفالهن والرجال يهرولون خلفهن، يتعد الجميع ويبقى البيت العود وحيداً أعزل تحت قبضتهم بلا رحمة، ولو أنّ للحجر والطين القدرة على قتالهم لقاتلهم، تتوالى النداءات بمكبرات الصوت بأن عليهم الابتعاد. تسمح عويذة دمعة قاومت كثيراً سقوطها لكنها طفرت من عينيها، تعزّ عليها نفسها أن تُهزم وأن يصيبها الذل والهوان بهذا الشكل، تقاوم ضعفها وتسير مع من ساروا حاملة صرة ثيابها وقابضة على يد الصغيرة بيدها المتعرّقة، تسير النساء

وكل واحدة منهن تحمل فوق رأسها وفي يدها ما استطاعت حمله من مؤن وملابس وأواني، وكذلك الرجال كانوا يحملون مراجل وقدرًا وخيشًا وقُفَرًا ممتلئة بالحبوب والتمور، وبعضهم كان يقود الأبقار والثيران ويطلقون المواشي أمامهم، يحمل حمدان الدجاجات التي استطاع الإمساك بها ولم يجرفها ماء الفلج في طيات ملابسه، ويجرّ ثورًا خلفه والأغنام أمامه، يسرون في موكب حزين أشبه بموكب جنازي.

تسير عويذة سير العاجز لكنّها رغم ذلك لم تبك كما تبكي النساء في مثل هذه المواقف، مسحت الدمعة التي سقطت دون إرادة منها وقامت دمعة أخرى كانت على وشك السقوط، الصرخة المكتومة في داخلها على وشك أن تنفلت لكنها تكتمها. ظلت ملامح وجهها الجبلية ثابتة متماسكة، عينها العميقة بنظرها الثابتة تنظر في طريق لا تعرف نهايته. عويذة رغم ما مرت به من معاناة، وما سكن قلبها من فقد وحزن، ورغم أنّ صالح تزوّج وأصبح لها أحفاد، لكنّ من يراها يرى فيها امرأة محتفظة بشبابها ونضارة بشرتها التي لوّحتها الشمس، فاكسبت اسمراًا حلواً مع بعض التجاعيد البسيطة تحت عينيها وعلى جنبات فمها لا أكثر من ذلك، وكأنّ الحزن والفقد وسنوات العمر لم تستطع هزيمتها.

ما أطول دربها! فكلّ خطوة تخطوها ترجعها إلى الخلف، إلى البيت العود، وكلّ زاوية لها فيه حكاية، فكيف تستطيع الآن أن تستوعب هذا المشهد الصعب؟! لولا الحياء والكبرياء لا احتضنت الجدران قبل أن

تسقط، ولتمرّغت في تراب البيت وقبّلت كلّ زاوية فيه قبل أن يُهدم، فمثل هذا البيت لا يسقط، ولا يُسلم لعدو، ومثل هذا البيت لا يُهجّر.

تجر قدميها جرّاً فلا تدري هل ثقلت خطواتها أم أنّ الأرض تميد تحتها، تصكّ أذنيها قبل أن تسمع صوت سقوطه، لقد سلّمت أمرها لرب العالمين، تبعثها خديجة وأولادها وبعض النساء في صمت.

بعد لحظات سُمع دوي انفجار كبير، اهتزت على إثره الحارة، لم تستطع عويذة أن تلتفت إلى الخلف مرة أخرى، شعرت بنصل مغروس في خاصرتها، قيد على قدميها تجره ثقيلاً، لكنّها واصلت سيرها مثقلة بالحزن والألم والذكريات، لن تنظر إلى الخلف، فما خلّفته وراءها أصعب من أن تراه عينها، أصوات تتناهى إلى مسمعها: طاح البيت، طاح البيت! صرخت بأعلى صوتها: «واناصر!»..

(23)

شعرت عويذة وكأنّها تعيش اللحظة الأخيرة وهي ترى شريط حياتها يمر أمامها سريعاً، لحظة تودّع فيها حياة وتستقبل حياة أخرى، ترحل عن بيتها الذي عاشت فيه أجمل ذكرياتها وأصعبها، والذي حلمت أن يتناول ويكبر ويمتد بناؤه على يد صالح وأبنائه من بعده. تستعيد تلك الأيام التي دخلت فيها إلى هذا البيت وهي عروس صغيرة لم تتجاوز العاشرة من عمرها، ضعيفة وهزيلة، وكذلك ناصر الذي لم يكن يكبرها كثيراً، فربما لم يتجاوز الخامسة عشر حينما تزوجها، تفاجأت عويذة بالبيت الكبير الذي ستعيش فيه، فبيت أهلها صغير جداً مقارنة بالبيت العود.

استقبلتها نصرّة أم زوجها لا كما تستقبل ضيفاً أو صديقاً، وربّتها لا كما تربّي الأم ابنتها، بل كانت قاسية شديدة في تعاملها معها، فلم ترَ منها وجهاً مبتسماً، ولم تسمع منها كلمة حلوة حنوناً، فمنذ اليوم الأول لها في البيت عاملتها كخادمة، فحمّلتها كلّ شؤون البيت بأبقاره ومواشيه ومطبخه، من كنس وحلب ومخض للّبن، وجزّ البرسيم وإحضار الحطب والحشائش، وكانت تأمرها بالذهاب أكثر من ثلاث مرات في اليوم لنزف الماء من الفرصة حتى وإن كان الماء موجوداً داخل البيت، فلا شيء يستفزّها ويثير غضبها أكثر من أن تجد عويذة جالسة بلا عمل، فالجلوس هكذا يفسد البنت كما تقول، وقد تمرّ عليها ساعات طويلة دون أن تسمح

لها بتناول الطعام، فكان جوعها أكثر من شبعها، وحينما تخرج من البيت تناولها ثلاث تمرات لا أكثر، فضعفت وهزلت وشحب لونها وما كانت تجرؤ على التذمّر أو الشكوى، وكان على عويذة أن تألف هذه الحياة وتعتادها، وتصبر على الجوع وشدّته، وعلى سوء التعامل وقسوة قلب عمّتها، فلم تشتك، كما أوصتها أمّها في ليلة عرسها.

احتملت وصبرت، ولكن يخونها صبرها أحياناً من شدة التعب والجوع، فتبحث عن لقمة تأكلها، وقد ضربتها يوماً حين رأتها تأكل من جراب التمر تمرّة واحدة، في لحظة جوع وقالت لها:

- أنا ما أربّي لصة في بيتي، وإن فعلتها مرة ثانية أرجّش بيت أبوش. وكان ذلك من المواقف الكثيرة التي لا تنساها عويذة، ومن الكلمات الجارحة التي ما زالت تشعر بها دامية في قلبها حين تذكرها، تذكر عويذة أنّ التمرة وقفت في حلقها ولم تستطع بلعها حتى كادت تخنقها، فلم يكن أشد عليها من أن تعيدها عمّتها نصرّة إلى بيت أبيها لأنّها سرقت تمرّة، فصبرت وبدأت تلتقط من تحت النخيل ما سقط من ثمارها وتأكله حتى تسكت جوع بطنها.

لم يفارق الألم عويذة وإن حاولت أن تكيّف نفسها مع طباع عمّتها وتحتمل قسوتها، ولكن كيف بها أن تنتقل من رغد العيش والكفاف في بيت أبيها وإن كان صغيراً ومتواضعاً إلى شدّة الجوع في هذا البيت الكبير، وكيف لها أن تتعايش مع هذه القسوة وهذا الجفاء بعد أن عاشت في كنف أمّها وحنانها. وقد ضربتها عمّتها مرة أخرى، حين عادت من الفُرصة وقد

تبَلَّت بالماء المتساقط من الهاندوَّة التي تحملها فوق رأسها على ثيابها فالتصقت على جسدها، بعد أن غلبتها الهاندوَّة وهي تحاول احتواء الجحلة بين يديها الصغيرتين، فكانت تجبرها على حمل هاندوَّة وجحلة حينما تذهب لنزف الماء من الفُرْصَة بحجة أنَّ الماء الموجود في البيت لا يكفي، وقالت لها: إنَّ الرجال سيطمعون فيها، وستحدث عنها المعصَّرات في جلساتهم، وهي التي لم تمتدَّ لها يدٌ، ولم تلحق العصا جسدها، ولم تنلها كلمة جارحة منذ أن كانت صغيرة.

بكت عويذة في ذلك اليوم واشتدَّ بها الحنين إلى أمِّها وبيتها في الجبل وإخوتها الذين لم تزرهم إلا مرة واحدة بعد عام من زواجها، وهي التي لم تفرق عنهم من قبل، لكنَّها صبرت وتعلَّمت كيف تمشي بشكل متوازن وهي تحمل هاندوَّة الماء على رأسها والجحلة في يدها دون أن تسقط قطرة من الماء على ثيابها أو على الأرض.

لم يكن ناصر يعلم ما تفعله أمُّه مع زوجته، لأنَّه كان طوال اليوم خارج البيت، فقد كانت أمُّه لا ترى فائدة من جلوسه في البيت، وكلَّما رآته جالسًا في البيت قالت له:

- الحريم يجلسن في البيت، انهض واذهب لتتابع أموالك ونخيلك وأعمالك، الرزق ما يسقط من السماء، والرجل يتحرَّك وما يربض تحت زوجته.

كان ناصر لا يجلس في البيت إلا قليلًا، فاتَّخذ من الفلاة ملاذًا له من قسوة أمِّه وجبروتها، أحبَّ الصحراء والجبال والفيافي، وكان يجد نفسه

وحريته بعيداً عن أمه ولسانها الحاد، أجاد الرماية وعشق القنص، وكان كلما عاد من خلوته أحضر طرائد القنص من غزلان وحمام وثعالب وضبوب كي يرضي أمه التي ما كان يرضيها شيء قط، فما كان البيت يخلو من لحم طريدة، ومع ذلك كانت دائماً تشتكي الجوع وقلة ما في البيت من طعام؛ ومع كل الخير الموجود في البيت ما كانت تطبخ لهم إلا بمقدار بسيط لا يكاد يشبعهم، فكانت تجفف اللحم وتخبئه ليوم جوع كما تقول رغم محاولة زوجها إقناعها بأن لذة اللحم في أكله وهو طازج، لكنها كانت معروفة ببخلها، فلا تطبخ إلا بمقدار ما يأكل زوجها وابنها وتتقاسم هي الفتات مع عويذة التي كانت تمدّ يدها بحذر وتأكل دون أن تشبع، فتنهض عن الطعام ولم تُشبع جوعها.

لم تتجرأ عويذة أن تخبر زوجها بما يحدث معها، وعن ضرب أمه لها وسوء معاملتها وبخلها وتقتيرها في الطعام، وربما كان يعلم عن أمه ويعرفها لكنه لا يجروء على فعل شيء، فكانت امرأة جبارة لا تنزل كلمتها أرضاً إذا تكلمت، ولا يردّ لها زوجها طلباً إذا طلبت، ومع أنّها ابنة عم زوجها لا أحد يعلم من أين ورثت طبع البخل الذي ما كان الشيخ حمّد زوجها يرضاه ولا أحد من عائلته؛ ورغم كلمة الشيخ حمّد المسموعة وشجاعته المعروفة خارج بيته، كان يضعف أمامها ويتجنب جدالها، وحينما فعلها ذات مرة وتزوَّج عليها فتاة صغيرة جميلة لعلّ في زواجه بأخرى أدباً لها وكسراً لشوكتها وجبروتها كما نصحه صديق مخلص، لم تضعف ولم تنكسر بل زاد جبروتها وبرزت مخالبتها وأنيابها، وما إن خرج

تاركا عروسه الجديدة في غرفتها حتى هجمت عليها وضربتها ومزقت ثيابها وقصت شعرها ووسمتها بالنار في جبينها، ولولا أنّ الجيران أتوا وخلصوها منها حينما سمعوا صراخها لكانت الفتاة ماتت بين يديها، وحينما حضر حمّد كانت الزوجة الجديدة تن في زاوية من زوايا البيت ممزقة الثياب منكوشة الشعر موسومة بالنار في الجبين، ونصرة تهدر وتزبد كأنّها شيطان قد حضر، فلم يكن من الشيخ حمّد إلا أن رمى يمين الطلاق على زوجته الجديدة مستبقياً نصرة كزوجة وحيدة له ولم يتزوج زوجة أخرى غيرها، حتى إنّ البعض يقول إنّها عملت له سحراً وسقته إياه حتى يظلّ محكوماً بطاعتها ويبقى كخاتم في أصبعها، لا يخالف لها أمراً ولا يردّ لها طلباً.

تترحم عويذة على روح عمّها الشيخ حمّد الذي كان رغم هيئته ومكانته بين قومه حنوناً في تعامله معها، وكان يُشفق عليها من تعامل نصرة وقسوتها، فهو يعرف ما تفعله زوجته، لكنّه يرى ويسكت ولا يقول شيئاً وكأنّ لسانه مربوط من أن يتفوه على نصرة بكلمة واحدة.

تنظر عويذة إلى يدها وتتأمل أثر الحرق الذي أبت السنون أن تمحو أثره ليبقى كتذكّار حتى تموت، حين ألصقت عمّتها نصرة يدها الصغيرة على الطويج وهي تعلّمها الخبز، لأنّ العجين كان يسقط من بين أصابعها، فضغظت على يدها في سطح الحديد الساخنة ولم ترفعها حتى سمعت صوت التصاق جلدها عليه وشمّت رائحة لحمها المحترق، وحينما أتى ناصر أخبرته أمّه قبل أن تتحدث عويذة، وقالت له إنّها كانت تعلّمها الخبز

فاحترقت، فلم يقل شيئاً أمام أمّه، وما أخبرته خوفاً أو جزعاً كما أحسّت عويده، ولكنّ لشعور بالذنب سكن قلبها لفترة مؤقتة، فكانت تلاحظ في وجهها شيئاً من الندم كلّما قست عليها، ولكنها تعود في كلّ مرة أسوأ وأشدّ مما كانت عليه من قبل، وكأنّ شيطاناً يسكنها ويحرّك تلك النوازع الشريرة داخلها. وقد سمعت عويده من الجارات اللاتي يعرفن نصرة جيداً أنّ نصرة مسكونة بشيطان كافر، وليس لها القدرة على التحكم في تصرفاتها، فمن يعرفها من قبل يذكر أنّها لم تكن كذلك، وقد حاولت نصرة أن تتعالج وتُخرج الشيطان الذي يسكنها لكنّه لم يخرج، وقال في جلسة زار إنّّه لن يخرج منها إلّا بخروج روحها.

تهرب عويده بذكرياتها من ألم اللحظة التي تحياها بهدم البيت إلى تلك الليلة التي دخلت فيها أمّ زوجها عليها ذات فجر في يوم شديد البرودة لتوقظها للذهاب لحلب البقر، وكانت قد اعتادت أن توقظها في مثل هذا الوقت المبكر، واعتادت حين تأتي لإيقاظها أن ترفسها بقدمها رفسة في الخاصرة دون أن تتحدث، فتستيقظ عويده على الفور، ولكن في ذلك الصباح وبعد أن ضاق بعويده الحال، وأصبحت لا تطيق وجع رفسات عمّتها لها، وفي نفس الوقت لا تجرؤ على إخبار زوجها بما يحدث معها، اهتمت إلى حيلة لكي يعرف ناصر ما تفعله أمّه دون أن تخبره، فقالت له في الليلة التي سبقت ذلك الصباح:

- ما رأيك لو نتبادل أماكن النوم؟

- خير إن شاء الله، موه هناك؟

- النوم في هذي الجهة يسبب لي ألم في الظهر، وفكرت أن أجرب النوم في الجهة الثانية.

نام ناصر في الجهة التي كانت تنام فيها عويده، وقد كانت ليلة سقطت فيها صرودة الشتاء، وكلاهما ملتحف ومندّس تحت لحافه باحثاً عن الدفء، وقبل أذان الفجر بقليل دخلت نصره لتوقظ عويده وفعلت كما تفعل عادة، لكن هذه المرة أتت الرفسة في خاصرة ابنها بدلاً من عويده، فقام مفزوعاً من أثر الرفسة القوية التي أصابته، خصوصاً أن أمّه كانت ترتدي نطلة فضية كبيرة في ساقها فآلمته، وفزّ واقفاً ممسكاً بالمرأة التي رفسته، ظاناً منه أنّها إحدى سكّان المكان التي تُفزع زوجته وتصيبها بالآلام الظهر، لكنه تفاجأ بأن من يمسكها ليست سوى أمه.

خرجت نصره من الغرفة دون أن تقول شيئاً، نهضت عويده وأرادت أن تتبعها، لكن ناصر استوقفها وأمرها بالجلوس، وقال بصوت عالٍ كي تسمع أمه التي كانت تخرج من الباب:

- بعد اليوم ليس لنا مكان أو جلسة في هذا البيت، اجمعيني ملابسنا وقبل شروق الشمس خارجين من البيت.

ولكن حينما رآه أبوه خارجاً مع زوجته أصرّ وحلف عليه أن يبقى، وبرّرت نصره ما فعلت بأنّها تريد أن تجعل منها ربة بيت ناجحة، وأنّها تربيها كما ربت بناتها، وما فعلته ليس حقداً ولا كرهاً بل محبةً، فبقي مكانه ولم تتغيّر أمّه في طباعها، وإن أصبحت أقلّ قسوة في تعاملها مع عويده، وقد عاشت معها عويده حين لم يبق في البيت غيرها فأحسنّت

إليها حينما تعبت، وحينما سقطت مريضة في فراشها لم تأت بناتها ليشرفن عليها في أيام مرضها الأخيرة، عويذة فقط هي من اعتنت بها كأمّها، فكانت تُحمّئها وتطعمها وتعطّرها وتبخّرُها، وكل من يأتي زائرًا يراها كعروس، حتى ماتت بين يديها وقد قطّرت لها قطرة الماء الأخيرة بيدها.

ماتت نصرة بعد أن أصيبت بمرض غريب، فما كانت تستطيع أن تضع لقمة في فمها حتى تتقيأها، تساقط شعرها وشحب لونها وهزلت، وفي آخر أيامها كلّ بصرها وما عادت ترى شيئًا، وكان ذلك قبل موت ابنها ناصر بخمسة أعوام.

وحين فتحوا وصيّتها، وجدوا أنّها أوصت بكل مصاغها لعويذة دون بناتها كفّارة عما فعلته بها، وكانت عويذة كلّما ذكرتها تدعو لها بالرحمة والمغفرة، وتذكر أمام الجميع أنّها رغم قسوتها أحسنت تربيتهما، فلولا تربيتهما الصارمة لما استطاعت أن تدير شؤون البيت العود بمفردها بعد موتها، وخروج أخي ناصر وزوجته إلى بيت خاصّ بهم، ولولاها لما أصبحت عويذة هي عويذة التي يعرفها الجميع الآن.

(24)

حينما وصلت عويذة وخديجة والأطفال مصحوبين بالجيران إلى الضاحية، كانت الشمس قد انتصفت وسط السماء، واقترب وقت الظهيرة. وكانت النخيل تمد ظلالها في الضاحية الخضراء المغطاة بالحشائش. وُضعت جميع الأغراض تحت شجرة المانجو الضخمة المتفرعة بغصونها نحو الأعلى. تقف النخيل شامخات في مسافات متساوية رغم الطائرات التي تقترب من قممها وتُحرّك سعفها، وتبدو الحشائش للناظر بساطاً أخضر ممتداً بطول المسافة التي تفصل مقصورة نخيل صالح عن المقاصير الأخرى، الأرض طينية باردة تحت أقدامهم الحافية التي تغوص في الطين، فما زال أثر الماء يبللها بعد سقيا البارحة. ربط الجيران المواشي تحت النخيل، فكّ حمدان الحمار المربوطة إلى إحدى النخلات من عقالها، وتحرك دون أن ينتبه إليه أحد سوى عويذة التي كانت هي من أشارت عليه بذلك، لم يُرفع أذان الظهر في ذلك اليوم، ولعلّها المرة الأولى التي لا يرتفع فيها صوت المعلم خلفان مؤذناً للصلاة، قالت امرأة: إنّ المسجد محاصر بالجند، وقالت أخرى: زرعوه بالألغام حتى يقوموا بتفجيره كما فجّروا البيت العود، وقالت أخرى باكية: سينهدم المسجد بهدم البيت العود، فهو ملاصق له، وأتى صوت آخر من بعيد يقول: المسجد له ربّ يحفظه ولن يسقط، ولن يُهدم.

بكت النساء، وانتظم الرجال في صفٍّ واحد للصلاة جماعة تحت النخيل، وفور أن انتهوا من صلاتهم رأوا المعلم خلفان قادمًا في الدرب المؤدي إليهم، أخبرهم أنه حاول دخول المسجد لكنهم منعوه، وقال متأثرًا بالحدث الجلل:

- هذا نذير شؤم، فما مَرَّ يومٌ لم يُرَفَّع فيه الأذان في مسجد حارة الوادي من قبل، لن تقوم لهم قائمة بما فعلوا، ولن يتصرفوا مهمما كانت قوتهم، وإن الله على نصر المسلمين لقدير.
ثم رفع يديه إلى السماء داعيًا على من كان سببًا في ذلك بصوت مسموع والجميع يردد وراءه:
- آمين.

تعاونوا جميعًا على تجميع الأغراض وربط الأغنام والأبقار، وطلب كل واحد منهم من عويذة أن تأتي مع أولادها إلى بيته ضيوفًا مكرَّمين معزَّزين حتى يأتي صالح ويرى ما سيفعل، أو حتى يتعاونوا جميعًا لبناء بيتٍ جديدٍ لهم، لكنَّ عويذة رفضت أن تذهب إلى أي بيت من بيوت الجيران، وأصرَّت على أن تجلس تحت النخيل مع خديجة وأولادها حتى يأتي الله بالفرج على يد صالح. وجدت عويذة بقعة غير مبللة، وفرشت عليها حصيرًا سعفيًا، وأجلست الأطفال وجلست معهم، بقيت النساء معها وقد أسقط في أيديهن، فلم يجدنَّ حيلة لمساعدة عويذة في مصابها بهدم البيت. نظرت خديجة إلى الخراب الذي حلَّ بهم، فلا بيت يؤويهم، ولا سقف يظللهم، ولا باب في جدار يسترهم عن عيون البشر.

أت حميدة تركض من بعيد لترتمي في حضن أمها باكية، لكن عويذة أسكتتها، مسحت حميدة بيدها على وجهها، وأخذت بيد أمها وقالت:
 - ماه. تعالوا بيتي حتى تهدأ الأمور، ويرجع صالح ويقرر ما هو فاعل، وعسى يعيد بناء البيت العود مرة ثانية، وتعود الحياة مثل ما كانت وأجمل بإذن الله.

انتهت عويذة لكلمة البيت العود وكأن الكلمة لامست في قلبها وجعاً كانت تحاول مداراته، ونكأت جرحاً تحاول وقف نزفه، فقالت لابنتها:
 - البيت العود راح يا ابنتي، وبوه راح ما يرجع.

رفضت عويذة في البداية عرض ابنتها، فكما هو معروف عنها شدة كبريائها وعزة نفسها لا ترضى أن تبدو منكسرة أو محتاجة لأحد، حتى لو كان ذلك الإنسان ابنتها، وكانت حميدة تعرف ذلك عن أمها لكنها ظلت تلح عليها وصممت ألا تتركها تبيت مع خديجة والأولاد في الضاحية، ولا بيت هناك يؤويهم، ولا سقف يظللهم، ولا جدار يسترهم عن العيون. أحاطت النساء بعويذة وكلهن متفقات ومتضامات مع رأي حميدة، فلا يجوز أن تبقى مع الأطفال في الضاحية بلا ستر ولا سقف ولا ظل، وليس من حل أمامها سوى الذهاب إلى بيت ابنتها ولو ليوم واحد حتى يُبنى لهم عريش مؤقتاً. ولم تجد عويذة بداً من أن توافق.

رُبطت الأغنام والأبقار، وترك الأواني وشوالات الحبوب تحت شجرة المانجو، وبحث الرجال عن حمدان فلم يعثروا عليه، سألوا عنه

فلم يعرف أحد مكان وجوده ولا أين ذهب، إلا عويذة التي لم تجد في غيابه عجباً ولا ريبة. وبعد أن نظرت إلى المكان ملياً، وتأكدت من أن المواشي مربوطة في جذوع النخيل والليمون تركت الضاحية، وذهبت مع خديجة والأولاد إلى بيت حميدة، وأخبرت من جلس من الجيران هناك لحراسة المواشي إن عاد صالح أو حمدان أن يخبرهما بمكان وجودهم. لم يغمض لعويذة جفن في ذلك المساء، تقلبت في الفراش الذي كان أشبه بشوك أو قطع من جمر، تتنازعها الهواجس والأفكار ومشاعر الذل والغربة وهي تنام في بيت زوج ابنتها وقد غدت غريبة مشردة بعد هدم بيتها، كان الليل هادئاً إلا من صوت الصراريخ في المزرعة القريبة من بيت ابنتها ومواء القطط في الطرقات ونباح الكلاب على جنبات الوادي. لم يلامس الوسن عينيها، ولم يأت طيف ناصر ليخبرها ما هي فاعلة في هذه المصيبة التي حلت بهم، ليل كئيب لا يشبه الليالي التي سبقته.

في الصباح وقبل أن يستيقظ الجميع كانت عويذة تقف بالقرب من البيت العود المهدم وقد صعقها أن تراه ركاماً، لقد سُويّت الجدران بالأرض، وأصبح البيت تلة من تراب، يحوي ما يحوي في داخله. تغير منظر الحارة بعد هدم البيت، انكشفت التلة الجبلية التي كانت تختبئ خلف البيت، وسقط جدار المسجد الملاصق له، وسقطت جدران بعض البيوت القريبة منه، فأثار في نفس عويذة الهلع وفي قلبها القلق من أن يوتأ أخرى ستسقط بعده. لن يتركوا الحارة في حال سييلها لتعيش بسلام وأمان

حتى يستولوا على الجبل الأشم ويسقطوه، والأشم لا يسقط، إلا بسقوط الليث الجسور الحارس لبوابته.

لاحظت عويذة أن الدرجات المؤدية إلى الباب الكبير ما زالت موجودة رغم سقوط البيت، لقد سقط الباب ولم يعد سوى قطع خشبية صغيرة محطمة متناثرة في أرجاء المكان المليء بالتراب والأحجار، تصعد من تلك الدرجات بخطوة مترددة، ولكن أين تمضي؟ فلا باب ولا بيت. تذكر فخر المرحوم ناصر بقوة الباب الكبير «العامد» الذي جعله حارساً لبيته، تسير على رفات ما تبقى من بيته، تراب وأحجار، غرفة واحدة لم تسقط تماماً بل بقيت بجدارين، هي الغرفة العلوية التي سقط بابها وتحطم جدارها الأمامي والشرقي، أما الغرفتان اللتان بناهما صالح مؤخراً فلم تسقطا بشكل كامل أيضاً، ما زالت جدرانها شاهدة وإن سقط السقف وانكشفت للسماء، في حين تهدمت بقية الغرف كلها ولم يبق لها أثر، اندثرت بعد أن زرع البيت بالمتفجرات، لقد انكشفت الغرفة العلوية أمام عينيها، تسير إلى الغرفة تبحث تحت بقايا الحطام عن شيء يدلّها على وجود شريكها الجنيّة التي سكنت هنا، ولكن لا دليل عليها، لعلّها هربت مع أولادها قبل الهدم وذهبت إلى عالم الجنّ أو ماتت كما فكرت من قبل، تتعوذ من وسواس الشيطان الذي يجعل هذه الحكاية عالقة في ذاكرتها حتى في مثل هذه اللحظة، تنبش عويذة بكلتا يديها تحت ركام الغرفة العلوية لعلّها تعثر على شيء. تجد كتاباً قديماً فتأخذه بين يديها، تنفض عنه الغبار وتضعه في طيّات لحافها.

تسير بحذر على حطام البيت وأحجاره، وكأنّها تسير على قطع من زجاج، تبحث تحت الحطام عن شيء تحمله معها، تبحث عن ذكرياتها التي غدت ركامًا، تبحث عن صالح الصغير وحميدة وهما يلعبان في حوش البيت، تنتبه وهي غارقة في حزنها وتفكيرها إلى أنّها ليست وحدها في هذا الحطام، تسمع وقع خطوات حذرة تسير خلفها، تضمّ الكتاب بسرعة تحت طيّات لحافها.

(25)

أدارت عويذة رأسها إلى الخلف ونظرت بحذر، فرأت خديجة قد أتت هي أيضاً، يكسو وجهها الحزن والألم. تنظر إليها بشيء من الخوف والريبة وكأنها ما كانت تريد أن يشاركها أحد هذه اللحظة المتوحدة فيها مع حزنها، فهذا الحزن أكبر من أن تحتمله عويذة حين تراه في عيني خديجة، تسألها:

- موه جابك بك يا ابنتي، وتاركة الصغيرين وحدهم هناك؟! إذا قاموا وما شافوا واحدة منّا بقرهم أيخافوا، يكفيهم الفزع بو أصابهم أمس.

تنهدت خديجة تنهيدة ألم:

- ما تحاتي ماه، وما تخافي على الصغيرين، هناك أولاد عمّتهم بالقرب منهم، وأكّدت على حميدة تنبّه عليهم؛ لكن لما قمت من النوم وما كنتِ على فراشك ظنيت أنك هنا، وصدق ظني.

نظرت إليها عويذة نظرة حزن عميقة لم ترها خديجة في عينيها من قبل، فأضافت:

- عرفت ماه هين أحصلك، أعرف أن روحك وقلبك معلّقات في هذا المكان، هدم البيت ما هين، وتنهجالتنا ما هين، ولكن حسبي الله ونعم الوكيل على من تسبّب في هدم بيتنا وتشتتنا.

بكت خديجة وهي تتحدث، واقتربت من عويده واحتضنتها، وبكت عويده هي الأخرى وكأنهما تبكيان على ميت، وكأن عويده كانت في حاجة إلى هذا البكاء، ولكن سرعان ما تداركت ضعفها، وجففت دمعها، وأمرت خديجة أن تعود إلى بيت حميدة حيث يكون ناصر ونفاعة قد استيقظا. ترجتها خديجة أن تعود معها لتأكل شيئاً، فعويده منذ صباح الأمس لم تأكل شيئاً، لكنها آثرت البقاء.

ذهبت خديجة وبقيت عويده ممسكة بالكتاب في يدها وكأنها أمسكت أخيراً سر زوجها الذي لم تكن تعرفه، لقد رأت هذا الكتاب من قبل حينما غامرت ذات يوم وفتحت الغرفة بعد موته، لكن ما واتها الجراءة لأن تأخذه، اليوم ستأخذه فقد ذهب الخوف بذهاب البيت، وبعد أن أصبح كل شيء تحت الركام، وما فعلت تلك الجنية التي ظلت تحسب لها ألف حساب شيئاً حينما هُدم البيت، لم تخسف بهم الأرض، ولم تأت بأهلها من الجن كي يحموا بيت ناصر. «تغيب غابت عينها هي وأولادها» قالت عويده، وتناولت الكتاب وخبأته في طية لحافها وكأنها متأكدة من ظنونها أن الكتاب فيه شيء من السحر، وأن هذا الكتاب هو الذي أخذ لب زوجها وعقله حين أخبرها أنه تزوج من الجنية ميمونة!

خرجت عويده من البيت بعد أن جلست طويلاً تستعيد ذكرياتها التي أصبحت تلة من تراب وحجر، فما كان باستطاعتها البقاء وكل بقعة في ذلك البيت تعيد لها ذكرياتها الموجعة التي لم تبارحها منذ الأمس، نزلت

من تلك الدرجات المتهمة بحذر كيلا تزل قدمها وتقع، وحملت في يدها قطعة خشب كانت قد سقطت من الباب العامد. تقودها قدماها فلا ترى الطريق إلا ضباباً والدمع يترقرق في عينيها ولا يسقط، منذ متى لم تبك عويده، لا تدري، لقد اعتادت الصبر والكتمان، حتى الدمعة كانت تحبسها في مقلتها ولا تسقط، فليس جديراً بصابر أن يبكي أو يشتكي، ستشكو أمرها لله رب العالمين، ستدعو عليهم بعد كل صلاة، وسيستجيب الله لها، تلك ثقتها بالله.

حينما تجاوزت عويده المقصورة الأولى المزروعة بالنخيل والليمون، رأت جارهم سيف مع ابنه حمود، وبادرها بالسلام والسؤال عن الحال:

- كيف حالك ماه عويده؟
- بخير يا ولدي؟
- ماه عويده تعالوا عندنا البيت، ترى البيت بيتكم حتى يجي صالح ويبنى بيت جديد.
- يا ولدي نحن في بيت الشيخ ياسر زوج بنتي حميدة، فيكم الخير كلكم، ما منكم قصور.
- وكان سيف تذكر شيئاً وسألها:
- ماه عويده بغيت أسألك: رجع حمدان ولا بعده؟
- بعده ما رجع، من أمس ما شفته.

شكّت عويذة أن سيف يعرف شيئاً عن صالح كما يعرف حمدان، فصالح لا يخبئ سرّاً عن سيف وكذلك عن حمدان، لكنّها لم تودّ أن تسأله إن كان يعلم أين هو صالح الآن، رفعت يديها إلى السماء وقالت: «اللهم استودعتك ابني وذريته فاحفظهم يا رب العالمين» ثم انتبعت إلى أنّ الكتاب في يدها، فوجدتها فرصة أن تسأله عن الكتاب وما يحويه، فسيف متعلّم للقرآن مع ابنها صالح ويقرأ، ولا شكّ أنّه سيعرف ما يحويه هذا الكتاب لو نظر إليه.

- ولدي، حصّلت هذا الكتاب في البيت، تعرف مو المكتوب فيه؟

تناول الكتاب من يدها وقال لها:

- هذا كتاب ألف ليلة وليلة، ماه عويذة.

- وموه يوجد في ألف ليلة وليلة؟

- حكايات غريبة وعجيبة وقصص وأخبار عن الجانّ.

أخذت عويذة الكتاب من يده، وأعادته إلى طيّّة لحافها شاكرة له، ولم تسأله شيئاً آخر عن الكتاب، بل غيّرت مجرى حديثها وسألته عن زوجته زهرة، وحين انتبعت إلى وجود حمود برفقة أبيه، بحثت في طيّّة لحافها عن شيء تناوله إياه كعادتها عندما يأتي بيتهم، فلم تجد سوى تمرّة التقطتها في طريقها وهي قادمة من ركام البيت المهذوم، فناولته إياها وهي تقول له بصوت يغلبه الحنان والحزن:

- ولدي سامحني ما عندي شيء أناولك إياه، هذي حالنا حتى تفروحة صغير ما عندنا.

تناول حمود التمرة، ومضت عويذة في طريقها وحينما وجدت نفسها بعيدة، وقد غدت في منطقة خالية من العابرين، أخرجت الكتاب من يدها وبدأت في تقطيعه، ثم حفرت حفرة صغيرة عبّأتها بالماء ودفنت فيها أوراق الكتاب الممزقة وهي تظن أنّها بذلك تخلصت من السحر المكتوب فيه، والذي أخذ بلبّ زوجها وعقله، فإذا كان فيه سحر فإن الماء كفيّل بمحو كلّ كلمة مكتوبة فيه، وبذلك يطير الشر عنها وعن عائلتها، فلم يأت من حكايات هذا الكتاب غير الدمار والموت. نظرت في كلّ الاتجاهات، جرّت نفساً عميقاً وهي تنفض يديها من الطين العالق بهما فتأكدت أنّ لا أحد يراها، وكأنّها تخلصت من ذنب وجرم عظيم، وهي تردد:

- ألف ليلة وليلة يقول، ولو مدّ الله في عمره، يعلم الله كان آيات مع الجنّة ألف ليلة وفوقها ليلة، عدمت حريم الإنس رايح للجن!

انتبهت عويذة إلى أنّها تحدّث نفسها، وأنّه ما زال في قلبها شيء من عتب على زوجها رغم السنوات التي مضت منذ وفاته، ابتسمت ابتسامة موجوعة وقالت مغممة: «قلة العقل مصيبة عظيمة، بس ما بقى عقل من بو يستوي فينا». دعت له بالرحمة، وحدثت نفسها أنّه لو كان على قيد الحياة لما كان البيت يُهدم، بل ما تجرّأ أحد بالاقتراب منه، ثم غسلت

يديها من ماء الفلج وواصلت طريقها، وتذكرت أنها لم تؤكد على سيف
ألا يذكر شيئاً عن الكتاب أمام أحد حتى صالح، وقررت أنها ستخبره
حين تراه، وستؤكد عليه أن يحفظ سرّ الكتاب الذي رآه معها، فغيب عليها
أن تكشف سرّ زوجها بعد موته بعد أن حفظته وهو على قيد الحياة، المرأة
الحرّة لا تفعل ذلك مطلقاً، لكنّ ثقتها بسيف كبيرة، فهو ليس مثل مرهون
الذي لا يمسك لسانه.

تسير عويذة بحذر تتلفت يميناً ويساراً رغم أن الوقت كان صباحاً ولا
يوجد ما يرعبها أو ما يجعلها بمثل هذا الحذر، لقد ذهب الجنود بعد هدم
البيت، وفي أغلب الأحيان لن يعودوا إلا بعد أيام وبشكل مفاجئ، لكنها
مسكونة بخوف غريب من كلّ شيء، فلم يكن هدم البيت بالأمر الهين
بالنسبة لها، لقد تخيلت أي شيء يفعلونه، ولكن أن يهدموا بيتهم بتلك
الطريقة، وأن يشردوهم فيصبحوا بلا مأوى فذلك شيء كبير وكبير جداً في
نفسها التي لا ترضى الذل والهوان، وقد كان بيتها ملاذاً للفقير والمحتاج.
ذهبت عويذة إلى الضاحية حيث ربطت مواشيتها، فوجدت حمدان
هناك قد بدأ ببناء عريش لهم، وصالح موجود معه، فكان كما توقعت أنّ
حمدان ذهب إلى صالح حيث يوجد مع الثوّار قابضين العقبة، ومرتّبين
بأي جندي أو متسلل يحاول الوصول إلى الجبل. ركض إليها صالح
حينما وجدها قادمة، احتضنها وتذكرت احتضانه لها حينما كان صغيراً،

فلم يحتضنها منذ زمن طويل، وقد ربّته هي على ذلك، فكان كلّما أراد الاقتراب منها أبعدته عنها، ولا تقول له سوى كلمتين:
- أنت رجّال.

فعرف أنّه لا يليق بالرجل أن يرتمي في حضن أمه، أو يشتكي إليها ويبكي أمامها، فكان يتجنّب الشكوى لها، وإن حدث وتشاجر مع أحد من أبناء الحارة وأخبرها تردّد عليه بالكلمة ذاتها: أنت رجّال. كانت تريده أن يكون رجلاً وألاً يقال إنّ تربية امرأة، خصوصاً بعد وفاة أبيه، ومحاولة عمّه للزواج منها بحجّة أن صالح يحتاج إلى رجل ليربّيه، فوقفت متحدّية أنّها ستكون لابنها أباً وأمّاً، وليست في حاجة إلى زوج لها ليربّيه، حتى إنّ أهلها حينما أرادوها أن تعود إلى الجبل وتعيش معهم، رفضت وأصرّت أن تبقى في بيتها، وقالت لهم:

- إذا سمعتم عني ما يسيء لكم ويهين كرامتكم وشرفكم، فرصاصة واحدة في صدري تكفي.

لكنهم لم يسمعوا عنها سوى ما سرّهم وأسعدهم، وكانت فخراً لهم ومضرب مثل في حارة الوادي والجبل الأشم لصلابتها وأخلاقها وحسن تربيتها لأولادها، حتى إنّ صالحاً استلم ورث أبيه الذي كان عمّه وكيلاً لهم فيه وهو في عمر الرابعة عشرة، وقد رفض عمّه في البداية تسليمه أمواله ومزارعه بحجّة أنّه صغير، وتعهّد له ولعويدة بأن يستمر في رعاية ومتابعة أموالهم، ولن ينقصهم حقهم، ولكنّ صالح وقف لعمّه وطالبه بميراثه من أبيه، وكذلك عويذة قالت له بأنّ صالحاً أصبح كبيراً بما يكفي

ليستلم ورث أبيه، وقد كان صالح كذلك كما قالت عنه أمه، حتى إنه حين يأتي ذكره وهم يتحدثون عن شجاعته وحضوره يقولون: ليس غريباً عليه ما هو فيه من حضور وهيبة وجسارة، فهو ولد ناصر المعروف بشجاعته وهيئته، وتربية عويذة المعروفة بأخلاقها وصلابتها، فأكسبه ذلك هيبةً ومكانة بين أبناء حارته.

لقد كبر صالح قبل أوانه، وكان سابقاً لسنوات عمره في كل شيء، فتعجبت من ارتمائته في حضنها وهو في ذلك العمر، فهل بلغ به الضعف مبلغه حتى يندس اليوم في حضنها باكياً؟ لم تبخل عليه بحضن هو محتاج إليه كل تلك السنوات، وهي اليوم بالذات محتاجة أن تضمه، ومحتاجة أن تُسكن نفسها المتعبة على صدره، ومحتاجة أن تُسند عليه ضعفها فلا تنكشف، فمصاها أعظم من أن تحتمله بمفردها. وبعد أن هدأت نفسها، رفعت رأسها وتراجعت إلى الخلف قليلاً، ونظرت إليه وقالت:

- اليوم مات أبوك يا صالح.
- كل شيء أيرجع مثل ما كان يا العودة، كل شيء أيرجع، لا تحاتي يا أمي.

نظرت إليه نظرة مغزاها ألا فائدة، فما تم هدمه لا يمكن إعادته مثلما كان، فلا شيء يعود بعد الكسر، وإن عاد فسيكون مشوهاً أو لا يشبه صورته الأولى، بادرت بالقول:

- أكمل بنان العريش يا ولدي، حتى يفرجها الله وتبني لنا بيت صغير يضمنا ويسترنا.

(26)

ذهب صالح مع أمه لرؤية خديجة والأولاد، تاركًا حمدان مع عدد من العمال لإكمال بناء العرشان التي سوف يقيمونها في المزرعة، وحينما وصل كانت خديجة وأولادها في استقباله، أخذ ناصر بين يديه، وركضت نَفَافَة صوب أبيها فقبلها واحتضنها، نظر إلى خديجة دون أن يقول لها شيئًا، وهكذا هو في العادة لا يتحدث مع خديجة أمام أحد، ولا هي تحدّثه، كانت تفهم ما يريد قوله لها من نظرة عينيه، التقى بزواج أخته وابن عمه الشيخ ياسر بن منصور الذي كان ينتظره خارج البيت، فشكره على إيوائه لأسرته في هذا الظرف الصعب، لكن ابن عمّه لأمه على عودته إذ إنّ في عودته مخاطرة كبيرة، فهم يبحثون عنه، وما هدموا البيت إلا انتقامًا ورغبة في ظهوره حتى يقبضوا عليه..

- ما خايف منهم.
- ولكنك مطلوب ويقال مرصودة مكافأة عودة لمن يسلمك لهم حيّ أو ميت.
- ضحك صالح حين سمع ما قاله زوج أخته فردّ عليه مازحًا:
- عجب موه رأيك تسلمني لهم وتقبض المكافأة.
- فردّ عليه زوج أخته ضاحكًا:
- سلم نفسك بنفسك واقبض المكافأة.

ضحك الاثنان رغم مرارة الموقف وتشرد العائلة التي بقيت بلا مأوى، سأل صالح ابن عمه عمّا سمعه في الحارة من أخبار، فقال له: إنّه سمع أنّهم يبحثون عن الثّوار، وأنّ لديهم قائمة بأسماء المطلوبين واسمه أول الأسماء التي يسألون عنها، وقد نشروا جواسيسهم في كلّ مكان للبحث عنه هو بالذات، وعليه ألاّ يثق بأحد لأنّهم ما باتوا يعلمون صديقهم من عدوهم، الصاحب من المرتزق. نصحه أن يعود إلى العقبة ويبقى هناك بعيداً عن الأعين وهو سيعتني بعائلته، فهو ابن عمه وليس غريباً عنهم، لكنّ صالحاً لم يستجب لما قاله له ابن عمه وأصرّ على البقاء متوكّلاً على الله رب العالمين:

- الفئران تختبئ في الجحور، ما أنا.
- انتبه يا صالح يا بن العم، ترى هذا الأمر مجازفة، والكثرة تغلب الشجاعة وهم كثر، فلو شفّتهم يوم هدموا البيت كان صدّقت قولي، يا صالح كانوا كما الجراد المنتشر، والله إنهم أربعوا النساء والأطفال بكثرتهم وأسلحتهم وطائراتهم، وخرجت إليهم وتحدّثت معهم، ولكنهم ما يقيموا لأحد وزن ولا مقدار.
- ونعم بالله يا بن عمي.

كان صالح يعلم كلّ ذلك، وحسب حساباً لما هم فاعلون، ولكنّه لم يتوقع أن يصل بهم الشرّ والإجرام إلى أن يهدموا بيته ويشردوا عائلته، فهو يعرف أنهم يستخدمون كلّ وسائل الضغط على الثوار حتى يكسروهم

ويضعفوا مقاومتهم، ولم يكن البيت العود أول البيوت التي هدموها، فهناك بيوت أخرى في حارات مجاورة وبعيدة هُدمت لمجرد الاشتباه بأن أصحابها من الثوار أو المنتمين للإمام.

- والله ما تهنّوا ولا انتصروا وروسنا تشمّ الهوا.
- انتبه يا بن عمي، الأمر ما لعبة هيّنة، هذي حرب، وحرب غير متكافئة، فهم يملكون أسلحة قوية ودبابات وطائرات، ونحن ما نملك غير تفق صمعة وبو عشر أو كند، أسلحة ورثناها من أجدادنا، ودشداشة نستربها عري أجسادنا الهزيلة ولقمة نأكلها بلحظة جوع، الموت يحيط بنا من كلّ صوب يا صالح، ولا شيء عندنا ندافع به عن أنفسنا، كأننا نضارب الريح والريح تغلبنا، فإذا على المراوغات وزرع الغام في الطريق واعتمادنا على معرفتنا بأرضنا وبلادنا، فهذا ما أيساعدنا، هم كاشفين كلّ شيء من فوق بطائراتهم وعكّاساتهم، وإذا أرادوا قتلنا فهم يقدرّوا، الطلقة الواحدة من هذيك الدبابات تفجّر بلدة كاملة وتقتل قبيلة.
- نحن نملك الإيمان يا بن عمي، وربنا فوق الجميع، نحن أصحاب البلد وهم المعتدون علينا، سينصرنا الله عليهم، ثقتي بالله كبيرة.
- ونعم بالله، ولكن الحذر واجب، وأنت المطلوب فاحذر.
- هذا ما أفعله، الحذر.
- ما أخبار المشايخ والجماعة في الجبل، عساهم كلهم بخير ولا يشكون بأسًا.

- كلهم بخير، ويسلموا عليكم ويوصوكم بالصمود والثبات، فنصرهم بثباتنا هنا في السهل.
- اقترب صالح من ابن عمه وقال له همساً:
- وبينني وبينك يقولوا إنّ عبد الناصر أيتدخل في الموضوع، والقضية إذا أصبحت في يد عبد الناصر أيفعل فيهم العجب العجائب، ترى الرجال ما هيّين والإنجليز يحسبوا له ألف حساب.
- عسى خير، ولكن مو بيده وهو بعيد؟
- لا تستعجل، ولا تكون متشائم، كلّ شيء مرتّب له.
- أمال صالح رأسه إلى ابن عمه وهمس في أذنه:
- استعدّ، بعد باكر رايعين بإذن الله نستلم شحنة سلاح من منطقة بعيدة عند البحر، وخليّ قلبك قوي، ترى رجال حارة الوادي أسود أولاد أسود، ما يهزّهم مدفع ولا غيره.
- بإذن الله يا صالح جاهز، وأنا ابن عمك.
- وقبل أن يهّم صالح بالذهاب كانت حميدة قد أعدت حليياً ساخناً بالملح والزعر وأحضرت صحناً من الخبز المدهون بالسمن والعسل ونادت عليه:
- لا تروح يا صالح قبل أن تأكل شيء من يد أختك.
- نظر صالح إلى الخبز الذي بدا طازجاً، وكلّ خبزة منه كـرغيف من ذهب، وقال:

- كيف أروح وحميدة خبزت خبزها، ورائحة الخبز تُشَمُّ من فُرْصَة الفَلَج، خبزك يا حميدة لا يُرْفَض ولا يُرَدّ.
- جلس صالح مع ابن عمه وأكل كما لم يأكل في حياته، وكأنّه يعوّض لحظات الجوع التي عاشها وهو متحصّن في الكهوف مع الثوار، وبعد أن انتهوا من الطعام، ذهب صالح ومعه ابن عمه إلى حيث لا تعلم النساء، قالت عويذة وهي تنظر إليهما سائرين في الطريق:
- صالح وارث أبوه في كلّ شيء، حتى في روحته وجيئه ما يتكلم ولا يشاور، ويبقى فؤادي أنا تعبان.
- فردّت عليها حميدة مازحة:
- هذه تربيتك يا العودة، أنت كنت تقولي له، سوي بو في رأسك، وشاور عقلك ولا تتردد.
- هيه، قلت له وربيته على كذاك، بس ما بغيته حتى أنا ما يقول لي.
- نظرت حميدة إلى خديجة وابتسمتا، غمست عويذة الخبزة في إناء الحليب الساخن وبدأت تأكل وتناول ناصر الخبزة كي يغمسها في الحليب وهي تحدّره كي لا يحترق.
- هذي هي عويذة ما تتغير. قالت حميدة وهي تنظر إلى أمها.



في الطريق التقى صالح بسيف وخلف وذهبوا جميعاً إلى الضاحية لرؤية ما سيكون عليه بناء العرشان، لكنّ صالح لم يلبث معهم إلّا قليلاً، فبعد أن تحدّث قليلاً مع سيف تركهم وذهب إلى حيث كان متحصّناً في الكهوف

مع إخوانه الثوار المقاتلين، وفي طريقه التقى بحمدان الذي سبقه في التحرك إلى حيث اتفقا أن يلتقيا، فناوله بندقيتين كان قد خبأهما صالح مع حمدان في مكان لا يعلمه سواهما، وأخبره أن يحرص على إخفاء بقية الأسلحة، حمل صالح البندقيتين والذخيرة وبندقيته التي معه ومضى مهرولاً، تتبعه عين حمدان الذي لم يبرح مكانه حتى غاب صالح عن ناظره.

لم تستغرق إقامة العرشان طويلاً، فبعد يومين أتى حمدان إلى عويده ليخبرها أنه تم الانتهاء من كل شيء، وفوراً حزمت عويده أغراضها القليلة، وأمرت خديجة بالتحرك إلى بيتهم الجديد في الضاحية، بيت لا يساوي شيئاً أمام البيت العود بموقعه المتميز وطواقه الثلاثة، وإطلالته على فَلَج البلاد، وملاصقته للمسجد، ولكن لم تجد خديجة غضاضةً في أن تعيش في تلك العرشان ما دام المكان آمناً، وكل شيء سيعوّض كما قالت لها عويده وهي تجد في عينها انكساراً وحزناً.

انطلقت نَفَافَة من فورها مع أخيها للعب تحت النخيل ومحاولة تسلّقها، فقد وجدت في الضاحية حياة خصبة حافلة بكلّ المغريات التي كانت تتوق إليها، ولكنها كانت، مع ذلك، تفتقد نافذتها التي تلتصق خلفها، وتفتقد غرفة أمّها الدافئة ودميتها الخشبية التي صنعها لها حمدان، والتي ضاعت ضمن ما ضاع في لحظة الهدم، ونسيت أن تأخذها معها وهي تمسك بقطّتها راکضة مع أمّها وجدّتها، وقد بكت كثيراً وهي تبحث عنها، فوعدها حمدان أن يصنع لها دمية خشبية جديدة.

(27)

لم يقتصر الأمر على هدم البيت فقط، بل قُطعت الإمدادات عن الحارة، حتى السوق لم يعد فيه بضائع للبيع، ولم يعد أهل البلاد يملكون مالا لانقطاع تبادلهم السلع مع البلدان المجاورة. لقد تمّ حصار حارة الوادي، فلم يكن هناك مَنْ يخرج منها ولا مَنْ يدخل إليها؛ وبين وقت وآخر كانت الطائرات تحوم فوق سماء الحارة، ترمي المنشورات تارة وترمي القنابل تارة أخرى، وترافق ذلك الحصار مع شُحّ السيل، فانقطع الغيث، وأصابهم المَحْل، وتناقصَ منسوب مياه الفَلَج حتى أصبح غيزًا صغيرًا لا يروى نخلة عطشى، ولم تكن شجرة أحبّ إلى أهل حارة الوادي من النخلة، فكانوا يسقونها قطرة الماء قبل أنفسهم وأولادهم، لكنّ النخيل ييس سعهه وتناقصت ثماره.

ومع هذا المَحْل هزلت الشّياه، وجفت ضروع البقر، وجاع الصّغار، وبكت الأمهات خوفًا على صغارهنّ من شبح الجوع والموت، وبقي الرجال حائرين فيما يفعلون وقد أعيتهم السّبل، ونفدت الحيل من أيديهم، ذبح بعض الأهالي شياهم قبل أن تموت، وخلت البيوت من أية مؤونة أو طعام.

وتوالى المصائب وراء بعضها، فاجتاح الجراد المزارع، وأكل كلّ ما تبقى من ورق أخضر والنهم الخوص اليابس من قمم النخيل، وكأنّ نقمة

حلّت عليهم أو لعنة أصابتهم، فلم يبق لهم سوى الجوع والمعاناة، فظنّوا أنّ الله غاضب منهم لضعفهم وتخاذلهم عن نصرته دينه وإمام المسلمين، وقد أنزل عقوبته عليهم، فكان عليهم مقاومة الحياة في حربها الأشدّ ضدهم، والدعاء لله ليرفع عنهم البلاء ويكشف الغمة التي تحيط بهم، فتحايلوا للبحث عن اللقمة ولو في بطون الوديان وقمم الجبال، واستغفروا ربهم، وصلّوا صلاة استسقاء، لكنّ الله لم يقبل صلاتهم كما ظنّوا، فلم تجد السّماء عليهم بقطرة مطر واحدة، حتى تشققت الأرض من شدة الجفاف.

دارت دوائر الموت عليهم، وحات عقولهم وضعفت همهم، فأقاموا الأذان حتى في غير مواقيت الصلاة، ورفعوا أصواتهم مرتلين كتاب الله، واستغفروا ربهم مراراً وتكراراً؛ وأخيراً هدتهم الحيلة إلى أن يقضوا على الجراد قبل أن يقتلهم ويقضي عليهم، ويأكلوه قبل أن يأكلهم، فقاموا بجنيه وطبخه وأكله، فكانوا يسرون ليلاً في جماعات حاملين شوالاتهم لجنيه وجمعه؛ وقاموا بشيه على النار، فكان وجبة شهية ومغذية، ووجدوا فيه حلاًّ عبقرياً لما يعانوه من جوع ومحل وجفاف، وأصبح تناول الجراد عادةً جديدة لهم في غذائهم، فتفننت النساء في طريقة طهيّه، فأكلوه مسلوقاً أو مشوياً أو محموساً مع الدهن والبصل، وتفننوا كذلك في حفظه، مُجفّفاً أو مُملّحاً، فشكروا الله وحمدوه على نعمة الجراد الذي أشبع بطونهم بعد جوع، فلولا أن هداهم الله إلى جنينه لماتوا جوعاً.

تسابق الجميع في جني الجراد، فكانوا يغافلون الجند ويذهبون ليلاً إلى الفلاة لجنيه، فسرى حمدان مع مَنْ سرى من الرجال الذين يذهبون لجني الجراد، وكانت عويذة حين تستيقظ تجد شوال الجراد تحت شجرة المانجو وقد ذهب حمدان لسقي نخيلاته بما تبقى من ماء يتقاسمه مع بيادير الحارة، فتحمد ربّها وتدعو لحمدان بدوام الصحة والعافية، وحين تخرج خديجة من غرفتها بعد أن تكون قد صلّت فرضها تخبرها عويذة أن تضعه في المرحل الذي سكبت فيه الماء وأوقدت النار تحته، فتفتح خديجة الشوال المربوط وتسكب الجراد في الماء المغلي بسرعة وحذر قبل أن يطير، وتضيف عليه كسرة من الملح، وتغطي عليه حتى ينضج، بينما تبدأ بإعداد وجبة الإفطار وكنس المكان من الأوراق المتساقطة، وما إن ينضج حتى تُخرج الحطب من تحت المرحل وتبقية على قليل من الجمر حتى يخبو ويتشرب الجراد ماء السلق، فتأخذ منه بما يكفي لوجبة الغداء، فليس هناك أشهى من جرادة مطبوخة طازجة، وتقوم بتجفيف ما تبقى منه على المسطاح المصنوع من جريد النخل الموجود بجانب العريش، وكذلك كانت تفعل بقية النساء حتى اكتفى أهل الحارة بالجراد وجبة يومية ومخزوناً غذائياً أغناهم في أيام الفقر وأشبعهم في لحظات الجوع، حتى إنّ مرهون بدأ يتاجر به في دكانه كسلعة مربحة.

ولكن مع الجني اليومي، تناقص الجراد يوماً بعد يوم حتى اختفى، وما عادوا يرونه أبداً، وكان محظوظاً من يعثر على جرادة. ومع اشتداد الجوع

وجفاف الأرض وحصار البلاد خلا بيت عويذة من مخزون الطعام والحبوب واللحوم فأمرت حمدان أن يذبح إحدى الشياه التي كانت على وشك الموت من هزالها، فذبحها فلم يملأ لحمها زبيلاً من السَّعف، طبخت منه خديجة ما يكفي لغدائهم في ذلك اليوم، وقام حمدان بتقطيع ما تبقى منه في شرائح طولية، فركته عويذة بالملح والثوم والكرم لإعداد القديد ثم قام حمدان بتعليقه بحبل ربطه بين نخلتين حتى لا تصل إليه القطط أو الدواب الأخرى، وكانت نَفَافَةٌ تهشّ القطط التي جلست تحته مباشرة تلحس العصارة اللزجة التي تقطر منه في الأيام الأولى لتجفيفه، تركت عويذة اللحم معلّقاً في الحبل ما يزيد على عشرة أيام، حتى تأكدت من أنّه أصبح جافاً، فقامت بتخزينه في جراب سعفي صغير، فكانت مرقّة لحم القديد وجبة شهية يتناولونها مع قليل من الخبز اليابس في تلك الأيام، كانت عويذة تحرم نفسها من اللقمة لتطعم أحفادها، فتشبع من شبعهم، ومضت أيامهم في كفاف وستر، كلّ يوم يأتي رزقه القليل معه، متّكلين على الله رب العالمين، مؤمنين أنّ من يعيش في حارة الوادي لن يموت من الجوع، وأنّ من يرزق الطير في سمائه سيرزقهم، مهما قست الحياة وتكالت عليهم المصائب.



واصل أهل الحارة دعاءهم وصلاتهم واستغفارهم حتى استجاب الله لهم وقبّل استغفارهم، فهطلت السماء عليهم مطراً غزيراً مدراراً، وسالت

الأودية وامتلاأت ساقية الفلج بالماء حتى فاضت عن جوانبها، وانتعشت النخيل واخضرت الأوراق، وبدأت الحياة تدبّ على أرض حارة الوادي مرة أخرى، سمعوا نقيق الضفادع وتغريد العصافير بعد أن غابت أصواتها طوال تلك الفترة حتى ظنوا أنّهم لن يسمعوها مرة أخرى. وعادوا يحرثون أراضيهم ويزرعونها حتى أينعت الأشجار التي كانت على وشك الموت، فاستبشروا خيراً بعودة الحياة في السهل والجبل. وكان أهلهم في الجبل يمدّونهم بما يستطيعون من فواكه الجبل وخيراته من جوز ورمان وخوخ ومشمش، وهم يمدّون أهلهم في الجبل بأجود أنواع التمور والمانجو والليمون، وقد تراجع الحصار عنهم لأسباب لم يفهموها ولم يعرفوها، فاطمأنت نفوسهم بعد خوف، وشبعت بطونهم بعد جوع، وحمدوا الله كثيراً على نعمه.

ولأنّ الحياة متقلّبة ولا تستقر على حال، حلّقت الطائرات مرة أخرى، ورُميت عليهم المنشورات، فلم ينحنوا لالتقاطها، ولم يكن لديهم فضول لمعرفة ما فيها، فأتت النداءات عبر مكبرات الصوت بلسان عربي واضح مفهوم، بأن بيوتاً أخرى ستهدم إذا لم يسلم الثوار أنفسهم، وهذه المرة لم يمهلوهم كي تستعيد البلاد عافيتها، إذ سرعان ما هُدّمت بيوت مجاورة للبيت العود، فخرج أكثر أهل الحارة من بيوتهم، وأقاموا عرشاً في مزارعهم وضواحيهم ومقاصيرهم وسكنوا فيها، حتى تكاثرت العرشان المبنية في المزارع، وأصبح في كلّ مزرعة عريش وأكثر، يعيش فيها أصحاب المزارع الذين هُدّمت بيوتهم. زاد عدد البيوت التي هُدّمت ولم يبقَ منها سوى شواهد حجرية. عوت الكلاب الضالة في الحارة المهذّمة

وماءت فيها القطط الجائعة، وتعاركت فيها الضباع المتوحشة الباحثة عن فريسة تأكلها، وأصبحت بعض البيوت خرائب لالتقاء السحرة والزّناة والفاسقين. واشتدّ الحصار مرة أخرى، فكان أهل الحارة في كثير من الليالي ينامون وبطونهم خاوية رغم خيرات أرضهم، بعد أن منعهم الجنود من الخروج وتجاوز أبواب بيوتهم حتى لم يعد في البيوت ما يُسكت جوع طفل صغير.

ابتعد الجند ولم يعد لهم وجود في دروب الحارة، ولم تعد الطائرات تحوم فوق رؤوس الجبال وقمم النخيل كما كانت. قيل إنّ الجيش تراجع عن مهاجمة البلاد، وقيل إنّ السلطان والإمام اتفقا على أن يبقى الإمام إماماً على جماعته ومن ارتضى به وبايعه، وأن السلطان يبقى سلطاناً على من رضي به في حدود المناطق المتفق عليها، حقناً للدماء وحرصاً على مصلحة البلاد والعباد.

استبشر أهل حارة الوادي خيراً حتى إنّ بعض الرجال تداولوا فيما بينهم خبراً أن معاهدة جديدة أبرمت بين الإمام والسلطان، وأنّ شيخ الجبل وشيخ الشراقي مثلاً الإمام فيها، وأنّ الحرب وضعت أوزارها، فاستبشر أهالي حارة الوادي خيراً، وصلّوا في تلك الليلة صلاة الشكر، واتفقوا على أن يصلحوا بناء المسجد وقيموا جداره المنهدم.

(28)

عاد الثَّوَّار من معاقلهم، وقبل الفجر كان صالح في بيته وكذلك بعض الثَّوَّار الذين معه، رغم خشيتهم بأنَّ ذلك ليس إلا فخاً أو مكيدة كما هي العادة، لكنَّ الأخبار التي وصلتهم تبشِّر بالخير وإن كانوا غير متأكدين من صحتِّها، وحياة الكهوف صعبة لم يعد باستطاعتهم البقاء مختبئين فيها كلَّ هذه المدة، أصيب كثيرٌ منهم بالأمراض، مات بعضهم، فكان من لم تقتله رصاصة يقتله الجوع، ومن لم يقتله الجوع تميته لدغة ثعبان. نزلوا من كهوف الجبال وعادوا إلى بيوتهم التي لم تكن آمنة ولا ممتلئة بالطعام كما كانوا يحلمون.

ولأنَّ اليوم الذي يعود فيه صالح إلى عويذة يوم عيد، أخرجت في ذلك الصباح كلَّ ما خَبأت من طعام ليأكل ويُرَمِّم هزال جسده ويستعيد عافيته ونضارة وجهه، خبزت له أقراصاً من طحين البرِّ الذي تخبَّئه، مُشْرِبةً إياها بالسَّمْن ودبس التمر، وأخرجت اللحم المقدد من الخصفة كي تُعَدَّ له منه وجبة غداء شهية.

وحين خرج صالح من حدود المزارع والضواحي وأسوارها إلى درب الحارة القديم متفقِّداً البيت العود، هاله ما حدث في الحارة من دمار، فالبيوت التي كانت عامرة أضحت ركاماً وخراباً تصفر فيها الريح، لقد فعلوا فعلتَهم ولم يحاسبهم أحد! أقسم صالح بخالقه أنَّه سيتنقم لبيته

ولحارته، وأنَّ ما فعلوه بهم لن يمرَّ دون عقاب، الحرب حربُه وحرب أبناء حارته، وكرامة الرجل في ثأره ممَّن ظلموه ودَّبروا دياره.

التقى بسيف ومرهون وسليمان وخلف وبعض الجيران في الطريق، ساروا معًا متأمِّلين ومتألِّمين للحال التي وصلت إليها حارتُهم، وجلسوا في دكَّات مدخل الحارة، يفكِّرون في طريقة يُخرجون فيها حارة الوادي من هذا البلاء العظيم، فكلَّ ميراث أجدادهم وتاريخهم وما بنته أيديهم تعرَّض للهدم والدَّمار. هدأت نفس صالح قليلًا بعد لقائه بهم، وزال عن صدره بعض ما كان يجد من همٍّ ثقيل وألم شديد، ففي صدورهم مثل ما في صدره، فتقاسم معهم همومه وآلامه، وكانوا بين غاضب وراغب في الانتقام، ومستسلم للأمر وراضخ للواقع، خشي صالح أن يصيب القوم عدوى الاستسلام والرضوخ مع مَنْ أصيبوا.

وبعد أن قاموا سار مع سيف وخلف وتحدَّث إليهما حديثًا خاصًّا، ثم ذهب إلى حمدان المنشغل بزراعته، ناداه، فهب حمدان راكضًا إليه فرحًا بقدمه، جلس إلى جانبه على ساقية الفلج، صالح يتحدث وحمدان يُنصت باهتمام كبير، وحين ذهب صالح واصل حمدان سقي الزرع.

بعد تلك اللقاءات السريعة وما دار من حديث بينهم، قرَّر صالح ألا يطيل البقاء، فالحرب لم تنتهِ، ذهب إلى البيت، وكانت رائحة الطعام تملأ المكان، بعد الأكل أخبر أمَّه أنَّه قبل أن يعود إلى الجبل سيُبنى في المزرعة بيتًا طينيًّا صغيرًا بدلًا من العريش. صُدِّمَت خديجة وهي تسمعه يتحدث

عن الأمر مع موافقة عويذة على ذلك، وقد كانت تأمل أن تعود إلى بيتهم في الحارة بعد أن تتم إعادة بناء ولو جزء صغير منه، فالحياة في الحارة لا تشبه الحياة وسط الضواحي وتحت النخيل وبين الضفادع والحشرات، وحين دخل الغرفة لحقته وسألته بتردد وكأَنَّها لم تسمع ما قاله لأمه:

- وتو موه قررت، نبقي هنا ولا نرجع بيتنا؟
- وكيف نعيش في بيت مهْدَم، وما بقي من البيت غير الطابق السفلي، المخازن والزرائب، هين نرجع وبنيان البيت يحتاج مال، وأنا كما أنتِ شايقة ما عندي غير سلاحي.

تنهد صالح تنهيدة طويلة وهو ينظر إلى خديجة.. وأضاف:

- زمن ناصر بن حَمَد راح، وهيبته راحت، وكما يقولوا النار خلفت رماد.
- لا تقول كذاك، أنت ما أقلّ عن أبيك وجدودك، لكن الزمان تغيّر، وكُلّ أمرك لرَبِّك وبو تشوفه مناسب افعله.
- ربّك كريم، والله قادر على كلّ شيء، وقد يتغير الحال بين لحظة وأخرى.
- ونعَم بالله.

بنى صالح بمعاونة حمدان والجيران بيتًا طينياً صغيراً، من غرفتين وخلفهما مطبخ ليس أكثر من عريش مسقوف بسعف النخيل، وزريتين من السَّعف للأبقار والأغنام، وأحاط حوش البيت بسور قصير من أربع

طُفالات فوق بعضها مغطاة بالطين والتبن أمام الغرفتين، سور يُظهر أكثر مما يستر، ولكن يبقى حدًّا فاصلاً بينه وبين الطريق والساقية وأملاك الجيران، فعند ذلك السور القصير يكون حرم البيت، وقد بنى بقية الجيران بيوتهم على نفس النسق، كل البيوت لم تزد عن غرفتين وملاحق من زرائب للغنم والبقر، تعاونوا جميعاً لبناء تلك البيوت الصغيرة المتشابهة، فكانوا كلّما انتهوا من بناء بيت بدؤوا بناء بيت آخر، حتى تكاثرت البيوت الطينية وسط مزارع النخيل، وسُمّيت تلك البيوت «بيوت المال»، والمال بالنسبة لهم المزرعة؛ فالمزارع لأهل حارة الوادي هي ثروتهم ومالهم ومن يملك نخلاً يملك مالاً، والنخلة هي رأس المال؛ منها يستخرجون غذاءهم، ويصنعون أوعيتهم وأدواتهم، ويبنون بيوتهم، ويشعلون نارهم...

انتقل أغلب أهالي حارة الوادي إلى بيوت صغيرة تحت نخيلهم تاركين بيوتهم المهدّمة على أمل أن يعودوا إليها ذات يوم بعد أن يأمنوا على أنفسهم وأولادهم، ويتأكدوا أن الحرب انتهت، لكنّ الحرب لم تنتهِ، ولن تنتهي كما هم يعلمون وكما علّمتهم الحياة، فما كانت تلك الفترة إلّا استراحة المحارب لكلا الطرفين.

لم تتوقّف حياة أهل حارة الوادي بعد هدم بيوتهم والسكن في المزارع، ولم يشلّ الحزن حركتهم ولا حبّهم للحياة، فسرعان ما تأقلموا واعتادوا الحياة في مزارعهم.

(29)

بعد صلاة المغرب أخذت عويذة حفيديها إلى بيت العجوز صبيحة البارعة في سرد الحكايات والأخبار وإنشاد المسبّعات؛ وبما أن بيتها أصبح أقرب فهي فرصة ليستمتع ناصر ونفّافة إلى حكاياتها، فالعجوز صبيحة وادٍ من القصص والحكايات وبحر من العلم، ومحفوظ من يجلس إليها ويستمتع لها، وفي الطريق مرّت عويذة على بيت جارتهم زهرة القريب من بيتهم، وأخذت حمود وأختيه سلامة ومنّة ليكونوا برفقتهم، وفي الطريق كان الأطفال يتوافدون ويسيرون بصحبة أمهاتهم حاملين قناديلهم وفوانيسهم متجهين إلى نفس المكان، فما من طفل إلا ويحب حكاياتها، ويتنظر المساء حتى يأتي لتأخذه أمّه أو جدّته كي يستمع للحكايات والأخبار التي لا تخلو من غرابة وتشويق.

تسير نفّافة بفضول إلى بيت صبيحة الذي تخيلته كبيراً ومختلفاً عن بقية البيوت، كما تخيلتها امرأة ضخمة وطويلة وتجلس مسندةً ظهرها على وسادة كبيرة وهي تحكي. لم تكن نفّافة قد التقت بالعجوز صبيحة من قبل، فقلّما تخرج صبيحة من بيتها، وأهل الحارة يبادرون دائماً إلى زيارتها، وأرادت نفّافة أن ترى هذه المرأة التي يحبّها الجميع ويقدرها، حتى أبوها صالح كان يذهب إلى زيارتها، وكم من مرة سمعت جدّتها

عويدة تذكره بزيارة العجوز صبيحة وكأن زيارتها واجب مقدّس، وكلّما أقاموا وليمة وذبحوا، تخصص لها عويذة نصيباً من لحم الذبيحة ليأخذه حمدان إليها في طريقه إلى الضاحية، وأحياناً تذهب عويذة بنفسها حاملة إليها الطعام مطبوخاً.

سارت نفاة متشوّقة ومتلهّفة لسماع الحكايات العجيبة ولرؤية العجوز التي أوصتها جدّتها أن تقبل يدها ورأسها حين تصل، وأن تقول لها حبّوة صبيحة فهي جدّتها وجدّة كلّ الأطفال في الحارة، وذلك ما لم تفهمه نفاة وما لم توضّحه لها جدّتها، وكذلك الأمر بالنسبة لناصر الذي قالت له ما قالته لنفاة، فهز رأسه قائلاً لجدّته: «انزين».

يقرب حمود من نفاة التي كانت تسير بجانب سلامة ويقول لها:

- أتحبّي العجوز صبيحة، وأتحبّي حكاياتها، والله تحكي حكايات عجيبة وغريبة ما أعرف من هين تجيبهن.

قالت سلامة:

- تجيبهن من بخشتها.
- فتح حمود عينيه:
- حلقي، قولي والله العظيم.
- ما أحلف، ولكنّي شفتها تفتح البخشة قبل أن تتكلم.

زاد كلام حمود وسلامة من لهفة نَفَافَة لسماع العجب في تلك
الحكايات ورؤية تلك المرأة العجيبة.

كلّ أهل الحارة يحبّون العجوز صبيحة ويقدّرونها ويحترمونها رغم
أنّها في الأصل ليست من حارة الوادي، بل أتى بها زوجها إلى الحارة،
وأسكنها في بيت صغير ما زالت تعيش فيه حتى اليوم، ورغم عمش عينيها
لم تكسل في القيام بواجباتها المنزلية وجلب الماء من القُرْصَة، والذهاب
إلى المَجازة وغسل ملابسها وأوانيها من ساقية الفَلَج، كما أنّها كانت
تسير في الدرب دون عصا تستعين بها، قائلة إنّ الله أعطاه نوراً تهتدي به،
إنّ نور القرآن الذي يسكن قلبها ويُسعِرُها بالأمان، فلا تخاف إنساً ولا
جنّاً، مرددة أنّ مَنْ يحفظ القرآن يحفظه الله به.

ويقول أهل الحارة إنّها امرأة مكشوف عنها الحجاب، وترى ما لا
يرونها، فهي حافظة للقرآن، وعارفة بكثير من العلوم، ومعالِجة للأمراض،
ومولّدة لكثير من نساء الحارة؛ وقد أرضعت صالحاً كما أرضعت غيره
ممن كانوا في مثل عمره، ففي تلك الأيام التي ولد فيها صالح توفي ابنُها
الرضيع، فكانت تذهب إلى البيوت وترضع كلّ طفل تجده باكيّاً أو
جائعاً، وخصوصاً أبناء النساء اللواتي يذهبن إلى الفلاة أو الضواحي، وقد
كانت تفعل ذلك دون مقابل أو أجر، حتى أصبح معظم شباب الحارة
أبناءها بالرضاعة.

مات أطفالها جميعاً في سنّ صغيرة، ومات زوجها بعد أن لدغته أفعى سامة وهو ذاهب إلى الفلاة. وبعد موت زوجها أتى أخوها وأراد أن يأخذها لتعيش معه، لكنّها رفضت وأصرت أن تبقى في بيتها قائلة له: إنها بين أهلها وجيرانها، وستحيا وتموت في هذه الحارة التي أحبّتها وأحبّها أهلها وحفظت دروبها. ورغم أنّها تقارب عويذة سنّاً لكنّها تبدو أكبر بسبب هزالها وانحناء ظهرها، ولبسها السواد، لذلك يسمّونها العجوز صبيحة في غيابها، وينادونها «ماه صبيحة» في حضورها.

عاشت العجوز صبيحة وحيدة في بيتها، ورفضت الزواج ممن تقدموا لخطبتها، وما خطبوها لجمال في وجهها أو امتلاء في جسدها؛ فمنذ أن عرفها أهل الحارة وهي امرأة نحيلة تكاد عظامها تبرز من فرط هزالها، صغيرة الحجم وضئيلة كطفلة في العاشرة، حنطية اللون صغيرة الوجه، ولكن خطبوها لعلمها ودينها، ولأنّها أتت من بيت علم ودين، فقد كان أبوها عالماً وإمام مسجد ومعلّماً للقرآن، وحافظاً للسنة وكتب الفقه، ويقال إنّ أباهما كان مرجعاً للإمام والمشايع كلما استعصت عليهم مسألة فقهية أو اختلفوا على أمر من أمور الدين، وكان يحفظ كلّ الكتب في صدره وعقله من القراءة الأولى، وقد ورثت صبيحة عن أبيها تلك المقدرة والموهبة، رغم أنّه لم يعتمد في البداية تعليمها كما اهتم بتعليم أخيها، لكنها كانت تجلس خلف الجدار حيث كان أبوها يعلم تلاميذه، فتفهم ما لم يفهموه، وكانت أسرع منهم في الحفظ.

اكتشفها أبوها، ولم يغضب بل اختبرها، فتعجب من حفظها ومن نباهتها، وكان يبحث عن شخص يضم في صدره علمه وحكاياته حتى لا تُدفن معه بعد موته، فوجد فيها خير من سيمحمل عنه ويحفظ، أدخلها المدرسة معه وكانت أوّل فتاة تدرس بين الأولاد في مدرسة القرآن، فعلمها القراءة والكتابة؛ وحينما كبرت وتأكد من حفظها للقرآن وفهمها لأمر الدين، عهد إليها بتدريس الأطفال الصغار رغم أنّها كانت تعاني من ضعف البصر واحمرار العينين وتساقط الدموع بشكل دائم، ومن يراها يظن أنّها باكية، لكنّها كانت خير من قام بالمهمة، وعلمت الأطفال ونالت ثقة أهل بلادها في تعليم أبنائهم، وذلك ما شجّعهم على أن يعلّموا البنات مع البنين في حلقتها. أخذت صبيحة العلم من أبيها، وحفظت القرآن كاملاً مع الأحاديث النبوية في كتب السُنّة، وعرفت من الأخبار والحكايات والأشعار ما لم يعرفه ولا يحفظه غيرها، وحين شخّ نور عينيها وما عادت تبصر من سطور الكتب إلّا القليل، كانت قد حفظت كلّ ما قرأته وما ألقاه أبوها عليها في قلبها، فكانت مرجعاً لأهل الحارة في كلّ شاردة وواردة، حتى إنّ المعلّم خلفان نفسه كان يرجع إليها في كثير من المسائل والتفاسير التي تستغلّق عليه.

(30)

وصلت عويذة ومعها الصغار إلى بيت العجوز صبيحة، كان البيت قد امتلأ بالأطفال وأمهاتهم المنتظرين سماع الحكايات والمسبّعات والأخبار، تعجّبت نَفَافَة من ذلك البيت المكوّن من غرفة واحدة دون سور ولا ملحقات، وقبل أن يدخلوا همس حمود في أذن نَفَافَة:

- أتشوف فيها جالسة في نفس المكان تحت الروزنة، سائدة ظهرها على وسادة صغيرة، وسلّمي عليها، ولما تمدّي لها يدك بتمسكها بقوة وما تفلّتها، قبضتها كما الحديد، وهي تعرفنا كلنا من لمسة يدنا، وأتسألك عن اسمك وتخبرك عن أمك وأبوك وجدودك، حبّوه صبيحة عندها جنية تخبرها كلّ شيء.

استمعت نَفَافَة بخوف وشكّ لما يقوله حمود عن العجوز صبيحة. وقفت عويذة خارج الباب؛ فالمكان مزدحم بالصغار، أمرتهم بالدخول، وأكدت على نَفَافَة أن تسلّم عليها. دخل الأطفال، حمود يتقدّمهم ونَفَافَة خلفه ممسكة بيد ناصر، يفسح لهم الأطفال طريقاً حتى يصلوا إلى مكان العجوز صبيحة التي كانوا بالكاد يستطيعون رؤيتها، ليسلموا عليها قبل أن يُفسّح لهم مكانٌ للجلوس عليه، ووقفوا في منتصف الطابور فقد كان أمامهم عدد من الأطفال ينتظرون دورهم للسلام عليها، بينما النساء يخرجن من الغرفة لضيق المكان، تاركات أطفالهن في الداخل، يجلسن

في الخارج يتحدثون عن أسرارهنّ ومشاكلهنّ وحكايات أخرى، ويعود بعضهم إلى بيوتهنّ، ثم يعدن لأخذهم عند أذان العشاء.

وحيثما نظرت نَفَافَة إلى المرأة الجالسة التي كلّما مر طفل انحنى مقبلاً يدها ورأسها، وجدتها عجوزاً ضئيلة الحجم، حتى إنّ بعض الأطفال كانوا يبدون أكبر منها حجماً، تجلس في المكان الذي أخبرها عنه حمود، وكانت الأيدي الصغيرة تمتد إليها، فتُبقي اليد الصغيرة في يدها وتمسح عليها وهي تُحدّث الطفل وتقول له اسمه كاملاً، ثم تسأله عن أهله وحالهم فيقول لها إنهم يسلمون عليها، فتدعو له ولهم بالخير والبركة.

وبعد أن سلّم حمود وأتى دور نَفَافَة، مدّت يدها مصافحة، لاحظت نَفَافَة أنّ يد العجوز صبيحة عروقتها بارزة، ناعمة ولينة على عكس يد جدّتها عويذة، قبضت على يدها وأبقتهما بين يديها تتلمسها وتقلّبها ظهرًا وبطنًا، فعرفت أنّها طفلة لم تأت من قبل إلى مجلسها، فقرّبت منها رأسها وكأنّها تحاول رؤيتها، وسألتها بصوت هادئ منخفض:

- من أنتِ؟

لم تنبس نَفَافَة بكلمة واحدة، فكانت يدها متعرّقة وترتجف في يد العجوز صبيحة وقلبها الصغير ينبض بتسارع، تنظر إلى تلك العجوز الصغيرة التي تحدّق بها بعينين نصف مغلقتين، فردّ حمود قائلاً:

- نَفَافَة بنت صالح بن ناصر، حبّوه صبيحة أنتِ ما تعرفيها، أول مرة

تجي.

- ظلت العجوز صبيحة ممسكة بيد نَفَافَة، وشدّتها إليها برفق وقالت:
- وكيف ما أعرفها؟! هذي الغالية بنت الغالي، كيه أنا مرّضعه أبوها.
- انحنت نَفَافَة وفعلت كما يفعل الأطفال، قبلت يد العجوز صبيحة ورأسها، وقالت لها بصوت مرتجف:
- حبّوتي عويذة تسلم عlish.
- ابتسمت العجوز صبيحة وقالت:
- الله يسلمها بالخير والعافية، وهين هي، ما دخلت؟
- لم ترد نَفَافَة، فقرّبتها المرأة إليها وحضنتها، فشمت فيها رائحة عطرة كرائحة أمّها، أطالت الحديث معها وهي تسألها عن أبيها وأحواله، وطابور الأطفال ينتظرون دورهم في مصافحتها، لكنّ نَفَافَة ما كانت تجيب إلا إجابات مقتضبة أو لا تجيب، فكانت أصغر من أن تعرف الإجابات عن تلك الأسئلة التي تسألها إياها، قدّمت نَفَافَة أخاها ناصر الذي مدّ بدوره يده الصغيرة إليها، فاحتضنته ولم تطلّ بقاء يده في يدها كما فعلت مع نَفَافَة، لكنّها مسحت على رأسه ودعت له بدعاء هامس.
- وبعد أن سلّم الأطفال جميعهم عليها، جلسوا متحلّقين حولها، وحينما اطمأنت لجلوسهم، نادى على نَفَافَة وقالت لها:
- قربي نَفَافَة بتي، وتعالى جلّسي جنبي، تعالي.
- ترددت نَفَافَة فشجّعته سالمة التي كانت تجلس في الصف الأمامي، وقامت من مكانها وكانت قد جلست في وسط الصفوف، فأخذت ناصر

معها واقتربت من العجوز صبيحة التي أشارت لها بيدها أين تجلس، مسحت العجوز صبيحة على رأس نَفَافَة وقالت:

- اليوم يا أولادي، وقبل أن أحكي لكم الحكاية، أحدثكم عن رجل شجاع، ما خلق الله مثله من قبله ولا بعده، العين عين صقر ويقال إنه يرى من مسافة يومين وثلاث من قوة بصره، والقلب قلب أسد، له هيبة وشجاعة يخبر من يراه في مكانه من الرهبة، يطير كما العقاب إذا مشى في درب، ومحفوظ من أدركه وشافه، ومحفوظ أكثر من التقى به وجلس قربه وعرفه، هذا الرجل ليس حكاية في كتاب، ولا قصة من قصص بلاد الواق واق، هذا ولد حارة الوادي، ورجله داست على هذا التراب.

أتى صوت من وسط الجلسة:

- من هذا الرّجال حبه صبيحة؟
- هذا «ابن الليل» ناصر بن حمد، جدّ نَفَافَة وناصر. وما أظن واحد منكم ما سمع عنه، سمعته واصله برّ وبحر.

قالت ذلك بحماسة وهي تمسح بيدها على رأس نَفَافَة التي كانت تشعر بشيء من الفخر أن تخصّها العجوز صبيحة بهذا الاهتمام والعناية، وزادها فخراً حديثها عن جدّها ناصر الذي طالما سمعت عن حكاياته وبطولاته من جدّتها عويذة.

سكتت العجوز صبيحة ثم تنهدت وقالت:

- وتويا أولادي جهّزوا ثبانكم، أنا أنشع وانتوا رقطوا.

يتحرك الصغار في أماكنهم لتهيؤوا لما ستلقيه لهم العجوز صبيحة من حكايات، فيحدثون جلبة وشيئاً من الفوضى، فهم يعرفون أنّ العجوز صبيحة كريمة في حكاياتها، وفي كل ليلة تنتقل بهم بين عوالم شتى من حكايات حزينة حتى البكاء، وحكايات هزليّة يكادون يتبولون في سراويلهم من شدة الضحك، وحكايات واقعية عن الحارة وتاريخها وأهلها، وأحياناً تأخذهم إلى عوالم غريبة عن السحر والجنّ، فيرتجفون خوفاً حتى إنّهم يلتصقون ببعضهم بعضاً من شدة الفزع، وكان لها قدرة عجيبة على جذب انتباههم بصوتها المنخفض في رتم هادئ في غير بطء ولا سرعة، فتبقيهم مشدودين إليها من أصغرهم إلى أكبرهم في سحر غريب حتى تنتهي الحكاية، فلا يبقى في تلك الغرفة المعتمة إلاّ صوتها وما تلعبه الحكايات في مخيلة الأطفال المستمعين إليها، وتختتم رمستها معهم بقصائد المعلّقات التي تحفظها كاملة عن ظهر قلب، فتلقياها ملحّنة كما كانت تسمعها من أبيها، حتى الأطفال الصغار الذين كانوا لا يفهمون بعض الكلمات في القصائد كان يعجبهم صوتها وهي تلقياها في لحن أسر للقلوب، وقد يستوقفها أحد الأطفال الأكبر سنّاً عن معنى كلمة لم يفهمها فتتوقف وتشرح له ثم تواصل قصيدها.

وما كانت تبدأ الحكاية إلا بعد أن تتأكد أنهم تهيؤوا بالصمت والجلوس في أماكنهم، تقول لهم: «أبغاكم كما قطرة سمن جامدة»، وحين تتأكد من ذلك تهزّ رأسها وتنهّد وتتحرك قليلاً مغيرة من وضعية جلوسها، لتبدأ الحكاية.

تنادي العجوز صبيحة على سالمة وتطلب منها أن تحضر لها كوب ماء، فتقفز سالمة من مكانها، تسكب الماء من الجحلة المعلقة في وتد الجدار وتحضر لها كوب الماء وتناولها إياه، تسمي باسم الله الرحمن الرحيم وتشرب قليلاً منه، وتبدأ بإلقاء أبيات من الشعر، تاركة الكوب في يدها، تشرب منه جرعات قليلة بين وقت وآخر وهي تلقي قصيدها. وبعد أن تنتهي من إلقاء أبيات القصيد، تشرب جرعة أخرى من الماء وتجتر نفساً عميقاً ثم يأتيهم صوتها مرة أخرى هادئاً وكأنه يأتي من زمن الحكاية التي تحكيها.

- أحكي لكم حكاية «نبعة وخوتها السبعة»، ويقال يا أولادي، والله أعلم، أن هذه الحكاية حدثت من زمان بعيد في حارة الوادي. يسألها مبارك:

- وما هي حكاية نبعة وخوتها السبعة حبّوه صبيحة.
- يا ولدي يا مبارك ما تكون عجول، الحكاية جاية في الطريق، بس أنت افتح قلبك قبل أذنيك إذا بغيت تسمع وتفهم.
يسكت مبارك ويتهيأ الأطفال لسماع الحكاية.

(31)

يسود الهدوء غرفة العجوز صبيحة، ينتظر الأطفال في ترقّب وشوق ما ستحكيه لهم، تصمت ثم تتنحّج وتتحرّك قليلاً في مكانها، تتلمس الوسادة خلف ظهرها وتعّدّل جلستها وتبدأ:

- يقال يا أولادي أنه كان هناك بنت جميلة اسمها نبعة، ولكن فوق أنّها جميلة كانت شجاعة، وكان عندها سبعة إخوان ذكور، وفي صباح يوم من الأيام راحت الأم توظّط أولادها من النوم، فما وجدتهم على فراشهم، نبعة بس كانت وحدها على الفراش، صرخت الأم وضربت على رأسها وصدرها واستغاثت بالأهل والجيران، وبحثوا عنهم وفتشوا في كلّ مكان ولكن كأنّ الأرض انشقتّ وابتلعتهم، وما عثروا لهم على أثر. كادت الأم تجنّ من الخوف والهلع لفقد أبنائها، تو هين راحوا أولادها، هين راحوا؟! ما أحد يعرف!

نجّمت الأم وبصّرت وحوّرت عند الباصر لعله يقدر يخبرها هين راحوا وما حدث لهم، جلس الباصر ورمى الحصى على الأرض، وفكر وتأمّل وحسب، والأم كما سكاكين يقطعن قلبها ويمزقن روحها، ترى بو هي فيه ما قليل.

وبعد صمت رفع راسه قال لها:

- أشوفهم معلّقين في قمة جبل داخل كهف.

أصاب قلب الأم الهم والكدر وعادت.
سألت نبعة أمها:

- ماه، موه قال الباصر، هين خوتي؟

خبرت الأم نبعة بما قاله الباصر، ودنت نبعة من أمها وقالت:

- ما تحاتي ماه، ولا يصيب قلبك الهم والكدر، أنا أبحت عنهم وأنا أرجعهم.

أتى صوت خفيف قريب من العجوز صبيحة:

- وكيف تقدر نبعة ترجعهم؟

فكانت السائلة فتاة صغيرة تجلس في الصف الأمامي، فتبسمت العجوز صبيحة وهي تذكرها أن عليها أن تسمع ولا تقاطع. ترفع العجوز صبيحة رأسها وكأنها تنظر إلى شيء في السقف، ثم تنظر إلى الأطفال وكأنها تتأملهم أو تتأكد من وجودهم وهم غير متأكدين إن كانت تراهم أم لا، وتقول لهم:

- رفضت أمها في البداية أن تذهب نبعة، خافت تفقدها كما فقدت

البقية، لكن نبعة ما سهلة، قالت أروح، وأقنعت أمها ووعدتها أنها

أترجع ومعها إخوتها جميعاً. ركب الفتاة يا أولادي حصان أبيها

وانطلقت مسرعة، محفوفة بدعاء أمها، وما معها شيء غير شوية

تمر وسعن ماء صغير. راحت وهي ما عارفة بأيّ جبل أخوتها ولا

بأيّ كهف، جابت الفيا في والوديان لعلها تجد ما يقودها إليهم،

اجتازت نبعة الأودية والجبال وهي تنادي عليهم وتصيح:

- يا خوتي، يا خوتي، يا أولاد أمني وأبوي.

لكن ما أحد يردّ عليها غير بنت الجبل وترد عليها بنفس الكلمات:

- يا خوتي، يا خوتي، يا أولاد أُمي وأبوي.

بقيت نبعة أيامًا وليالي في هذك الصحراء المقفرة المخيفة، تصيح وتبحث عنهم متتبعة آثارهم ورائحتهم، ولكن لا هجس، ولا دليل ولا إشارة ولا أثر، وكادت أتهلك من الجوع والعطش والتعب، لأنّ الماء خلّص والتمر خلّص، وخافت تنام ويسرقها النوم عن مهمتها أو يجي أحد ويسرق حصانها أو يقتلها، فكانت تقنص الطيور وتصيد الضبوب وتأكلهن، وتبحث عن برك الماي الصغيرة بين الجبال، وهذا ساعدها وأبقاها على قيد الحياة، كانت شجاعة ما تهاب ولا تخاف ظلّتها، وكما وعدت أمها قالت في نفسها:

- ما أرجع إلّا وخوتي معي، وإلّا فأنا هالكة معهم أو دونهم.

يستمتع الأطفال إلى الحكاية في صمت وترقب، يأتيهم صوت العجوز صبيحة يخبرهم أن نبعة واصلت مسيرتها وبحثها وسارت في الدرب حتى وصلت كهفًا غريبًا معلقًا وسط جبل بعيد ودخلته، وغلبها النوم ونامت، ثم استفاقت على حركة وأصوات قرب الكهف، ومن الأصوات عرفت أنّهم إخوتها، تسارع نبض قلبها فرحة بهم، لكنها انتظرت ولم تتعجل فاخبتأت في مكان قصي داخل الكهف، دخل إخوتها ومعهم رجل، عرفت نبعة أنّه الساحر، دخل الأخوة السبعة بكامل هيئتهم ولكنها لاحظت أنّهم كانوا يستجيبون لما يطلبه الساحر منهم، فحين أمرهم بالنوم ناموا، انتظر

الساحر قليلاً ونظر في المكان وكأنه شك في وجود شخص آخر داخل الكهف، فبالغت في الاختباء، وفي ظلمة الكهف وعمته لم يرها، حاولت نبعة أن توقظ إختوها ولم يستيقظ أحد منهم وكأنهم أموات لولا أنفاسهم. وضعت نبعة علامة على الكهف كي لا تضيعه وخرجت، واختبأت في مكان ليس بعيد حتى ترى ما يحدث صباحاً، وفي الصباح ومع شروق الشمس وجدت الساحر قادماً، وعرفت أنه جارهم سبيت بو يضلّع، فتعجّبت أن يكون ذلك الرجل الطيّب الذي يعرج في مشيته، والجميع يشفق عليه لفقره وحاجته، أن يكون هو الساحر دون غيره، حين خرج من الكهف رآته يخرج مع سبعة من الخراف، فعرفت أن الساحر كان يحوّلهم إلى خراف في النهار ثم يعيدهم إلى هيئتهم الآدمية في الليل، ففكرت في طريقة تنقذ فيها إختوها، فعادت إلى البلاد حاملة البشارة لأمّها أن أختوها ما زالوا أحياء، واستشارت الباصر وأخبرته بما رأت، فنجّم وبصّر وحذّرها أنّها إن أخرجتهم من الكهف ليلاً سيظلون خرافاً، ولن يبطل السحر عنهم، فكّر وحسب حساباته، ثم أعطاهما خطة لتخليصهم. عادت نبعة إلى حيث تركت إختوها واستعدت لتنفيذ الخطة التي أشار عليها الباصر بها.

- ولكن موه أنفعل نبعة علشان تنقذ خوتها؟ سألت العجوز صبيحة.. نظر الأطفال إلى بعضهم ولم يجاوبها أحد، بل تعلّقت عيونهم بشفاة العجوز صبيحة في انتظار أن تخبرهم هي ما ستفعله نبعة لإنقاذ إختوها، ولكنّها قالت لهم:

- يا أولادي خلص الوقت والحكاية ما خلّصت. تو وقت الصلاة وغاية الرقاد.

ضجّ الأطفال وهم يطلبون من العجوز صبيحة أن تكمل لهم الحكاية، لكنها قالت لهم:

- عن الطمع يا أولادي، كيفيكم ما سمعته هذي الليلة، تعالوا باكر أخبركم باقي الحكاية، أتحصلوني جالسة في نفس المكان إذا كنت فوق هذي الأرض وما تحتها.

يتراخض الأطفال إلى أمهاتهم المنتظرات بالقرب من الباب خارج البيت، تختلط الأصوات في كلمة واحدة..

- خلا...

يرتفع صوت المؤذن من المسجد القريب، فيطير الأطفال كما تطير العصافير من عشّها بعد انتهاء الحكاية، وهم ما زالوا يفكرون في كلّ كلمة قالتها لهم العجوز صبيحة.

لم تنم نَفَافَة في تلك الليلة، بل ظل فؤادها مُعلّقًا بالحكاية التي حكّتها لهم حبّوه صبيحة، وشُغِلَت بالتفكير في نبعة وإخوتها وهي متعجبة من أين تأتي العجوز صبيحة بتلك الحكايات، فما رأتها تخرج شيئًا من بخشتها كما قالت سلامة. سألت جدّتها الساهرة بالقرب منها:

- حبّوه، كيف تعرف العجوز صبيحة الوقت وهي ما تشوف.

- فؤادها فاتح، قلبها فيه نور القرآن، العجوز صبيحة عالمة.

(32)

أعدت خديجة لطفليها وجبة الإفطار، وقد أوصاها صالح كما أوصى أمه بضرورة أن يبدأ أبناؤه بالذهاب إلى مدرسة القرآن، وخصوصاً أن عمر نفاة أصبح سبع سنوات، وقد أوشك ناصر أن يكمل عامه الرابع. يُقلقها غياب صالح الذي لا تعلم كيف حاله، ولا أين هو الآن، وما سيكون مصيره لو قبضوا عليه، خصوصاً أنها علمت أن بعض الثوار قبض عليهم، وصالح أحد الثوار الذين يبحثون عنهم. تنظر إلى ناصر هو يمسك بيد أخته في انتظار حمدان أن يأخذهما إلى المدرسة، يسعدها حظ نفاة بأخيها لمرافقته إلى مدرسة القرآن وكأن عماء نور لها، فعدد البنات اللاتي يذهبن إلى المدرسة قليل جداً في حارة الوادي، وإن ذهب أحد منهن فليس إلا الفتيات الصغيرات فقط.

ركض ناصر باتجاه حمدان فور سماعه صوته، وسارت نفاة خلفهما، وحين وصلا خلعا نعليهما خارج سور المدرسة كما أخبرتهما جدتهما عويذة مساء أمس وهي تحدثهما عن المدرسة وكيف يتصرفان فيها، وكذلك خلع حمدان نعله ودخل معهما كما وصّته، وأخبر المعلم خلفان بأن ينتبه لهما، شارحاً له وضع ناصر، فأكد له المعلم خلفان أنه يعرف وضع ناصر، وليس هناك من خوف عليه. أجلسهما المعلم خلفان

بالقرب منه، وبدأ بقية الأطفال بالتوافد، وكلّ مَنْ يدخل منهم يخلع نعليه خلف الدكّ الترابي الذي يحيط بالمدرسة كما فعلا.

نظرت نَفَاقَةً إلى المكان بدهشة، وتراقص قلبها فرحًا وهي تكتشف هذا العالم الجديد الذي تدخله لأول مرة في حياتها، مساحة كبيرة مرتفعة قليلاً عن مستوى الأرض، مسوّرة بسور قصير من الأحجار المغطّاة بالطين مع مساحة صغيرة مفتوحة كبوابة، تنحدر منها ثلاث درجات حجرية إلى الأسفل على الطريق.

يتوسط المدرسة شجرة قاو عجوز ضخمة، في جذعها فتحات أشبه بروازن تشبه الروازن التي كانت في بيّتهم العود، في تلك الروازن وُضعت مجموعة من الألواح الحجرية البنية اللون ورخام أبيض، وعدد من المصاحف، وكتيّبات صغيرة من جزء عمّ وتبارك. كما أنّ هناك جحلة ممتلئة بالماء مغطّاة بكوب فخّاري، معلّقة بحبل طويل من الليف في أحد الجذوع كي تكون في متناول الأطفال، وكلّ طفل يدخل سواء كان من الأولاد أو البنات يسلم على معلم القرآن ويقبّل يده ورأسه، ثم يتناول لوحه الحجري أو مصحفه ويجلس في أقرب مكان فارغ أمامه. لاحظت نَفَاقَةً أن بعض الأطفال يتسابقون للجلوس بالقرب من المعلم، وبعضهم يتسابقون للجلوس في طرف المكان بعيدًا عنه، لكنّها لاحظت أنّ الأولاد يجلسون على يمين المعلم والبنات على يساره، وعدد البنات كان قليلاً مقارنة بعدد الأولاد.

يُسند المعلم ظهره إلى جذع شجرة القاو وأمامه مصحف كبير على مرفع خشبي ضخم وواسع، رأت نَفَافَةً عددًا من المرافع قد وُضع بعضها فوق بعضها الآخر في إحدى الزوايا تحت جدار السور من الداخل، وكلّ من لديه مصحف من الأولاد يتناول مرفعًا ليضع عليه مصحفه، ينظر المعلم خلفان إلى الأطفال وهم يدخلون ويصرخ على من ينسى خلع نعله، وهو يهزّ عصاه ملوّحًا بها صوبهم متحدّثًا بلغة أقرب إلى الفصحى.. - اخلع نعليك يا ولدي قبل دخولك إلى المدرسة، فمدرسة القرآن مكان طاهر ونظيف، ولا يجوز تدنيسه بنعال داس بها لابسها قاذورات ونجاسات.

- إن شاء الله معلّم.

وعلى الفور يتراجع الطفل إلى الخلف خالِعًا نعليه، ثم يقوم بإدخال فردي الحذاء إحداهما في الأخرى ويدخلهما في شق صغير داخل الجدار خوفًا من السرقة، لكنّ أكثر الطلبة يأتون إلى المدرسة حفاة وبأقدام متسخة ومتشققة، ومن يأتي منهم متأخرًا، يمسك المعلم يده ويضربه ضربة يفرّ منها راکضًا إلى مكانه وهو يحك موضع الضربة في جسده. يجلس ناصر صامتًا في مكانه ملتصقًا بأخته، يقلّب رأسه في كلّ اتجاه، يحاول تخيّل ما يسمع في ذلك المكان الغريب، ويرسم في مخيلته صورة لهذه المدرسة، تنحني نَفَافَةً على أذنه وتهمس له لتخبره بما ترى كما هي عاداتها، أدارت عينيها في المكان باحثة عن حمود فلم تجده حاضرًا بين

الأولاد رغم أن سلامة كانت موجودة تجلس بالقرب من سلامة وبنات أخريات لم تعرف نَفَاقَةً بعضهن.

تأخر حمود ومبارك في ذلك اليوم عن الحضور، فسأل المعلم سلامة عن أخيها، أخبرته أنها لا تعرف أين ذهب، ولكن سلامة قالت إنها رآته يسير مع مبارك في الطريق واتّجها صوب المزارع.

وصلا بعد قليل، فنظر المعلم إليهما نظرة ذات معنى وهزّ عصاه في وجهيهما، فما إن ألقيا السلام عليه مقتربين منه لتقبيل يده، حتى رفع عصاه بشكل سريع ولسع بها حمود في ساقه قبل أن يفكّ يده من يد المعلم، وكان حمود قد تقدّم في السلام قبل مبارك، قفز حمود إلى الأعلى كي يتجنّب الضربة قبل أن تصيبه ولكنّ الضربة كانت قد أصابته، فمعلم القرآن لا يخطئ إذا مدّ عصاه وضرب، وكذلك فعل مبارك الذي كان ينتظر دوره بعد حمود، فقفز قفزة أكبر وأسرع من قفزة حمود إلى الأعلى، فوقعت العصا على الثوب دون أن تصيبه، لكن المعلم حين أدرك أنّ الضربة لم تصبه، ألحقه بضربة أخرى وهو معطٍ ظهره له ذاهباً إلى مكانه، ضحك الأطفال على مبارك فأخرج لهم لسانه قائلاً:

- ما توجع.

سمعه المعلم خلفان وقال له:

- ولد مرهون إذا ما توجع الضربة، نعطيك غيرها.

ركض مبارك جالساً بجانب حمود وهو يقول:

- هاعة، الشيمة توجع.

ضحك الأطفال، فصرخ فيهم المعلم بأن يبدؤوا القراءة وإلا ستشمّ العصا ظهورهم، فضجّ الجميع بالتلاوة والقراءة في أصوات مختلطة.

بدأت نَفَاقَة درسها الأول في ذلك اليوم بقراءة الحروف وكذلك ناصر الذي كان يردّد معها ومع بقية الأطفال ما يُقرئهم إياه المعلم خلفان من حروف وهو يهزّ عصاه في وجوههم بين الفينة والأخرى، فيرددون خلفه وهم يمدّون الحروف أثناء نطقهم لها:

- ألف ليس له، والباء تحتها نقطة، والتاء فوقها نقطتين، والتاء فوقها ثلاث... إلخ.

يضجّ الأطفال جميعاً مرددين تلك الحروف في صوت عالٍ تهتز له شجرة القاو وما جاورها من أشجار حتى تكاد أصواتهم تصل إلى البيوت المجاورة لمدرسة القرآن، وأكثر ما يسعد المعلم خلفان سماع أصواتهم ترتفع في ترديد الحروف بلحن عالٍ يصل إلى آخر بيت في الحارة، وبذلك يطمئن الأهالي على أطفالهم، فإذا خفت أصواتهم قليلاً يرفع عصاه ويقول لهم مشيراً إلى أذنه:

- ما أسمع.

فيرفعون أصواتهم أكثر من قبل، حتى يتحول إنشادهم إلى ما يشبه الصراخ.

يتمتع المعلم خلفان بنظر قوي وسمع حاد، يستطيع أن يعرف صوت كلّ واحد منهم ويميّزه حتى وسط ضجيج الأصوات واختلاطها، والويل

كلّ الويل لمن يصمت أو يحرك شفّتيه ولا يقول شيئاً، يصوّب نظره إليهم واحداً واحداً، ومن لا يميز صوته بين الأصوات ولا يسمعه قارئاً أو مردّداً الحروف، ينهض إليه ويلسعه بالعصا على حين غفلة، وحينما يكون راضياً وهو يسمع أصواتهم ينظر إليهم برضا ويقول لهم:

- شباش عليكم، هكذا أريدكم، أريد جدران بيوت الحارة تهتز من وقع أصواتكم.

لا يعرف الأطفال ما الذي تعنيه كلمة شباش التي يقولها لهم المعلم خلفان، لكنّهم حسب ما عرفوا أنّه يقولها لهم كنوع من التشجيع والثناء، فمن يقول له المعلم شباش فإنه راضٍ عنه. يتناول بعض الأطفال ألواحهم ويبدؤون بكتابة الحروف عليها، ينكبّ كلّ واحدٍ منهم على لوحه؛ وقد كانت سالمة ترسم الحروف رسماً وتفتخر بين الفتيات أنّها تكتب بالرخام على اللوح، وكان المعلم يمتدحها أمام الفتيات ويغبط الفتيان الذين لم يصلوا إلى ما وصلت إليه ويقول لهم:

- شباش عليها بنت سليمان، دوكم، بنت غلبتكم يا الدجاج.

وكان ذلك يحرّجهم ويجرّحهم، ويتمادى هو في تقريرهم وشتّمهم ومسح ما يكتبونه حين لا يعجبه، ويسعد سالمة التي تعود إلى مكانها بين رفيقاتها وتهمس لهن في فرح والابتسامة تملأ وجهها:

- المعلم قال لي شباش.

يتسابق الأطفال في نقش الحروف وتشكيلها وزخرفتها، لأن المعلم لا يعجبه أن تُكتب الحروف بلا تشكيل أو تُنطق بلا لحن؛ وحتى ينال

بعضهم الرضا ويسمعون تلك الكلمة منه، لجؤوا إلى سالمة لتنقش لهم الحروف، وحين اكتشف المعلم أنها هي من تكتب لهم قال لها إنه سيضربها لو فعلت ذلك مرة أخرى. بدأ الأطفال يتباهون بما تكتب أيديهم على الألواح، فيرصّون بالرخام على الحجر حتى يصدر صريراً وينقشون الحرف ويشكّلونه، ومن لا يفعل ذلك يطلب منه المعلم إعادة الكتابة مرة أخرى، وإلا فلن يخرج من المدرسة حتى ينتهي أو سيحبسه فيها بعد أن ينتهي زملاؤه من يومهم الدراسي، ولكن قليلاً ما يحدث ذلك، فما كان الأطفال يصدّقون تهديد المعلم لهم بالحبس. وكان المعلم حين يخرج لبعض أشغاله يعهد لبعض التلاميذ بأن يحلّوا محله، ويعهد لبعضهم بمتابعة القراءة للأطفال المبتدئين ليحفظوا الحروف ويتعلّموا كتابتها، والتأكد من حفظ الدارسين لقصار السور من جزء عمّ، وكان حمود ومبارك أكثر من يعهد لهم بذلك. عادت نفاة في ذلك اليوم فرحة بما تعلّمت من علم وما كتبت من حروف، فقد أثنى عليها المعلم بعد أن كتبت حرف (أ) ورسمت فوقه الهمزة وقال لها: «شباش»، وكان ناصر يردد على مسامع جدته: ألف ليس له والباء تحتها نقطة... وعويذة تذكر الله في سرّها لما حفظه حفيدها في يوم واحد رغم صغر سنّه.

(33)

في المساء أخذت عويذة أحفادها وأولاد زهرة إلى بيت العجوز صبيحة التي كانت بانتظارهم في نفس المكان، وكان الأطفال قد تجمّعوا في بيتها كالأمس متزاحمين متلهّفين ومتتظّرين إكمال الحكاية، ورغم تزاحم الأطفال في المكان لكن لا يشمّ الدخان إلى تلك الغرفة إلا رائحة بخور اللبان والصمغ، تتعجب نفّاسة من أن كلّ شيء في تلك الغرفة مرتّب في مكانه: الصحون، الملابس، الأواني، موقد الطبخ في إحدى الزوايا وعليه إناء مغطّى، وكومة من السعف المبلول وعدد من رُبط الحبال، والمراوح السعفية في الزاوية الأخرى من المكان، فقد كانت العجوز صبيحة رغم ضعف بصرها تجيد صناعة السعفيات، تقضي صباحها تصنع من سعف النخيل مراوح ومكانس و«قُفر» و«مخاريف» وأجربة للتمور، تبيعها وتعيش بثمرها.

جلست نفّاسة وبجانها ناصر وسلامة وأختها منّة في طرف الحصر، قالت العجوز صبيحة لهم بصوتها الهادئ:

- قربوا ما تجلسوا بعيد.

اقتربوا منها، شمّوا رائحة الزعفران والصندل وماء الورد التي تفوح من ملابسها ورأسها، وكلّما حرّكت يديها تصدر أساورها الفضية صوتاً.

وصل بقية الأطفال وبدؤوا يتدافعون ويتزاحمون ويتسابقون ليفوزوا بالجلوس بالقرب منها، فيأتيهم صوتها حنوناً هادئاً:

- يا أولادي ما تتزاحموا، عن تؤذوا بعضكم بعضاً.

يجلس الأطفال وكأّتهم في حلقة درس، ولكن قبل أن تبدأ تسألها نَفَافَة على استحياء:

- حَبّوة صبيحة من هين تجيبي الأخبار؟
- فيضحك الأطفال من سؤالها، لكنّ العجوز صبيحة تنهرهم بلطف.
- سؤال بنيتي نَفَافَة ما فيه شيء يضحك، وسؤالها ما عيب.
- مسحت على رأس نَفَافَة وقالت لها:
- يا ابنتي يا نَفَافَة، حبّوتي في زمانها نشحت وأنا رقطت وضميت حكاياتها في فؤادي، وأبوي نشح وأنا رقطت، وتو أنا أنشح لكم، وبوه ترقطوه مني ضمّوه في فؤادكم، ترى بو يضمّ الفؤاد ما يغيب.
- يهدأ الأطفال وتبتسم العجوز صبيحة نصف ابتسامة، ثم تعدّل من جلستها بأن تضمّ ركبتيها في جلسة القرفضاء التي تجلسها عادة وتقول:
- نكمّل حكاية نبعة ولا نبداً حكاية غيرها؟
- صرخ الأطفال كلّهم بصوت واحد:
- كمّلي حبّوة صبيحة حكاية نبعة.
- عدّلت من جلستها قليلاً وبدأت في إكمال الحكاية. قالت لهم:

إن نبعة عادت إلى المكان لتراقب إخوتها وتأكدت من ساعة خروجهم وساعة دخولهم وساعة تحوّلهم ونومهم، وعرفت أن الساحر لا ينام في الكهف معهم، بل كان يخرج فور أن يجعلهم ينامون وهم مسلوبو العقول والذاكرة، وكأنّهم مسحورون حتى في نومهم، دخلت نبعة ووضعت الحناء المعجون بماء من المحو في أياديهم حتى يعودوا إلى طبيعتهم ويزول عنهم سحر الساحر، وحين انتهت من وضع الحناء في أيديهم جميعاً، ظلت تراقبهم ولم يحدث شيء، حتى غلبها النعاس ونامت بجانبهم، وحينما استيقظت وجدت الساحر يقف أمامها محاولاً نحرها بسكين كانت في يده، تراجعت نبعة إلى الخلف محاولة جرّ السكين التي كانت تضمها في طيّات ثيابها، وقبل أن تخرج سكينها أو يهوي الساحر بسكينه عليها، خرّ صريعاً على أرض الكهف والدم ينفر من رقبته، نظرت فوجدت إخوتها السبعة يقفون أمامها بكامل طبيعتهم الإنسانية وقد استعادوا عقولهم ووعيهم وذاكرتهم، فاحتضنتهم وشكروها على شجاعتها وإنقاذها لهم، وعادوا معها إلى أمّهم بعد أن دفنوا الساحر في كهفه. وعرفت البلاد أنّ سيّبت بو يضلّع هو الساحر الذي كان يسحر أبناءهم، وسُمّي الكهف منذ ذلك اليوم بكهف الساحر.

ساد المكان الهدوء فلم يكن سوى صوت العجوز صبيحة فقط الذي يُسمع بوضوح رغم هدوئه، تنحنحت العجوز صبيحة وشربت القليل من

الماء، وأدارت وجهها في كلّ الاتجاهات وكأنّها تبحث عن شيء أو أحد ما ثم قالت:

- ورجعت نبعه يا أولادي بيتها، وأنا رحت وجيت وما أعطوني شيء، وتو غايته ترجعوا بيوتكم.

ضجّ الأطفال رافضين العودة إلى بيوتهم، فما زال هناك وقت لحكاية أخرى، ابتسمت العجوز صبيحة إذ كانت تسعدها تلك الرغبة لدى الأطفال في الاستماع لحكاياتها، تسند ظهرها المنحني على الجدار، وتضم ركبتيها وتضع يديها عليهما:

- يا أولادي أخبركم خبر غيره، فرشوا ثبانكم ورقطوا.

- ما نبغى خبر، نبغى حكاية عودة.

قال الأطفال الذين كانوا يريدون منها أن تحكي لهم حكاية طويلة وليس خبراً قصيراً، قالت لهم:

- إذا تريدوا حكاية عودة، عجب سمعوا، بس هذي حكاية فيها شيء من الخوف ولكن إياكم تخافوا.

- ما نخاف حبة صبيحة، ما نخاف.

ردّدت العجوز صبيحة الدعاء بصوت هامس استعداداً لبدء الحكاية، وأنصت الأطفال فلا يكاد يُسمَع لهم همس، ولم يبق سوى صوتها الهادئ وهي تحكي:

- كان يا ما كان في قديم الزمان، كان هناك معلّم يعلم الأطفال القرآن...

- كما معلّم خلفان؟ سألها سلّوم.
- لا يا ولدي يا سلّوم، هذا المعلّم ما يشبه المعلّم خلفان. هذا المعلم يا أولادي ساحر، ويذبح من يسحرهم ويأكلهم، وكان أكثر ما يشتهي لحم الأطفال الصغار، ولكنّ الناس ما كانوا يعرفوا عنه هذا الشيء، وآمنين على أولادهم عنده، وكان كلّ ما ولد طفل صغير في الحارة يموت ولا يعلم أحد سبب موته.
- وكيف شكل هذا الساحر؟ سأل أحدهم.
- عينه كما عين البومة، وأنفه كما المنقار ولسانه كما لسان الثعبان، وريحته نتنة كما الجيفة، يقال إنه ما كان يقترب من الماي وما يتبسّج، ويشرب دم الأطفال الصغار.
- ترجف قلوب الأطفال خوفًا، فيلتصقون بعضهم ببعضهم الآخر، يسألها حمود:
- لكن حبّوه صبيحة كيف يسحرهم، خبرينا؟
- يا ولدي يا حمود، أخاف أنك تريد تتعلّم السحر، أنت ما سهل يا ولد سيف.
- ضحك الأولاد الذين بدأ الخوف ينزاح من صدورهم، فنظر إليهم حمود وضرب مبارك على ظهره، وضرب ولدًا آخر جالسًا بجانبهم، فنذت عن مبارك صرخة وشكوى:
- حبّوة صبيحة ضربني حمود.

- يا أولادي لا تتضاربوا، هجعوا وسكتوا وسمعوا، وإلا ما أكمل الحكاية.

نظر حمود لمبارك ووضع أصبعه على فمه إشارة له أن يسكت، ففعل مبارك نفس ما فعل حمود، صمت الأطفال، وحينما تأكدت العجوز صبيحة من إنصاتهم، تحرّكت وعدّلت من جلستها مع استمرارها في وضعية القرفصاء وقالت لهم:

- يا أولادي كان هذا الساحر يقوم بعمل حسابات بأرقام هو يعرفها، فالأرقام لها أسرار، والسحر علم، وليس كلّ من قال ساحر هو ساحر، لكن هذا المعلّم كان ساحر وعالم، وإذا اجتمع السحر والعلم في شخص، هذا ما حدّ يقدر عليه، لأنّه يستعين بالجنّ والشياطين. هذا المعلّم الساحر كان يربص بأي طفل صغير يولد، ويحسب حساباته إلين يتمكن منه ويقدر عليه ويأخذه من سريره، ويساعده الجن والشياطين على ما يفعل، وكان يترك خشبة مصوّرة بصورة الولد مكانه، ولمّا تجي الأم تشوف ولدها تشوفه متخشب وبلا حياة.

وكان هناك بنت صغيرة تحب العلم واجد، وفؤادها متعلّق بالقرآن، وتسابق الأطفال في الوصول إلى المدرسة، فما كان أحد يوصل قبلها، وفي هذا اليوم سمعت صوت صياح طفل صغير، أرهفت السمع للصوت حتى ما عادت تسمعه. فكّرت البنت وخمّنت أنّ الصوت جاي من بيت

المعلم الملاصق للمدرسة، فتعجّبت إذ كانت تعرف أن المعلم ما عنده أطفال وما متزوج، فدفعها الفضول لمعرفة مصدر الصوت، اقتربت من باب البيت ووجدته مغلق من الداخل، ولأن الباب قديم وبه شقوق، ألصقت رأسها وعينها على شق الباب، وهالها وأفزعها ما رأت. كتمت الصرخة التي كانت على وشك أن تفلت منها، تراجعت إلى الخلف، وكادت أن تسقط على ظهرها، ولّت راکضة من المدرسة والمكان وما شافته في بيت المعلم ملتصق في ذاكرتها.

- موه شافت حبّوه صبيحة، موه شافت؟ ضج الأطفال في صوت واحد

- شافت المعلم وهو يذبح طفل صغير عمره أقل من شهر، كانت السكين في يده ملطّخة بالدم، ومن الخوف ما قدرت تتأكد من يكون الطفل، وركضت وركضت وهي ترتجف حتى اقتربت من بيتها، وهناك سمعت أمّها تصرخ وتنوح، فعرفت أنّ الطفل المسحور والمذبوح كان أخوها، البنت ما خبرت أمّها بما شافت في بيت الساحر، وبعد انقضاء أيام العزاء رفضت الذهاب إلى المدرسة، تعجّبت أمّها منها وهي من كانت تسابق الجميع في الذهاب، فظنت أمّها أنّ عدم رغبتها في الذهاب إلى المدرسة راجع إلى حزنها على وفاة أخيها، فأجبرتها على الذهاب. ذهبت البنت طاعة لأمّها، وفي المدرسة شافت المعلم جالس والأطفال واقفين

قدّامه مادّين أيديهم لمصافحته، وما مدّت يدها ولا صافحته، وفي آخر اليوم كان كلّ طفل يشكر المعلم ويقول له:

- معلّمنا جزاك الله خيرًا وبعد الخير جنات النعيم.

وحين جاء دورها لتقول له كما قالوا، قالت:

- معلّمنا جزاك الله شرًّا، وبعد الشرّ نيران الجحيم.

قبض المعلم على يدها قبضة قوية والشرّ يتطاير من عينيه...

- وبعدين موه صار حبة صبيحة؟

- وبعد ذلك يا أولادي عرف المعلّم أن البنت كشفت عرفت سرّه، وبدأ يعاملها معاملة سيئة، وكان ينظر إليها نظرات تخيفها، وكلّما سلّمت عليه يسألها موه شفت؟ وتردّ عليه بخوف: ما شفت شيء.

البنت أنكرت أنّها شافت شيء، لكنّه ما صدّقها، وهددها أنّها لو خبّرت أحد بما شافت أيكون مصيرها مصير أخيها، البنت هزلت وضعفت وامتنعت عن الأكل، واحتارت أمّها واحتار أبوها في أمرها، وسألوها واستجوبوها، فأخبرتهم بما رأت عينها في ذلك اليوم، فخرج أبوها من بيته وبندقيته على كتفه، وذهب إلى المعلّم فرآه جالس على دكّ صباح الحارة، فوضع البندقية بين عينيه، وشهد عليه أهل الحارة كلهم رجالهم وحرّيمهم، وطالبوه أن يعترف بما اقترف من سحر أولادهم فأنكر، ولكنّه هددوه وما تركوه حتى اعترف بأنّه ساحر، وبعد أن أقرّ الجماعة بجواز قتله، أطلق عليه الرجل أبو البنت رصاصة وسقط ميت،

ويقال إنّ قطرة دم واحدة ما سقطت منه، دفنوه وما أقاموا له العزاء، ولمّا فتّشوا بيته عثروا على ملابس أطفال صغار وأكفان، ومن حسن الحظّ أنّ المعلّم ما كان متزوج وما عنده عائلة تطالب بالثأر له، ولا يعرفوا أصله وفصله، لكن يقال وكما يذكروا الشّباب أنّه أتى إليهم لاجئ، وقال لهم إنّهم يعمل معلّم للقرآن، وأوكلوا له مهمة تعليم أبنائهم. ويقال إنّ الضباع ظلت تحوم في الحارة ليلاً بعد موته، حتّى إنّ الأهالي كانوا ما يخرجوا خوفاً من الضباع المتشّرة، ولكنهم تخلّصوا من شرّه، فكان كما يعلمّ أبناءهم القرآن يعلمّ بعضهم السحر، لعنة الله عليه وعلى كلّ ساحر آثم، مأواهم جهنم وبئس المصير.

وها أنا يا أولادي رجعت وما عطوني شيء، وتوارجعوا إلى بيوتكم وارقدوا في مراقدكم، ولكن قبل أن تذهبوا اسمعوا هذا المسبّع..
وضعت العجوز صبيحة يدها على أذنها وأنشدت بصوت عذب رخيماً:

«يا خل تبنا ولك عالي الرتب.... تبنا
مبناي على صم من طين ومن تبنا
وبحق أباك دخيلك.... ما تعذبنا»

«أنا شربت كاس الحمية راح عني راح
ولفواد مثل الطفل ليمن تذكر.... صاح

أنا قصدت دار الأجابة في ثلاث وضاح
 ما ريت حد منهم يلي.... أياتيني
 ولا حتى عن كلام... الخبر ياتيني
 بالله مالي نصيح إلا..... محبيني
 لو شنعوا مهجتي بشفرة وثلاث رماح»

وقبل أن يُرْفَع أذان العشاء سككت العجوز صبيحة عن الحكي،
 وأضاءت الأمهات قناديلهن وذهبن عائداً إلى البيوت برفقة أطفالهن
 الحالمين بحكاية أخرى في مساء جديد.

(34)

عادت نَفَافَة وناصر من المدرسة مع عودة الغنم من السَّرح، ثم أتى حمود ومعه سلامة وعدد من أطفال الجيران كل واحد منهم يحمل مخرافة في يده، اقترب حمود من خديجة التي كانت تهم بربط الأغنام في مراسغها..

- السلام عليكم خالتي خديجة.
- وعليكم السلام حمود.
- خالتي خديجة نريد نأخذ نَفَافَة وناصر معنا للرقاط.
- تردّدت خديجة في البداية واعتذرت قائلة:
- يا ولدي يا حمود أنت تعرف أنّ ناصر صعب يروح معكم.
- خالتي لا تخافي عليه أنا معه، ما تحاتي.
- ترددت خديجة، وأمام إلحاح حمود وافقت وقالت له:
- انتبه عليهم يا حمود.
- وما يهملك خالتي.
- تخبره أن ينتظر وتدخل لتخبر نَفَافَة التي كانت قد سمعت حوار أمها مع حمود، وتهيأت بحمل مخرافتها ومخرافة ناصر، وحينما رأتها أمها ضحكت وقالت:
- جاهزة الحرمة، سييري معهم وانتبهي على ناصر.

انطلقت نَفَافَةٌ تجرّ أخاها معها وأمها تنظر إليهما، فرأت أن حمود قد أمسك بيد ناصر، بينما سارت نَفَافَةٌ متأخرة بعض الشيء مع الفتيات، وكانت تمسك بيد سالمة، تنهد خديجة وهي تفكر كيف تكاثرت البيوت المبنية من الطين والعرشان المبنية من السَّعَف في المزارع حتى أصبحت حلّة جديدة لحارة الوادي بعد أن طال الهدم أكثر بيوت الحارة. تدعو الله في سرّها أن يحفظ أبناءها وزوجها ويعيده إليها سالمًا غانمًا.

يسير حمود في المقدّمة سيرًا سريعًا وهو يحمل ناصر بين كتفيه، ومبارك يركض خلفه، ويصرخ عليه حينما رأى أن البنات قد تأخرن عنهم بخطوات كثيرة:

- حمود لا تركض، انتظرنا، البنات متأخرات، ما شيء هناك حلوى ساخنة، انتظر.

يقف حمود ويلتفت إلى الجميع مخاطبًا مبارك:

- اركض يا الدجاجة، كن رجّال وأنت تمشي.

يأخذ مبارك حجرًا ويلوّح به باتجاه حمود قائلاً:

- لا تقول دجاجة، أنا أرجل منك، وإلا أفلع رأسك بهذي الحصاة

علشان تعرف من منا الدجاجة.

- انتبه، لا ترميها، أنا أحمل ناصر.

- احترامًا وحشمة لناصر وإلا ضربتك.

- يضحك حمود ويركض وناصر يهتز مترقصًا بين كتفيه..
- ما تقدر تضرب، أمشي كما يمشي الرجال قبل، وانتن يا البنات ركضن حتى لا نتأخر.
- تردّ عليه سالمة من بين الفتيات:
- وليش نركض يا حمود، موه هناك، موه أيفوتنا؟ الخلال ينتظرنا تحت النخيل.
- التفتت للبنات وقالت لهن معاندةً حمود:
- بنات ما تركضن.
- إذا ما تركضن ما أتحصّلن على خلالة وحدة تحت النخيل، البيادير ما يتركوا لنا شي، يقوموا من غبشة ويرقطوا كلّ الخلال، صح نفاة كلامي ولا ما صح؟
- تنبّه نفاة إلى أنّ حمود يوجّه إليها السؤال، فيحمّر وجهها خجلًا وتتلعثم ولا تعرف ما ستردّ به عليه، فترد سالمة:
- وموه دخل نفاة في الموضوع، نفاة تسير معنا؟
- يردّ حمود دون أن يلتفت مبطّنًا سيره وخطواته:
- نفاة تعرف إن حمدان كلّ يوم يرجع برقاط حارة الوادي كلّها في قفرانه الكبيرة، حمدان يرقط النخيل كلهن.
- تبسم نفاة وتذكر أن حمدان بالفعل كان يحضر قفيرًا كبيرًا مليئًا بالرقاط، ويناوله جدتها قائلاً لها: «هذي نفيعة حال الهوش».

يقول مبارك:

- عجب ضروري نقوم من الصباح ونسقع مع الديك ونسبق البيادير.
- ما تقدر تسقع في الضاحية، لأن عصا معلّم خلفان أتسقع في ظهرك إذا تأخرت.

حكّ مبارك ساقه وكأنّه تذكّر الضربة:

- هيه والله، سواها فينا لما تأخرنا ذاك اليوم.
- ضحكوا جميعاً، وركضت الفتيات كي يلحقن بالأولاد، ويصبحن أقرب إليهم، ويركض الأولاد كي يلحقوا بحمود ويصبحوا أقرب منه، يصرخ مبارك على حمود وهو يلهث محاولاً اللحاق به:
- حوه عليك كأنّه هيببي شالّك وأنت تمشي.
- جنّي يشلّك أنت، اركض والحقني. رد عليه حمود وهو يسير مسرعاً.

توزع الأطفال بين النخيل، يلتقطون ثمارها الساقطة، بعض الضواحي تكون موحلة من أثر سقيها، وتغوص أقدامهم في الطين وتتسخ أيديهم، لكنهم يتسابقون من سيضع ثماراً أكثر في مخرافته، ينتقل بهم حمود من ضاحية إلى ضاحية كقائد يقود فريقاً، يقفز بين الدوك ويقفزون خلفه، وحينما امتلأت مخاريفهم لم يكتف حمود بذلك، فقد تذكّر خلية الدبابير المتعلّقة في غصن إحدى أشجار الليمون، وقال لهم:

- انتظروني هنا، حصّلت نفته ديبان، أروح أقلعها، من يريد من الأولاد يجي معي يتبعني.
- ترك حمود ناصر مع نَفَافَة:
- أمسكي يده ولا تفلتيه، خالتي خديجة وصّتني عليه.
- ضحكت سالمة التي كثيرًا ما تردّ على حمود:
- ومن يوصّي نَفَافَة على ناصر غير حمود الدهج، تراه أخوها وهي أحرص عليه منك.
- نظر إليها حمود وقال لها مازحًا:
- إنّت دهجا...
- ركض حمود فتبعه مبارك وسلّوم وثلاثة أولاد آخرين ممن يقاربونه عمرًا، غابوا فترة قصيرة وحينما عادوا كانت عين سلّوم منتفخة ومغلقة وهو يصرخ، وحمود حاملاً في يده خلية الدبابير المليئة بالدود، صرخت سالمة:
- وافقري! موه سوّيت بأخوي يا حمود، قلعت له عينه؟
- ما سوّيت له شيء، هو ما يعرف كيف يغطّي عينيه من الديبان، أخوش دهج كماش.
- اقتربت سالمة من أخيها كي ترى عينه المنتفخة لكنه هرب منها فقالت له:
- تعال أنفخ لك فيها.

ضحك مبارك وقال:

- سلّوم لدغه دّبي وسالمة تقول أنفخ لك فيها، صدق حمود لمّا قال
إنش حمقاء.

قال سلّوم ويده على عينه:

- هيه والله صح يوم قال حمود إنك دهجا.

صرخت سالمة على أخيها..

- تستاهل ما جاك، وغيب غابت عينك، أدبك عند أمي.

ضحكت الفتيات والأولاد على سالمة وأخيها، علّق حمود:

- حتى أنا لدغني دّبي في ظهري وما قلت شيء.

نظرت إليه سالمة وقالت له:

- أنت شيطان، سلّوم بعده صغير.

لم يكثرث حمود بلسعة الدبور في ظهره رغم الحرقّة التي يشعر بها
تحت ثيابه، ولكنه يتجلّد، فمن أراد شيئاً فليصبر، وبدأ يوزع الأدوار
عليهم، أمر الفتيات بجمع الحطب وسعف النخيل الجافّ، وأمر مبارك
بإشعال النار، لكن مبارك رفض الانصياع لأوامر حمود.

- أنت ما شيخ، حتى تتأمّر علينا، قم بنفسك وأشعل النار.

- أنا تسلّقت النخلة وقلعت النفّته، وأنت جالس تحت النخلة ما

فعلت شيء، ولمّا طاردتنا الديبان هربت.

- يعني تريدني أجلس تلسعني الديبان ويتنفخ وجهي كما سلّوم؟

- أنت حتى إشعال النار تقول إنها مهمة صعبة عليك، ولمّا قلت لك دجاجة زَعلت، قم أشعل النار وإلا ما تذوق دودة واحدة.
- نهض مبارك متذمّرًا وأشعل النار في السّعف الجافّ ووضع عليها الحطب الذي جمعته الفتيات وكوّمنه في مكان واحد، فوضع حمود تلك الخلية الكبيرة المليئة بالدود على النار، وتذكّر أنّه لم يحضر ليمونًا ولا ورقة موز خضراء، فنظر إليهم وقال:
- يتحرّك واحد منكم صوب مقصورتنا ويقطف ليمونتين ويقطع ورقة عريضة من شجرة الموز.
- قامت سلامة قائلة له:
- أنا أروح.
- ذهبت سلامة ورافقتها نَفَافَة، وبقي ناصر في عَهْدَة حمود، ملأت المكان رائحة النار وشي الخلية التي أصبح لونها أسود داخل النار، يسمعون صوت نقع الدود داخلها، يخرجها حمود سريعًا ويبتظر سلامة التي عادت برفقة نَفَافَة بسرعة وقد أحضرت ما طلبه منها، يفرش ورقة الموز الخضراء ويبدأ بنفض الخلية عليها، فكان الدود ينتشر كحبات لوبيا في حجمها وشكلها، عصر عليه ليمونًا واستبقى نصف ليمونة، مسح بها جفن سلّوم الذي لدغه الدبور وسلّوم يصرخ من الألم. قسّم حمود الدود على الجميع بالتساوي، وأعطى كلًّا منهم نصيبه في يده. تناول الأطفال

وجبتهم بشهية متلذذين بمذاق الدود المشوي، يلحسون أصابعهم وعصارتة تفيض من شفاههم.

- اليوم ما تتغدوا، أنا غديتكم. قال لهم حمود.

- أنا بعدني جوعانه. قالت سالمة.

- حوه عlish ما تشبعي. علّق مبارك.

- تو أضربك يا الشبعان... ردّت سالمة

ضحكوا جميعاً.. ثم اتجهوا إلى الفلّج يغسلون أيديهم ويمضمضون أفواههم بالماء، ومضى كلّ واحد منهم عائداً إلى بيته إلا حمود وسالمة رافقا نفاقة وناصر حتى بيتهما.

(35)

حينما عاد الأطفال كان حمدان يجلس أمام البيت تحت شجرة المانجو الكبيرة التي يعتبرها حبيبته وملاذه ومأواه، والتي ما كان يفارقها إلا في الصباح حينما يذهب للسقي أو الاهتمام بالخیل وتقليمها وتخليصها من زوائد السعف الجاف أو الفسائل التي تكاثرت تحتها في موسم القيظ. ركضت نَفَافَة صوب حمدان، لتريه رقاطها الذي ملأت به المخراقة، أسرع هو نحوهما، سأله حمود:

- هين خالتي خديجة؟
- خالتك خديجة ما هنا، راحت الفُرْصَة مع أمك.
- هذي مخراقة ناصر.

استأذن حمود وسلامة، ابتسم حمدان حينما وجد مخراقة ناصر نصف مملوءة، سأله إن كان قد التقطه كله أم أنّ هناك من ساعده، فأخبره أنّه هو من التقط كلّ ذلك الخلال من مخاريف الآخرين. ضحك حمدان واستخرج له من تحت البساط مروحة سعفية وأخذ يعلمه كيف يستخدمها، ثمّ أعطى نَفَافَة واحدة أخرى، جلس الطفلان معه في انتظار أمّهما وجدّتهما وهما يديران المروحة ويضحكان، بينما واصل حمدان عمله، تتحرك أصابعه السّمراء الخشنة والطويلة حركة سريعة وهو يقتل الحبل وكأنّه يلعب، فكان الحبل يطول بين يديه في زمن قصير، وبلّغه في

دوائر صغيرة يضعها في قفير من سعف، يشغل ناصر بتحريك المروحة مستمتعاً بالهواء الخفيف الذي يشعر به على وجهه.

تنظر نَفَافَة إلى وجه حمدان ذي الملامح التي لا تفصح عمّا بداخله، عيناان صغيرتان غائرتان تحت حاجبين كثين أسودين، شعر أسود كثيف مفلفل، أنف عريض وكبير، أول ما يرى الناظر في وجهه أنفه، شارب حليق، ولحية صغيرة في وسط ذقنه، وكثيراً ما سمعت أبوها يقول له مازحاً:

- حمدان قصّ هذي اللحية، كأنّها لحية تيس.

فيرد عليه حمدان:

- حبابي ما يجوز أقصها، ما غاوي أكون جلع، ما فيّ ولا شعره.
تسرح نَفَافَة في عالمها الجديد، حياة ما كانت تحبّها، إلّا أنّها الآن تقضي أجمل الأوقات بين مساء مسكون بحكايات العجوز صبيحة التي تفتح لها باباً تدخل منه إلى عالم مختلف، ولا تخرج منه إلّا في اللحظة التي تعلن فيه نهاية الحكاية، وصباح تقضيه في مدرسة القرآن فتلتقي فيه صديقاتها، وتتعلم سوراً جديدة. فكانت تنتظر الصباح لتتعلم كتابة حروف جديدة بالرخام على لوحها الذي أعطتها إياه جدّتها قائلة لها إنّها كان لأبيها من قبل، وقد أحضره جدّها رحمه الله من صخور الجبل الأشم. وكانت سعادتها كبيرة حين بدأت تربط الأحرف وتشكّل الكلمات وتكتبها في اللوح، وتقرأ لناصر ما تتعلم، وتصف له شكل الحروف وهي

تكتبها، وقد لاحظت منذ اليوم الأول لهما في المدرسة أنّ اهتمام المعلم بناصر كبير، فقرّبه منه وجعله يجلس بجانبه، واعتنى به دون غيره، ولم يوكل به لأحد إلا حمود في بعض المرات التي يغيب عنها، فكان يريد أن يعرف استعداد الصغير للتعلّم وهو لا يبصر، فرأى الصغير مقبلاً على العلم فرحاً بما يتعلمه، وبدأ على الفور بتهجّته الحروف وقراءتها قراءة صحيحة، ولاحظ المعلم أن ناصر سريع الحفظ، فخلال أيام قليلة حفظ الحروف كلّها مشكّلة ملحّنة، ثمّ انتقل إلى جزء عمّ، وبدأ بتحفيظه السور القصيرة.

أعطت عويدة نَفَاقَة مصحف «جزء عمّ» الذي كان لأبيها حينما كان صغيراً، لتدرس فيه مع أخيها. أقبلت نَفَاقَة على العلم إقبال ناصر، وحفظت معه ما كان يحفظ، فما من طريقة يتعلّم بها ناصر القرآن إلا بالحفظ، فكانت نَفَاقَة عينه التي ترى ويده التي تكتب، فيردّد أمام المعلم الحروف والسّور كلّها غيباً، ورغم أنّه ينطق الحروف والكلمات بلثغة طفولية، كأن يقلب السين ثاء والقاف طاء، لكن المعلم خلفان يجتهد في تعليمه، لأنّه لمس لديه استعداداً لذلك، وقد التقى به صالح قبل أن يأتي بناصر إلى المدرسة مع أخته نَفَاقَة، ووعدّه أن يُجزل له العطاء والمكافأة إذا استطاع تمكين ناصر من تعلّم الحروف وحفظ كتاب الله، فكان يريدّه أن يتعلّم القرآن وأن يكون حافظاً له، وقد كان ناصر مستعدّاً لما نذره أبوه له، ونَفَاقَة تجتهد في تعليمه نطق الحروف نطقاً سليماً:

- قول سين؟

- ثين.

- أقولك قول سين ما ثين.

- ثين.

بيكي ناصر من إصرار نَفَافَة على جعله ينطق كما تريد هي، وقد سمعتها جدّتها ذات يوم فنهرتها وأمرتها ألا تصرّ عليه، فهو ما زال صغيراً وسيَنطق الحروف بشكل صحيح بعد حين، فهي كانت في عمره تنطق الحروف كما ينطقها هو الآن، وما هي إلا فترة وجيزة حتى تجاوز ناصر تلك المرحلة، وأصبح ينطق الحروف نطقاً صحيحاً.

وبينما كانت نَفَافَة غارقة في تأملاتها وذاكراتها وحديثها مع نفسها، رأت أمّها قادمة وهي تحمل هاندوّة الماء فوق رأسها، وما إن أحسّ ناصر بوقع أقدام أمه على الأرض حتى ترك المروحة وركض إليها، وركضت نَفَافَة خلفه، تاركين حمدان الذي استمر في عمله دون أن يتحرك من مكانه أو يرفع رأسه أو حتى يقول شيئاً. دخلا مع أمهما وتركا حمدان مع حباله وخصوه وصمته. وقبل أذان الظهر بقليل أتت عويذة وفوق رأسها حزمة من البرسيم. توضاً حمدان من حوض الماء الذي يبلل فيه سعف النخيل الأخضر، وصلى في نفس المكان تحت شجرة المانجو وعويذة تنظر إليه، وحينما انتهى ذكّرتّه بما تقوله له إياه كلّ يوم:

- يا ولدي يا حمدان روح المسجد، صلاة الجماعة أجرها أكبر من صلاة البيت.

- صلاتي مقبولة بإذن الله يا حيي، هذي شجرة مباركة.

ابتسمت عويده ولم تشأ أن تجادله في صلاته أو شجرته المباركة، لقد تعبت عويده من نصحتها له، ومحاولة إقناعه بالذهاب إلى المسجد للصلاة، ولكن بلا فائدة، فحمدان يصلي وما لاحظت أنه ترك فرضاً، لكنّه لا يحبّ الاختلاط بالآخرين كثيراً بقدر ما يحب الجلوس وحيداً في هذا المكان، وقد تركته عويده كما يشاء داعية ربّها أن يتقبّل صلاته ويرزقه الجنة، فهي من ربّه وأحسن تربيته، وعلمه صالح الصلاة وكان يأخذه معه إلى المسجد، ولكنّ «الهداية من الله والشقاء من الشيطان» كما تقول لنفسها، فلم يلتزم حمدان بالصلاة مع الجماعة، قدر التزامه بالصلاة تحت شجرته المباركة، فهذه الشجرة زرعتها أمه زوردة، واعتنت بها حتى كبرت سريعاً وتفرّعت، فكانت غصونها تمتلئ بالثمار الحلوة أكثر من بقية أشجار المانجو في المزارع الأخرى، وبعد موت زوردة كان حمدان يختبئ في تلك الشجرة وينام تحتها، وقد غيبت عويده ذات يوم، فانتشر أهل الحارة يبحثون عنه حتى وجدوه محتضناً جذع الشجرة كما يحتضن طفل أمه. صارت عويده حينما تفقده تعرف أنه تحت شجرة المانجو، لم تُكثر عليه الكلام والنصح، فحمدان رجل صَموت، قليل الكلام والابتسام، إلّا مع ناصر ونفّافة، وكأنّه يخبئ سرّاً، لا يهتمّ شيء في الحياة

قدر ما تهّمه الأشجار، ولا يحب شيئاً قدر محبته لها، يحرسها ويخاف عليها أكثر من خوفه على نفسه، خصوصاً في فترة القيظ؛ ففي تلك الفترة ينشط الأطفال لسرقة ثمار المانجو، فيسطون على الأشجار التي لا حارس لها، يقتحمون أسوار المزارع والمقاصير، يتسلّقون أشجار المانجو العملاقة ويقطفون الثمار الناضجة، وبعضهم يفضلون الثمار الخضراء الغضة، يرمونها بالحجارة حتى تسقط، فيلتقطونها ويهربون ليتناولوها بالملح والفلفل، بعيداً عن أعين أهاليهم تجنباً للعقاب. كانت عين حمدان يقظة على شجرته، يحرسها ككنز ثمين، منتظراً أول الثمار الناضجة ليبشّر بها عويده.



في إحدى الصباحات الباكرة، استيقظت نَفَافَة وأخوها على صياح وصراخ، كانت عويده في زريبة البقر، وخديجة تهيئ الموقد لإعداد الخبز، لم تكمل عويده حلب بقرتها، ووضعت خديجة ما في يدها، أطّلت نَفَافَة برأسها من السطح لرؤية من يصرخ في الأسفل، زحف ناصر باتجاهها، فقادته نَفَافَة من يده وأجلسته بجانبها. اقتربت عويده فرأت شخصاً مربوطاً حول نخلة النغال وحمدان واقف بالقرب منه، وهو يزيد ويهدر من الغضب:

- شفته متعلّق في الشجرة، كان يسرق الأمبا.

اقتربت عويده من الشخص المربوط متعجّبة وقالت:

- أنت يا ولدي ما غيرك! نحن نعتبرك واحد منّا، كيف تسرقنا؟
- لقد كان مبارك ولد جارهم مرهون، نكّس مبارك رأسه خجلاً، محرّكاً جسده يميناً ويساراً، محاولاً التملّص والخلاص من الحبل المربوط بخصره، اقترب حمدان وقال:
- حيّي، كنت ألاحظ كلّ يوم الورق طايح، وما من العادة تسحّ الشجرة أوراقها الخضراء، كنت أظنّ الفئران يقحصنها.
- أشاحت عويذة بنظرها عن مبارك والتفتت إلى حمدان:
- سر إلى مرهون وخبرّه بفعل ولده، ليرى بعينه حتى لا يتهمنا بأننا أذينا ولده أو ظلمناه.
- ثم قالت لمبارك الذي كان ما زال منكّساً رأسه:
- يا ولدي، هذي الشجرة حمدان ما يرضى فيها ولا يسامح أبداً من يقترب منها.
- لم يعلّق مبارك بشيء، لكنّه أدرك أنّه وقع في قبضة حمدان التي لا ترحم، لأنّه اقترب من شجرته، وركض حمدان منطلقاً إلى بيت مرهون.
- وعلى إثر الصياح والصراخ تجمّع بعض الجيران في المكان، وأتت بعد ذلك زوجات أبيه وأشقّاؤه وإخوته من أبيه، وانتهز بعضهم الفرصة ليقول: إنّ أشياءهم كانت تُسرق، وما قد عرفوا السارق، ومبارك يصيح ويتململ بين الحبل والنخلة:
- ما أنا، ما أنا، ما سويت شيء.

يصيح مرهون وهو يحمل في يده خيزران:

- هين هذا الكلب، هينه؟

تقدّمت عويذة من مرهون وقالت له وهي تشير لمبارك:

- هذا ولدك، حمدان ربطه في النخلة، وما فكيت رباطه حتى تيجي

وتشوف بعينك ما فعله ولدك من خراب في أشجار الأمبا.

فقال لها وهو يداري إحراجه من موقف ولده وفعلته:

- أدبه عندي، وما أعيدها مرة ثانية.

- ما بغيتك تضربه ولا تأذيه، تكفيه الفضيحة هذا اليوم.

- وفضيحتي أنا كيف أردّها؟

- الفضيحة بعيدة عنك، وتراهم أولادنا، العن الشيطان الرجيم.

لكن مرهون اقترب من ولده وأخذ يضربه بالخيزران، ومبارك يحرك

رأسه يمينًا ويسارًا محاولًا تلافي الضربات المتتالية، ينظر إلى أمه مستجيرًا

بها من ضربات أبيه الموجهة، يرفع قدميه حتى يتجنب الضربات من

خيزران أبيه، تساقطت ثمار المانجو الخضراء من جيبه وهو يصرخ:

- ما أعيدها، علووه ما أعيدها مرة ثانية.

تقدّم الرجال وكذلك عويذة من مرهون وأخذوا الخيزران من يده،

تراجع مرهون وهو يزجر كثر هائج:

- سوّدت وجهي قدام جيراني، أنا ما ربيتك تكون لص، غيرك يقاتل ويموت وأنت تسرق الجيران، أنت ما ينقصك شيء غير هذي الخيزران على ظهرك.

فكّ أحد الرجال الحبال عن مبارك، فانطلق راكضاً، ومرهون يستسمح من عويذة، انفصّ الجمع، وذهب كلّ منهم إلى بيته، ابتسمت عويذة لحمدان وقالت له:

- الله يرحم زوردة، ورثتك أخلاقها وحرصها على الحق.

(36)

في يوم شديد الحرارة، وبعد صلاة العشاء، تغيّر الجوّ وامتلاّت السماء بسحبٍ كثيفة، فاستبشر الناس بسقوط المطر. لمع ضوء البرق متبوعاً بصوت الرعد، نظرت عويذة إلى اتجاه البرق وقالت:

- المطر في قمم الجبال، والخير جاي.

أسرعت خديجة وجمعت التمور المجففة على المسطح وما كادت تُنزل الملابس من المرواح حتى أمطرت السماء نفاث خفيفة، سرعان ما تحولت إلى ديمة عاصفة، فتمايلت النخيل وتراقصت الأشجار في فرح، وأدخلت النساء أطفالهن إلى البيوت، وركض من كان خارج بيته ليحتمي خلف الجدران وتحت الأسقف، وركض حمدان مع من ركض وهو يغطّي رأسه بقفيّرٍ لم يقيه البلل، فوصل مبللاً بالماء، فتحت عويذة له الباب ليدخل، لكنّه رفض الدخول وقال لها إنه سيبقى تحت شجرة المانجو، لكن عويذة نهزته في غضب وخوف:

- تريد تقتل نفسك، هذي عاصفة ويعلم الله أن النخيل العوانات يطيحن، ربنا يرحم عباده، ادخل يا ولدي ودع عنك الرأس اليابس، فلا أحد يعرف العاقبة.

دخل حمدان فكانت خديجة تجلس مع أطفالها بالقرب من النافذة تراقب عاصفة المطر التي هبّت عليهم على حين غفلة، قالت نفاة:

- خبرتنا حبة صبيحة أنّ السيل جاي، فكيف عرفت؟

ردّت عليها أمّها:

- العجوز صبيحة ساحرة والله أعلم.

قالت عويدة:

- يا بنتي لا تظلمي الحرمة، العجوز صبيحة عالمة ما ساحرة، عندها

علم وتعرف كلّ شيء، لكن يقولوا بين السحر والعلم شعرة كما

بين العقل والجنون.

فجأة سمعوا صوت دويّ كبير، فاستنتج حمدان أنّ نخلة النغال العوانة

قد سقطت، ولكن لم يتجرأ أحد على الخروج من بيته ليرى ما حدث،

فقد كانت الريح تصفر في الخارج بغضب مصحوبة بمطر يطرق أسطح

البيوت والنوافذ والأبواب بقوة، وبرق ينير عتمة المكان كلّ، ورعد يهزّ

الأرض ويصمّ الأذان. غمغم حمدان الجالس قرب الباب:

- جاية الغرقة.

سمعته عويدة وقالت له:

- سمّ بالرحمن يا ولدي، وادعُ ربك بالرحمة والمغفرة، السيل رحمة

من ربّ العباد، والبلاد في محلّ، عسى يرجع الفلج كما كان.

- عسى.

قالها حمدان وهو ينظر بطرف خفي خجول إلى خديجة وأولادها

الملتصقين في الزاوية.

سألته عويدة:

- ما تعرف هين صالح؟
- لا تحاقي حيي، حبابي صالح بخير.
- لكنّ قلب عويده كان قلقاً على صالح المتحصّن في أحد الكهوف مع رفاقه، لا شك أنّ شراج الماء سوف تجري بعد هذا المطر الغزير، وربما تسقط كتل صخرية من الجبل. تدعو الله في سرها أن يحفظه لها، وأن تقرّ عينها ويطمئن قلبها بعودته، ثم رفعت يديها إلى السماء ودعت لصالح ولخديجة والأولاد وللمرحوم ناصر، ودعت لحمدان ووالديه ولكلّ المسلمين، وطلبت منهم أن يدعوا ربّهم في هذه اللحظة، فالدعاء عند نزول المطر مستجاب لأنّ أبواب السماء مفتوحة.
- حبّوة، هين أبواب السماء؟ قالت نفّافة متسائلة.
- ربّك يعرفها يا بنتي، أنا ما أعرف الغيب، لكن سمعت المرحوم جدّك يقول وقلت ما قال.
- صمتوا جميعاً حتى توقفت العاصفة المطرية التي لم تدم طويلاً لكنّ آثارها كانت كبيرة، نامت نفّافة وكذلك ناصر، وحين توقف المطر خرجت عويده حاملة قنديلها وحمدان معها ليستكشفوا ما حدث ولم تسمح لخديجة بالخروج حتى تطمئن بنفسها على النخيل، وكيلا تترك الأطفال بمفردهم في الغرفة.
- كانت نخلة النغال العوانة قد سقطت في الطريق واعترضت ساقية الفلّج، ركنة كبيرة من شجرة المانجو سقطت أيضاً، فاحتضن حمدان الركنة، ثم تركها جانباً، وسار مع عويده متفقداً بقية الخسائر بعد تلك

العاصفة المطرية التي خلّفت فوضى كبيرة، وأسقطت عددًا من النخيل وتطايرت أسقف بعض العرشان التي كانت تظلل المواشي، وتشكّلت برك مائية في كلّ مكان، وفاض الماء من سواقي الفلّج على جوانبه.

خرج الأهالي من بيوتهم وفي أيديهم قناديلهم، ليروا ما خلّفته العاصفة من دمار، سمعوا صراخًا، كانت زوجة سليمان تصرخ فابنها سلّوم قد سقط في حفرة إحدى الفسائل المملوءة بالماء، قرب بيتهم، تراكم الأهالي نحو الصراخ، كان سلّوم يئن وقد ابتعد عن الحفرة وأمه تصرخ في وجهه: «خبّرتك لا تخرج، لكنّك ما تسمع الكلام»، حملته أبوه إلى الداخل، بينما عاد الجيران كلّ واحد منهم إلى بيته، يحصون ممتلكاتهم البسيطة التي لم يصبها الضرر والتلف، ويتأكّدون من سلامة أغنامهم وأبقارهم. اطمأنت عويذة على الأبقار والأغنام وأمرت حمدان أن ينام في الغرفة التي تنام هي فيها، وستنام هي مع خديجة وأولادها، استجاب حمدان بعد مقاومة، فهو كالعادة يرفض في البداية ثم يرضخ دائمًا لما تطلبه منه عويذة.

في اليوم التالي، انتشر الأطفال يلعبون في البرك المائية الطينية؛ ورغم تنبيه الأمهات وصراخهن عليهم كانوا يتسابقون للدخول في تلك البرك وغمر أجسادهم الصغيرة بالطين، خرجت خديجة مع من خرج تجرّ أولادها معها فغاصت أقدامهم في الطين، فرحين بما أتاهاهم من مطر بعد سنوات من المَحَل والجفاف «نعمة باذّة»، ومهنتين بعضهم «نعمتم

ببركات المطر»، فقد ارتوت الأرض، وإن كان ذلك سيؤثر على بعض ثمار النخيل. أمّا عويذة فذهبت لرؤية سلّوم، فرأت قدمه متنفخة، وما زال يتألم، أشارت على أمه أن ترسل من يحضر العجوز صبيحة لرؤية قدمه. أحضرت سالمة العجوز صبيحة، وبعد أن تحسّست مكان الألم، وطلبت منه أن يُحرّك أصابع قدمه، وسألته بعض الأسئلة، طمأنتهم أنّها ملتوية وغير مكسورة، لكنّه سيحتاج إلى جبيرة وراحة. أحضرت لها أم سلّوم ما طلبت من طحين وبيض وآنية وقليل من الماء والملح والكركم، وصنعت منه عجينة لزجة، وقبل أن تضعها على قدمه مسحت مكان الألم وهو يصرخ بينما أمّه تحتضنه وتمسك به، لفّت القدم برباط من قماش، وأمرته ألا يتحرك من فراشه لمدة أيام. بات سلّوم يئن من وجعه متحسّراً على أيامه القادمة التي سيبقى فيها حبس البيت بينما حمود ومبارك والبقية سيذهبون لمشاهدة الوادي وهو ليس معهم.

توقّعت خديجة أن يعود صالح في الصباح أو قبل الفجر، ولكنّ أشرقت الشمس بنور ربّها وصالح لم يعد، سأل ناصر عن أبيه وقليلًا ما كان يسأل، فأخبرته أنّه سيأتي، فكّرت خديجة أنّه ربما يأتي في المساء متخفياً تحت ستار الليل، ويخرج قبل أن يتسلل أول خيط من خيوط الشمس، فهي تعلم أنّ الحرب لم تنته والنار لم تنطفئ، وقد أخبرها أنّه لن يعود حتى تضع الحرب أوزارها، لكنّه سيأتي، هكذا قالت خديجة في نفسها، فإن لم يأت به المطر فسيأتي به الشوق إليها، وهذا ما يحدثها به قلبها.

حين عادت عويذة أخذت تساعد خديجة في تنظيف ما خلفته العاصفة من أوراق وأتربة، وترتيب الفوضى التي خلفها المطر مساء أمس، أقبلت سلامة من بعيد ماشية على جذع النخلة المعترض في الساقية محاولة التوازن كي لا تسقط، لمحتها خديجة وصرخت عليها:

- انتبهي عن تطيحي.
- قفزت سلامة وأتت تركض حافية:
- خالتي خديجة يقول حمود اليوم ما نروح المدرسة.
- ومن خبر حمود؟
- المعلم خلفان خبره، وقال له أن المدرسة غرقانة وركنة من شجرة القاوطايحة فيها.

سمعت نفاقة صوت سلامة وخرجت إليها، جلست معها قليلاً ثم ذهبت، في ذلك اليوم طبخت خديجة أرزاً مع اللوبيا بالحليب، وجبة دائماً ما تطبخها مع نزول المطر، وتسميها «أكلة السيل»، وقد أخذت خديجة هذه العادة من أمها؛ وعند الغداء عزلت صحنين واحد لحمدان والآخر لصالح. أحست عويذة بما أحست به خديجة من أن صالح قد يأتي اليوم ليطمئن على أولاده وعليهم، فأمرتها أن تزيد من الأرز في صحن صالح لأنه سيأتي جائعاً.

لم يكذب إحساس خديجة ولم يكن شعورها وهمًا، ففي المساء وبعد أن نام الجميع شعرت بيده تلمس جسدها، وأنفاسه الحارة تلهب عنقها ووجهها، يحتضنها احتضان العاشق المشتاق. ناولته «أكلة السيل» فنظر

إليها وقال:

- ما جابني إلا «أكلة السيل» ولا شيء غيرها.

ابتسمت خديجة وهي تعلم أنه ما قال صدقًا، وحين انعكس ضوء القنديل عليها توهمت حمرة خدها على بياض وجهها، فزاد ذلك من جمالها في عينيه. يحبّ صالح الابتسامة على وجهها كلما ابتسمت، ويتساءل مع نفسه: أما قيل إنّ بالوصل تخفت نار العشق، لكنّه يعشقها ويحبّها، وما زاده وصلها إلا رغبة فيها، وما نظرتها عيناه يومًا إلا وكأنّه يراها للمرة الأولى، كلّ ما في خديجة يعجبه، ولا يدري: أين تكمن فتنة خديجة؟ في عينها، أم قوامها، أم شعرها أم روحها التي تشع جمالًا خفيًا على قلبه وروحه؟

تنّبه وهو ينظر إليها فتغصّ طرفها حياء، فيتسم ثم ينظر إلى أبنائه الغارقين في النوم، ناصر كأنّه ملاك، ونفّافة وردته الصغيرة التي يرى فيها صورة عويذة، يقبلهما، وقبل الفجر يمرّ على عويذة في مرقدها يسلم عليها، يأخذ بندقيته وزوّادته من الطعام وقربة ماء، ويعود من حيث جاء، متهيئًا لغياب غير محسوب.

حينما استيقظت نفّافة، رأت أمّها تقوم بتقطيع لحم غزال، فعرفت أنّ أباه قد أتى، لكنّ أمّها أكدت تحذيرها الدائم لها ألا تخبر أحدًا عن قدومه.

- ما أخبر أحدًا. قالت نفّافة وهي تفكّر في مرقّة اللحم الذي ستطبخه أمّها على الغداء هذا اليوم.

(37)

اشتتخت خديجة سمكاً رغم معرفتها بندرة وجوده في سوق الحارة، وقبل أن يخرج حمدان حاملاً قفرانه وحباله إلى المزرعة وضواحي النخيل، أخبرته أن يذهب إلى السوق ربّما أحضر أحدهم سمكاً فيشتري منه، ترك حمدان كلّ ما كان في يده، وذهب إلى السوق راكضاً حتى يكون أول الواصلين، فالتأخّر عن السوق تفوته البضائع النادرة، وما دامت خديجة تشتتخي سمكاً، يسعده أن يلبي طلبها. انتظر أمام بوابة السوق والدكاكين لَمّا تفتح أبوابها بعد.

حين وصل سليمان أبو سلّوم، سأل حمدان مستغرباً وجوده في هذا الوقت المبكر بالسوق:

- صباح الخير حمدان؟
- صباح الخير حباب سليمان؟
- موه هناك، موه عندك اليوم؟ أشوفك في السوق، ما من عادتك، أعرف أنك في هذا الوقت تكون متعلّق في العوانة، خير، موه جابك في هذا الوقت، لا يكون يوزعوا حلوى وفاتني؟
- ما شيء حلوى حبابي، جاي أبحث عن سمك؟
- واعجبي، ومن متى حارة الوادي فيها سمك، ولو كان السمك موجود يا حمدان أتشوف السنانير تحوم قرب المكان.

أضاف مبتسمًا:

- أقولك حمدان، جرّب صيد صدّ من الفلّج، تراها الصدّة عن سمكة صغيرة.

- حبابي سليمان، في البيت يريدوا سمك، وإذا حصّلت اشتريت، وإذا ما حصّلت رجعت، ما بيدي حيلة.

- ومن هين السمك في هذا الوقت العصيب، هذا ما وقت سمك يا حمدان، يا بن الحلال نحن ندور السمك دواره، نريد نتعطر ونتداوى به قبل أن نأكله، لكن من هين لنا بالسمك ونحن تحت هذا الجبل.

أضاف سليمان:

- وإذا حصّلت سمكة أنتقاسمها معك. نظر إليه حمدان ولم يعلّق بشيء، سوى أنّه جرّ نفسًا طويلًا عميقًا، فخرج الهواء من منخربيه حتى بدت فتحتا أنفه أكبر وأكثر اتساعًا، فأضاف سليمان:

- ومالك «فارش نعاك» كذاك، السمكة أنتقاسمها، يعني أنتقاسمها، طيب ولا رضى.

فكر حمدان أن يغيّر الحديث لعلّ هذا الرجل يخفف من مزاحه الثقيل ولا يتمادى أكثر.

- حباب سليمان، كيف صحة سلّوم، عساه أحسن؟

- الحمد لله، سلّوم راقد على فراشه مادّ سيقانه كما المربية، بس أقول يستاهل، وإلّا في أحد عاقل يطلع يهلّس في الظلام بعد المطر، ترى سلّوم خبيلة مثلك وشرواك.

سكت حمدان وقال في نفسه إن هذا الرجل لن يسلم أحد من تعليقاته الساخرة حتى ولده.



بدأ الرجال يتوافدون، وبدأ أصحاب الدكاكين يفتحون أبوابها، لم يكن في السوق أكثر من ستة دكاكين صغيرة، تباع لأهل الحارة احتياجاتهم الأساسية، كالبقوليات، وأدوات الحِداة، وبيع السّعفيات، ودكّان للفخاريات، ودكّان لبيع قطع الثياب الملونة، وآخر للعطور والكحل والزيوت، ودكان آخر يتوسط تلك الدكاكين وهو أكبرها تباع فيه منتجات متنوعة، يملكه مرهون أبو مبارك الذي يعتبره أهل الحارة غنيًا بالمقارنة مع غيره، فدكّانه مليء دائماً بالبضائع، وما من بضاعة يبحثون عنها إلا وتكون عنده، وكانوا لا يعرفون كيف يحصل على كلّ تلك البضائع التي يملأ بها دكّانه، فقد كان بين فترة وأخرى يمتطي ناقته، ويغيب عدة أيام ويعود محمّلاً بالبضائع، ويقال إنّه يتعامل مع أحد التجّار البانين في مطرح، يأخذ منه كلّ المنتجات التي كان يبيعها، ويقول بعضهم إنّه يمرّ على الحارات والبلدان الأخرى، ويحضّر منتجاته من تجّار تلك البلدان، وهذا ما لم يكن يفعله بقية أصحاب الدكاكين.

يطيب لرجال الحارة الذهاب إلى السوق، ليس للشراء فقط، وإنما للجلوس وتبادل الأحاديث على مصطبة طويلة مبنية بمحاذاة الجدار الذي يفصل ضاحية مرهون عن السوق. توقع حمدان أنه لن يعثر على السمك طازجاً، لكنه سيبحث، وماذا سيضره أن يبحث، فخديجة تريد سمكاً، فكان كلما مرّ على دكان من الدكاكين يضحكون على طلبه الذي أتى في غير وقته، فالبلاد محاصرة، وليس هناك من يذهب إلى مدن الساحل، ولا يأتي أحد من هناك ويحضر سمكاً، فالسمكة بالنسبة لأبناء حارة الوادي كذبيحة البقر في الأماكن التي يتوفر فيها السمك كمطرح ومسقط وساحل الباطنة وصور التي يعيش أهلها على الأسماك.

دار حمدان في السوق، ودخل بين الرجال المتجمعين حول الدلال «جمعة الحلاو» الذي كان يصنع الحلوى ويعمل دلالاً، ينادي كل صباح على البضائع في سوق الدلالة، يمسك في يده حبلاً مربوطاً في نهايته بعجل صغير هزيل وهو ينادي:

- خمسين قرش، خمسين قرش...

من يزيد؟

- سبعين قرش...

- سبعين قرش، سبعين قرش. من يزيد، من يزيد؟

...

- الله يبارك حقّ سليمان أبو سلّوم.

زاد عدد الواقفين في تلك الحلقة، فوجد حمدان أن وقوفه معهم سيلهيهِ عن مهمته التي أتى من أجلها، وسيُتأخّر عن الذهاب إلى الضواحي والمقاصير لمتابعة أعماله، انسلّ من بينهم، وأصواتهم ما زالت تصل إليه، فلجمعة الحلاّو صوت حادّ يصل حتى بوّابة الحارة، ومن لم يحضر إلى السوق كان يعرف ما تمّت المزايدة عليه في ذلك اليوم. فكّر حمدان أن يقنع عويذة ببيع العجل الذي قارب عمره ستة أشهر، فهو سيأتي لها بمبلغ يساعدهم على توفير احتياجات البيت، لكنّه يعرف عويذة وموقفها الرافض لأن تبيع أيّا من أغنامها أو أبقارها، فكما تقول دائماً: «الهايشة تشتري ما تباع»، وكانت تكتفي بما يعود إليها من بيع السمن الذي كانت تقوم بقشده من حليب بقرتها بعد مخض اللبن. دار حمدان في السوق ولم يجد السمك الذي يبحث عنه، كاد أن يفقد الأمل ويعود خائباً لولا أن نادى عليه مرهون من دكانه:

- تعال حمدان، مو تريد؟
- حاول حمدان تجاهل نداء مرهون وسؤاله، لولا أن أعاد عليه السؤال:
- تعال حمدان، خبرني موه تريد، أشوفك تدور من ساعة في السوق كأن بو مدّور راقعنك؟
- أريد سمك.
- انزين تعال، كلّ شيء عندنا موجود.

- وعندك سمك؟ سأل حمدان بفرح.
- عندنا قاشع وعندنا عوال، وقطع سمك جيذر مجفف، وكان عندنا مالح لكن خلص أمس.
- أريد سمك طازج.
- ومن هين أجيب لك السمك «بويتلبط» في حارة الوادي، السمك ما يعيش في الفلج، السمك يعيش في البحر، بس تريد شوري خذ السمك المجفف، طعمه ما يختلف عن السمك الطازج ويمكن أكثر لذة.
- ساوره القلق من أن خديجة تشتهي سمكًا طازجًا وليس مجففًا، لكنّه قرر أن يشتري السمك المُجفّف، فلن يعود فارغ اليدين «فريحة السمك ولا قميحته» قال في نفسه، أخرج له مرهون لوّحًا من السمك المجفف وناوله إياه.
- خذ السمك دام مطلوب وجيب ثلاث قروش وتوكل.
- غالي حباب مرهون.
- هذا سعره، وما أتحصّله في السوق، خبّأته حسب الحاجة، ترى السمك يساوي سعره ذهب لمن يطلبه.
- كانت خديجة قد أعطته قرشين، وأضاف من عنده القرش الثالث.
- ركض إلى البيت كيلا يتأخر، وكانت خديجة في انتظاره، فناولها السمك المجفف، قائلاً لها:

- حيي ما حصلت سمك طازج.
 - تناولته خديجة من يده بفرح وقد اشتهدت تلك الرائحة التي تفوح من السمك، ولولا الحرج لقربته من أنفها وشمته..
 - حمدان أعرف أنه ما يوجد سمك طازج في الحارة، لكنني قلت: سبحان الله يمكن مرهون عنده، يقولوا دكانه فيه كل شيء.
 - حيي، هذا من دكان مرهون.
 - وكم أخذ عليك؟
 - مثل ما أعطيتني، ما طلب أكثر.
 - أحسنت.
- لم يخبر حمدان خديجة بالسعر الحقيقي للسمك، كان منتشياً بفرحتها وهي تتناول السمك المجفف من يده، ومكتفياً برضاه عن نفسه فقد أحضر لها ما أرادت.
- وبعد أن أطمأن إلى أنّ خديجة حصلت على السمك، تناول جبل الطلوع و«المخطة»، وهرول متجهاً نحو نخيلاته، وما إن توارت خديجة إلى الجهة الأخرى خلف الجدار القريب من موقد الطبخ ومعها قطع السمك، حتى قربته من أنفها وشمته كقطة، متعجبة من نفسها ومن هذا الاشتهاء الغريب للسمك، وأن يكون وحامها هذه المرة ليس طيناً. ابتسمت وهي تفكر: «هذا السمك أيفضحني» وما كانت قد أخبرت أحداً عن حملها، وقد أنهت شهرها الثاني ودخلت الثالث، ولم تخبر عمّتها

عويدة التي توصيها دائماً «عن تخبري حد». قرّرت أن تخبرها في وقت لاحق وإن كان لا يخفى على عويدة خافية، فهي تعرف خديجة كما لا يعرفها أي شخص آخر.

طبخت خديجة ذلك اليوم مرق سمك وأضافت له الليمون وقليلًا من الفلفل وطبخت معه عيش مشخول من عيش «بوقضمة» الذي اشتراه صالح حين عاد في المرة الأولى بعد انتقالهم إلى بيتهم الجديد في الضاحية. تمت لو يأتي صالح ليتناول الغداء معهم ويتذوّق السمك، فكّرت أن تعزل له قليلًا ربما يأتي، وإن لم يأت فستأكله هي ليلاً، فكم من المرات توهّمت أنّها تشمّ في الليل رائحة سمك، والغريب أنّ الرائحة تبقى عالقة في أنفها صباحًا، ولا تدري إن كان الجيران قد طبخوا سمكًا أم أنّ الوحام قد فعل بها ذلك!

حين عاد الأطفال من المدرسة، كانت رائحة مرق السمك تملأ المكان، اقتربت نَفَافَة من موقد الطبخ، فكانت النار خامدة تحت القدرين، فسأل لعبها وركضت إلى أمها مستفسرة عن الغداء، فقالت لها أمها بفرح:

- ما تروحوا ترقطوا، اليوم غدانا سمك، فإذا برد السمك يتغير مذاقه، حالة مرق السمك وهو حار.

لم يذهب في ذلك اليوم مع الأطفال رغم أنّه كانت تتنازع نَفَافَة رغبتان، رغبة البقاء لتناول وجبة السمك ساخنة، «حامضة وتحرق» كما قالت لها

أمّها، ورغبة الذهاب مع الأطفال إلى الرقاط، فلا بد أن هناك مغامرة جديدة سيقومون بها بقيادة حمود.

حينما عادت عويذة غرّفت خديجة الطعام وتناولوا غداءهم، وغرّفت لحمدان في صحن ووضعت تحت مكبةً بالقرب من فراشه عند الشجرة كي لا تأكله السنابير، وخبّأت حصّة صالح التي ربما ستكون من نصيبها إذا لم يأت هذه الليلة.

في المساء أخذت عويذة الأطفال إلى بيت العجوز صبيحة لسماع الحكاية، وذهبت هي إلى بيت ابنتها حميدة لتجلس معها حتى ينتهي الأطفال من أمسيّتهم، وحينما عادوا كانت خديجة قد أكلت الطبق الذي خبّأته لصالح وشعور الندم يسكن نفسها إذا جاء ولم يكن هناك ما يأكله، لكن ماذا تفعل لفؤادها الذائب كشحمة لمجرد أن تشمّ مرقة السمك، فرددت في نفسها مقرّعة إياها: «أنا سُنّقة، أكلت غداء زوجي، وافضيحتي اليوم منه!».

(38)

حين طلب المعلم خلفان من ناصر أن يقرأ ما حفظ من سور القرآن، اندهش وتعجب من بديهة ناصر في الحفظ، فبدأ بتحفيظه سورًا أخرى، فكان يحفظ السورة الواحدة من القراءة الثانية، يقرأها قراءة صحيحة ويرتلها بصوت رخيم عذب، مقلدًا صوت المعلم حين يقرأ، حتى إن المعلم يُسكت الطلاب جميعًا حين يبدأ ناصر بالتلاوة ويهزّ رأسه تأثرًا، ونادرًا ما كان المعلم يفعلها، فهو لا يعجبه إلا أن تضحج المدرسة بأصوات قراءاتهم.

حدّث المعلم خلفان نفسه قائلاً: «إن هذا الطفل لو لم يكن أعمى لأصبح أعلم أهل عصره، وما عمى عينيه إلا من شدة قوة بصيرته، فلا يلتقي نور على نور».

بدأ المعلم خلفان يخصّ ناصر باهتمامه ورعايته دون بقية الطلاب، ليس لعمى عينيه فقط، ولكن لما رآه فيه من حفظ وفهم، مصممًا على الاعتناء به وعدم إهماله ما دامت لديه هذه القابلية للتعلّم، وما دام قلبه منفتحًا على محبة القرآن وحفظه، فأجلسه إلى جانبه وبدأ بتحفيظه سور القرآن، شارحًا له معانيها والولد يستمع وينصت باهتمام، ويسأل عما يتعسر عليه فهمه.

وفي نهاية أحد الأيام أخبر نفاقة بأن تخبر جدّتها أنّه يريد أن يتحدّث إليها، وحين ذهبت إلى البيت أخبرت أمها وجدّتها بما قاله المعلم،

فخشيت عويدة أن يكون هناك ما يُقلق، أو أن المعلم سيقول: إن ناصر لا يصلح للتعلّم كبقية الأطفال لأنّه أعمى، فهيأت نفسها لإقناعه بأن يُبقي الطفل في المدرسة، حتى لو ظلّ مستمعاً لما يقرؤه بقية الأطفال فقط، عساه يلتقط شيئاً بدلاً من جلوسه في البيت.

صمّمت عويدة على أن تقنع المعلم خلفان بإبقاء ناصر، فهي لن تقبل أن يخرج من المدرسة، ولن تقبل أيضاً أن تذهب نَفَاقَة بمفردها دون أخيها، فإمّا أن يذهباً معاً أو لن يذهباً، رافقت عويدة أحفادها في اليوم التالي إلى المدرسة وقد تهيأت لما تقوله للمعلم، وجلست معهم منتظرة حتى أتى، فقامت نحوه وقالت له:

- صباحك بالخير معلّم خلفان.
- صباحك بالخير أختي عويدة.
- خبرتنا بنتنا نَفَاقَة أنّك تريد تتحدث معي، فأخبرني ما في خاطرك.
- ليس في خاطري إلّا الخير.

لاحظ المعلم أن الأطفال انشغلوا بوجود عويدة، وانهزوا فرصة حديثه معها، فبدؤوا يتعاركون ويتمازحون، فاستأذنها لتأديبهم، تحرّك صوبهم حاملاً عصاه، وما إن رآوه قادمًا نحوهم حتى عادوا إلى أماكنهم وفتحوا مصاحفهم، ضجّ المكان بتلاواتهم المختلطة، في أصوات لا يميز السامع منها سوى ضجيجها، يهزّون رؤوسهم أثناء التلاوة بينما تختلس عيونهم النظر إلى عويدة محاولين استراق السمع لما تقوله للمعلّم أو ما سيقوله لها، تنظر عويدة إلى أحفادها وفي عينيها نظرة رضا وحمد وشكر،

وفي نفسها شيء من القلق لما سيقوله لها المعلم بعد قليل، نظرت إلى ناصر فوجدته ملتصقاً بأخته، يهزّ رأسه إلى الأعلى والأسفل، يقرأ معها ما تتلوه عليه. عاد المعلم إلى عويده بعد أن تأكد من أن الأطفال عادوا للقراءة، واعتذر لها فقالت له:

- أعانك الله، التعليم شاقّ.
- الحمد لله على كلّ شيء، تعرفي أطفال صغار ويحتاجوا بعض الشدّة.
- سألته بقلق:

- خير إن شاء الله معلّم خلفان...
- قاطعها المعلم خلفان حينما أحس في كلامها شيئاً من القلق.
- لا شيء يقلقني يا أختي عويده، أردت أحدثك عن أمر يخص ناصر.
- خير عسى ما شرّ، هل ترى أن وجوده غير مناسب هنا لأنّه أعمى، فنحن أحضرناه للمدرسة لعله يلتقط شيئاً من القرآن، عسى يفتح الله فؤاده للعلم.

- بارك الله فيه، إنّهُ الخير يا أختي عويده، ناصر لا غبار عليه.
- خبرني، موه به ناصر؟ قالت عويده في استعجال.
- ابتسم المعلم خلفان من ذلك القلق غير المبرر بالنسبة له من عويده، فأشار إلى الطلاب في المدرسة وقال لها:
- هل ترين كلّ هؤلاء الطلاب يا أختي عويده؟
- نعم أشوفهم.

- والله يا أختي ناصر أفضلهم وأحسنهم.

اقشعرّ جسد عويده ووقفت الشعيرات في ساعديها من تلك الكلمة التي قالها المعلم خلفان عن ناصر وهي غير مصدّقة، وفي نفس الوقت محتاجة إلى أن تفهم كيف هو أفضلهم وأحسنهم؟ أضاف المعلم قائلاً:

- الولد ما شاء الله عليه، على سنواته الأربع، أظهر قدرة عجيبة على الحفظ، فما رأيت من يوم بدأت أعلم القرآن طالباً للعلم في مثل سرعة حفظه، الولد سابق سنّه في استيعابه وقدرته، وسيختم المصحف في سنّ صغيرة بإذن الله، حتى أنه يسألني أسئلة يتغلّق عليّ الإجابة عنها.

تستمع عويده لحديث المعلم وكأنّ ماء بارداً يُسكب عليها وقد كانت تشتعل قلقاً قبل قليل: «لعلّ الخير سيأتي على يد هذا الطفل الأعمى» حدثت نفسها بينما المعلم ينظر إلى ناصر ويقول بصوت عالٍ:

- شباش عليه ناصر، شباش.

شكرت عويده المعلم، ووعدته بأنها سترسل مع نفّافة غداً هدية بشارته لها، انتبه المعلم إلى أنّ أصوات الطلاب قد هدأت، فلّوح لهم بالعصا، فضجّت أصواتهم مرة أخرى بالتلاوة. استأذنت عويده من المعلم، وعاد هو إلى مكانه مسنداً ظهره إلى جذع شجرة القاو الكبيرة.

بعد أن عادت نفّافة وأخوها من مدرسة القرآن في ذلك اليوم، ألبست عويده ناصرًا حرّاً مخيطاً في قطعة من الجلد، ونبّهت نفّافة إلى أن

تحرص على الحرز في رقبة أخيها وألا يتبلل بالماء ولا يخلعه، فوعدها نَفَافَةً بالحرص عليه.

بعد قليل أتت سالمة وفي يدها لحم طازج مربوط بخوصة:

- هذا اللحم صدقة عن سلامة سلّوم. قالت لخديجة وهي تناولها اللحم.

شكرتها خديجة وسألتها عن أمّها وعن صحة سلّوم، فقالت ضاحكة:

- بخير، اليوم فكّوا الجبيرة، وطار من البيت، سلّوم ما يهجع.

دعت له خديجة بالصحة ودوام العافية، ونادت ابنتها: «نَفَافَةُ تعالي، هنا سالمة»، فخرجت نَفَافَةُ وسلّمت عليها:

- ما جنّت اليوم المدرسة حسبتك مريضة؟

- اليوم ذبحنا عجل، وجلست أساعد أُمّي في تقطيع اللحم.

تحدّثت سالمة مع نَفَافَةَ بعض الوقت، ثم واصلت طريقها لتوزّع اللحم على بقية البيوت.

(39)

بعد انتهاء الدراسة في مدرسة القرآن، أتى حمود وسلامة إلى بيت نَفَافَة وناصر لكي يأخذوهما إلى الرِّقَاط، لاحظت خديجة تعلّق ناصر بحمود، رأته وهو يركض إليه حينما سمع صوته، وهي ترى حمود كما ترى ابنها، شيء ما يجعلها تجد فيه ما لا تجده في بقية الأطفال الآخرين، ربما لأنّه ابن زُهرة صديقتها المخلصة. حمل حمود ناصر فوق كتفيه وسلامة ونَفَافَة خلفهما، ابتسمت خديجة شاعرة بالرضا والاطمئنان على ابنها في يدي ابن صديقتها، وفي الطريق بالقرب من ساقية الفَلَج كان بقية الأطفال في انتظارهم، أنزل حمود ناصر من فوق كتفيه وأمرهم أن يقتربوا منه، وقف وسطهم قائلاً:

- عندي اليوم مفاجأة لكم، بعد ما ننتهي من الرقّاط آخذكم إلى مكان.

صرخت سالمة التي يسمّيها حمود اللاعية لكثير كلامها وردودها عليه:

- وافقري... حمود هين تاخذنا؟

- الوادي.

أقنعهم حمود أنّهم سيستمتعون هناك برؤية الحصى الملون، والسباحة في البركة، وربما يشاهدون بعض الضفادع الصغيرة،

والحشرات الطافية على سطح الماء. وافقوا على الذهاب، وبعد أن انتهوا من الرقاط، اتجهوا في طريق الوادي، أمرهم حمود بترك مخاريفهم الممتلئة بالرقاط تحت شجرة سُمر على جانب الوادي، لكنّ مبارك رفض فكرة حمود وقال:

- أخاف يكون هنا لصوص ويسرقوا رقاطنا ومخاريفنا.

- لا تخاف، ما أحد يسرق رقاطك ومخاريفك.

سكت مبارك وترك مخاريفه مع بقية المخاريف، سار بهم حمود تحت أشعة الشمس الحارقة التي تكاد تشوي جلودهم فيتصببون عرقاً، صرخ سلّوم:

- آها.. احترقنا تحت هذي الشمس.

ضحك منه مبارك:

- آها تحمّل، ما من حد يوم ما قادر تهجع في البيت.

واصلت الفتيات المشي خلف الأولاد، وحينما وصلوا الوادي تفاجؤوا ببركة ماء صافية مختبئة تحت جبل، تتلأأ الأحجار الملونة تحت مائها مع انعكاس أشعة الشمس، فيبدو منظرها ساحراً خصوصاً في ذلك الوقت من النهار، وفي يوم صيفي قاطظ كهذا اليوم. أسرع الأطفال بالدخول إلى الماء مبللين أقدامهم كي يطفئوا النار المشتعلة في قيعانها من أثر حرارة الطريق وسخونة الأحجار، وقبل أن يرموا فيها للسباحة أخبرهم حمود أن يشربوا من أعلى البركة، فشربوا على ظمأ حتى ارتووا

بعد أن أرهقهم الحرّ والعطش، فوجدوا ماءها باردًا عذبًا زلالًا، وسقى حمود ناصر بكفيه حتى ارتوى.

ترك حمود ناصر مع نَفَافَة، وركض مرتميًا في البركة دون أن يخلع ملابسه، وكذلك فعل بقيّة الصّبية، وبدؤوا يلعبون لعبة من يستطيع البقاء في الماء أكثر. دخلت الفتيات أيضًا في البركة للسباحة عدا نَفَافَة التي جلست مع ناصر برفقة فتاة أخرى تحت سِدرة ظليلة، سرقهم الوقت حتى سمعوا صوت المعلّم خلفان يؤذن لصلاة الظهر، صاح مبارك وهو في وسط البركة:

- حوه عليه معلّم خلفان، صوته واصل حتى هنا، خفت، تخيلت عصاه على ظهري.

ضحك الأطفال وقال حمود:

- استغفر الله يا مبارك، ردّد دعاء سماع الأذان، وقل الله أكبر.

- يعني ما تخاف أنت من معلّم خلفان؟

- ما قلت إنّني ما أخافه، ولكنّه تو يؤذن الأذان، وعصاه بعيدة عنّا.

رد سلّوم:

- صدّق مبارك، المعلّم خلفان صوته قوي، حتى هنا نسمع صوته،

هذا يلاحقنا في كلّ مكان.

سمعته سالمة وردت عليه:

- اترك عنك هذا الكلام واخرج من الماي، أنت ما بخير، وإلا أخبر عليك أُمي وتضربك حتى تتأدب.
- أخرج سلّوم لسانه لأخته وأخذ ماء بكفه ورشه عليها، فدخلت الماء وضربته على ظهره وسحبته من هناك وهي تقول:
- أنا أضربك قبل أُمي، يا العرج أنت.
- خرج الجميع من الماء وراء سلّوم بعد أن أدركوا أنّهم تأخروا بالفعل، وسوف يتعرّضون جميعاً للعقاب وليس سلّوم فقط، وحينما خرجوا من الماء كانت ملابسهم مبللة وملتصقة على أجسادهم الصغيرة، وجلسوا على الأحجار القريبة من الوادي حتى تجفّ ملابسهم، ولكن، ولأنّ الوقت تجاوز الظهر خشي حمود أن يكون أهلهم قد خرجوا يبحثون عنهم، وهم سيتعرّضون للضرب إن هم تأخروا أكثر من ذلك، فأسرعوا بالعودة وثيابهم ما زالت رطبة، وقد كانت حرارة الشمس في الطريق كفيلة بتجفيف أجسادهم وملابسهم. أخبرهم حمود بالعدر الذي سيخبرون به أهلهم:
- إذا سألوكم أهلكم ليش تأخرتوا؟ أخبروهم إنّنا تأخرنا في الرقاط، لأننا ما قدرنا نملاً مخاريفنا من الضواحي القريبة.
- علّق مبارك قائلاً:
- دوك انتّه، طلعت ما سهل يا حمود، أنت كذاب.
- قال حمود وهو يركض أمامهم:

- كذاب، عشان لا تنضرب يا الغبي.
- صرخت فيهم سالمة قائلة:
- خلا ركضوا، واتركوا عنكم المناقر كأنكم ديكه.
- ركضوا إلا حمود الذي تأخر في السير عنهم لأنه كان يمسك بيد ناصر، فلم يستطع أن يحمله على كتفه وثيابه مبللة. وصل الأطفال إلى حيث وضعوا مخاريفهم تحت شجرة السمر، لكنهم وجدوها خالية من الرقاط إلا القليل المتساقط منه على الأرض وكأن هناك من سرقه أو أن يدا قامت ببعثرته.
- صرخ مبارك موجهاً اللوم لحمود:
- أنا قلت لك اللصوص أيسرقوا رقاطنا، لكنك ما سمعت كلامي.
- قال سلوم:
- هذا لص عجيب أو غبي أو جائع، وإلا كيف يسرق الخلال ويترك المخاريف؟
- لم يعلق حمود بشيء، وكان ينظر حول المكان باحثاً عن شيء يقوده إلى من سرق وبعثر الخلال من المخاريف، ولكن نفاة تحدثت هذه المرة، وقليلًا ما كانت تتكلم خصوصًا في نقاشات الأولاد حينما يتناقشون بحدة، قالت وهي تشير لشيء قريب:
- ما سرقوا اللصوص رقاطنا، هوش الشواوي، أكلته.
- نظر حمود إلى الشيء الموجودة بالقرب منهم وقال:
- صدقت نفاة، هوش الشواوي أكلن الرقاط.

قال سلّوم بصوت عال:

- حوه عليهن، هوش لّصات.

ضربته سالمة على ظهره قائلة له:

- ليش تصرخ وأنت تتكلم، ترى كلنا بخير ما فينا صمم، صدّعنا.

ركض مبارك خلف كبش كان يحرك فمه ويمضغ، ومسكه محاولاً فتح فمه للتأكد من أن الكبش يأكل خلالهم، فما كان من الكبش إلا أن غضب وزمجر ونطح مبارك وأسقطه أرضاً، خاف الأطفال وضحك بعضهم على مبارك الذي ذهب حمود لمساعدته بالنهوض قائلاً له:

- موه تريد من الكبش، حتى الكبش تتضارب معه؟

- كنت أريد أخرج الخلالة من حلقه.

- عجب عليك بمناطحته؟

- وموه قالوا لك، أنا كبش حتى أناطحه؟

- أنا ما قلت إنك كبش، أنت قلتها.

تدخل أحد الصبية كيلا يتعاركا، وأثناء حديثهما ركض الكبش نحوهما مرة أخرى ونطح مبارك، فجذبه حمود وركضا معاً وهو يطلب من الأطفال أن يركضوا قبل أن يقترب الكبش منهم، ركضوا وبسرعة، رفع حمود ناصر على ظهره وركض به مهتراً بين كتفيه لا يرى ما يرون، لكنّه يفهم ويعي ما يحدث ويتسم لما يسمع منهم. لم يتحدث أحد من الأطفال عما حدث رغم أن مبارك كان يعرج حين يمشي، فقال له حمود:

- إذا سألوك في البيت ليش تعرج قل لهم أنك كنت تتسابق مع سلّوم وسقطت على الأرض.

ضحكوا جميعاً وقالت سالمة ضاحكة:

- اسمع انتة، قلت إنك دهج يا حمود، وإلا كيف يتسابق مع أعرج؟
ضحكوا جميعاً وغضب سلّوم من سالمة لأنّها تصفه بالأعرج وهدّدها
بأنّه سيخبر أمّه عليها، فأخرجت له لسانها وواصلوا السير.

ومع الأيام، أصبحت حرارة الشمس لا تطاق، وجفّت بركة الوادي،
وعاد الأولاد إلى السباحة في الفلّج، ولكنّ ذلك لم يمنع حمود من أخذ
الأطفال إلى مغامرات يجدون فيها متعة الاكتشاف، فأحياناً يطاردون
الفنازير، وأحياناً يمسكون الجراد، أو يتربّصون بضبّ أخرج رأسه من
جحره، وأحياناً ينكشون أعشاش الطيور في أغصان أشجار الغاف
ويسقطون العصافير الصغيرة، فيذبّحونها بأطراف أظافرهم ويشوونها
ويأكلونها، وأحياناً يسرقون البيض من تلك الأعشاش؛ وحين لا يجدون
شيئاً يكتفون بسحل ورق السيفاد وأكله مع الملح والليمون، وقد
يحالفهم الحظ فيتبعون نحلة حتى يصلوا إلى الخلية فيقتلعونها، وقد
يتسلقون الجبال لرؤية ما يقع خلفها وما يندسّ داخل كهوفها حالمين
يوماً بالذهاب إلى الجبل الأشم حيث أشجار الجوز والرمّان والخوخ
والشمش، لكنّهم لا يصلون إلّا إلى أطراف حارتهم، مكتفين بتسلّق
التلال الجبلية البسيطة دون المجازفة بالتوغل في دروب الجبال الوعرة

ومجاهيلها، فطرقها شاقة ومحاصرة بالثوار في بقاع لا يصلها إلا من يعرف تلك الدروب، قال لهم حمود في حماس:

- في يوم من الأيام أذهب إلى قمة الجبل، وأتدرب على حمل السلاح، وأحارب من هدموا بيوتنا، ولن يوقفني شيء، أتجاوز الوادي وأنتقم لحارقي وأبناء حارقي.
ضحك مبارك وقال:

- دوك أنت «ابن الليل» واتروح بمفردك ولا أتاخذنا معك؟
نظر إليه حمود نظرة تحدّ وقال:

- من يرغب منكم بمرافقتي فليأت، أنا محتاج لجيش قوي معي.
قفز سلّوم ووقف أمام حمود وقال:
- نحن جيشك، أنا معك.

ضحك مبارك ضحكة عالية ونظر إلى سلّوم وقال:

- ما دام سلّوم الأعرج معك، فما شيء خوف عليك، قاتل معه وأنا خلّوني بعيد.

- تتخلّى عني يا مبارك؟

- أنا أريد أعيش، حارب وحدك.

ضحكت سالمة وقالت لهم:

- وافقري، هذولا المجانين بو نسير معهم، ومبارك من تو خايف ويرتجف.

- ثم نظرت إلى حمود وقالت له في حماسة:
- حمود ما دام سلّوم معك فلا خوف عليك.
 - هيه والله، لا خوف عليك. قال مبارك.
- ضحكوا جميعاً ومضوا في طريقهم وحمود يحلم بيوم يحمل فيه
بندقية أبيه، ويحارب بها، ويصعد إلى قمة الجبل.

(40)

عاد صالح إلى البيت متخفياً بالليل، شعرت به خديجة يندس في الفراش، كانت تترك الباب موارباً، ففي كل ليلة تتوقع قدومه، وما من بيت في حارة الوادي يغلق أبوابه، فالديار آمنة رغم الحرب، وما من خوف في قلوب ساكنيها من بعضهم، بل كل جار يحمي جاره، وبعد أن تكاثرت البيوت والعرشان تحت ضواحي النخيل أصبحوا أكثر اطمئناناً، وكان أكثرهم ينام في موسم القيظ أمام بيوتهم أو في السطوح، مفترشين فراشاً بسيطاً، حيث لا يمكن النوم داخل الغرف من شدة الحرارة، إلا حمدان الذي يصبر أن يبقى تحت شجرة المانجو ليله ونهاره؛ حارساً أميناً لخديجة وأولادها.

نظرت خديجة إلى صالح بخجل وقالت له:

- أنا حامل.

سألها بفرح وهو يتسم:

- ومن متى؟

ابتسمت وخفضت رأسها وأشارت بثلاث أصابع أي ثلاثة أشهر.

حمد صالح الله في سره على نعمة الأبناء والزوجة الجميلة الصالحة،

قال في فرح:

- جاي حمد بإذن الله.

- بإذن الله، وناصر يسأل عنك كل يوم، فما تروح قبل أن تشوفه
ويسمع صوتك.
- لكنّه يعلم أنّ في تأخّره عن العودّة مخاطرة كبيرة، سألها:
- وهل العساكر بعدهم يجوبوا الحارة ويفتّشوا البيوت؟
- ما كما قبل، فإذا جلست وخرجت مع سرح الغنم ما أحد أيتبه
لك.

لم يكن خوف صالح من جيرانه، فالكلّ في نفس الخندق، والكلّ يؤمن بنفس القضية، سواء من تحصّن في الكهوف أو من بقي داخل الحارة، ولكنّ الخوف من تلك الهجمات المفاجئة التي يشنّها الجيش بحثاً عن الثوار. أنست الفرحة صالح بحمل خديجة كلّ ذلك، ودعا الله في سره أن يرزقه ولدًا معافً مع ناصر. ستكبر عائلته، وكان مشتاقًا لأن يسمع صوت أولاده. نام ليلته وقبل الفجر ذهب ليُلقّي السلام على عويذة التي كانت تنتظره هي الأخرى بلهفة وشوق، ورجته ألا يذهب حتى تقشده له سمناً وتعد له مخيض اللبن وتكون خديجة قد خبزت؛ كي يأخذ مؤونة تكفيه الأيام التي يكون فيها متحصّناً في العقبة مع بقية المرابطين. وبعد أن صلّى الفجر وجلس مع حمدان، أيقظ ناصر ونفّافة من نومهما، تعلّق ناصر بأبيه فور أن سمع صوته، جلس معهما قليلاً، وحكى لهما حكاية الثوار وما يفعلونه في الجبل، وأكّد عليهما أن يظلّ هذا الحديث سرّاً المشترك، وأخبره ناصر بأنّه بدأ يحفظ القرآن، فقرأ له بصوته الشجي

العذب سورة التكاثر، وأخبرته نَفَافَةً أَنَّهَا ختمت جزء عم، وأن جدّتها عويذة ذهبت للقاء المعلّم خلفان بشأن ناصر، فسأل أمّه عن ذلك اللقاء، فأخبرته بما قاله عن ناصر، فحمد الله في سرّه كثيرًا، ونظر إلى ناصر، ودعا أن يفتح الله بصيرته وينير قلبه ويعافي جسده من الأسقام والأمراض ليراه رجلاً يرث شجاعة أجداده وإن كان أعمى.

وقبل أن تشرق الشمس بنورها على حارة الوادي كان صالح قد أعدّ حمارته وذهب حاملًا المؤونة والزاد الذي أعدّته له أمّه عبر الطريق الذي يسلكه الثوار عادة، عائداً إلى الجبل، غير متأكد متى سيراهم مرة أخرى.



ظلّ صالح يزور عائلته متخفياً مرة في الأسبوع أو مرتين، يذهب إلى زيارة سيف ورجال آخرين، أو يكلف حمدان بمهمات سرّية، وكلّ ذلك يحدث على مرأى من عويذة وخديجة. مرّ أسبوع ولم يعد صالح، أصاب قلب خديجة القلق وأصاب عويذة الشكّ بأنّ مكروهاً حدث له، فما من عادته الغياب، أتى سيف وسأل عنه، ولكن لا أحد يعلم سرّ تأخّره، قاومت خديجة وسواس قلبها، وأقنعت نفسها أنّه ربّما ذهب إلى زيارة إخوتها في الجبل، ولكن هذه المرة طال غيابه على غير العادة، وما زاد قلقها وشكّ عويذة أنّ حمارته عادت بمفردها، ولم يحدث ذلك من قبل، فهذه الأتان بالذات ما كانت تتحرك إلّا وصالح على ظهرها، أتان مستأنسة، ربّاهما صالح منذ أن كانت صغيرة، يميل لونها إلى البني الغامق،

وعويده تسميها «الخضرا»، ربطت خديجة الحمارة لعله يعود تابعا حمارته، ومرّ أسبوع آخر ولم يعد. تقف خديجة أحيانا أمام الحمارة وهي تضع البرسيم أمامها وتسألها بحرقه وألم:

- يا الخضرا خبريني هين راعيش؟

ولو كانت الأتان تتحدث لأخبرتها، وربما لو أطلقوها لذهبت إليه، جربت عويده ذلك وأطلقتها وأمرت حمدان أن يتبعها، لكنّها لم تتحرك من مكانها، بل ظلّت تنهق كلّما جاعت وتنام كلّما شبعت، أعادت عويده الحمارة إلى مكانها وربطتها في مربطها، وأرسلت حمدان في أثره، ركب حمدان الحمارة وعنده أمل أن تدلّه «الخضرا» إلى حيث تركها صالح.

غاب حمدان منذ شروق الشمس وحتى مغيبها، ولكنه عاد دون أن يعثر عليه. أرسلته عويده في اليوم التالي إلى الجبل ليسأل أنسابه هناك، لعلهم يعرفون شيئا عنه، وغاب حمدان هذه المرة يومين، وحين عاد أخبرهم أن أنسابه لم يلتقوا به ولم يروه.

ذهب الرجال مرة أخرى، وبقيت النساء في البيت مع عويده وخديجة يخفن عنهما ألم المصاب، يواسين عويده التي ما كانت تقبل المواساة، وهي تعيش حالة من الذهول والصدمة، تنتظر من يبشرها بأن ابنها بخير وأنه على قيد الحياة، ظلت عويده جالسة خارج البيت، تذرع الطريق ذهابا وإيابا ترقب عودتهم وعودته معهم، بحث بعضهم في الفلاة، وطلع بعضهم الجبل لعله هناك، لكنهم في كلّ مرة يذهبون ويعودون من دونه.

خانها صبرها، وخذلها احتمالها، انكشف ستر ضعفها، وبدت أوجاعها عاريةً أمامهم وليس لها حيلة على إخفاء ما أخفته طوال هذه السنوات، وكم من شروخ رقعتها لتستر بها ثوب جروحها، لكنَّ الجرح اتسع هذه المرة.

اختلط الأمر عليهم، اختلفت الآراء حوله، فمنهم من قال قُبِضَ عليه، ومنهم من قال قُتِلَ، ومنهم من قال تمت مطاردته وهرب، سألوا عنه كثيرًا، حتى رفاقه الذين كانوا معه قالوا إنه افترق عنهم وذهب وحيدًا ولم يعد، أعدَّ رجال الحارة فرقًا للبحث عنه، ربّما يكون مقتولًا أو مدفونًا في مكان ما. قال أحد رفاقه إنهم في تلك الليلة ذهبوا معًا لزراعة ألغام في الطرق المتوقَّع أن يحاول الجيش العبور منها، وفق التعليمات التي تلقوها من الإمام عن طريق أحد الوسطاء، فكان الاتفاق بينهم أن يتفرقوا، لينجز كلُّ منهم مهمته، ويلتقوا فجرًا، ولكن حينما وصلوا إلى المكان الذي اتفقوا على الالتقاء فيه لم يأت صالح. ذهبوا ليبحثوا عنه ولم يعثروا عليه، فظنّوا أنَّه عاد إلى الحارة. يقول الرجل الذي كان ضمن رفاقه لعويذة: إنهم شكّوا في أمر غيابه لأنّه ليس من عادته التحرك دون أن يعلمهم، وليس من عادته أن يتأخّر، وكانت لهم لغة رمزية ينادي بعضهم بعضًا بها إذا ابتعد أحدهم أو تعرّض لخطر ما، فنادوا عليه ولم يردّ على نداءاتهم، وفي ذلك اليوم انتظروه طويلًا ولم يعد، أخذتهم الظنون أنّه ربما غير شيئًا في الخطة المتفق عليها، وبعد أن طال انتظارهم له، بحثوا عنه

ولم يجدوه، فتّشوا في الكهوف التي ربما يكون مختبئاً فيها لإصابة أصابته، والمنحدرات التي ربّما سقط منها، ولكن لم يعثروا له على أثر، وكأنّ الأرض انشقت وابتلعتة أو أنّ الجبل انفلق وأطبق عليه، أو السماء انفتحت وأخذته.

خرج الرجل الذي كان الأقرب إلى صالح في ذلك اليوم وذهب معه حمدان، وخرج أيضاً عدد من رجال الحارة مرة أخرى ليتحسسوا أثره، وأخذوا معهم قافر البلاد، ربما يتتبع أثر خطواته، في وادٍ أو جبل أو كهف، تصيح بهم عويذة:

- جيبوا لي خبر عنه، بأي أرض أو سماء، علوه قلب الأم تعيب.
رجع بقية الرجال وغاب حمدان والقافر ليومين في الصحراء والجبال، لكنّهما لم يأتيا به، كان الأثر ينقطع عند عقبة النسور، أثار لأقدام كثيرة وجدها القافر، فلم يستطع تمييزها، وفي تلك البقعة كان أثر صالح يختفي، قال القافر إنّّه لم يتحرّك لمسافة غير هذه المسافة، فأثار أقدامه تنتهي في هذا المكان..

- لم يُقتل، صالح بعده حيّ.
- قال القافر بثقة لحمدان الذي كان في أشدّ حالاته تعباً وضيقاً.
- وكيف تعرف أنّه بعده حيّ؟

قال حمدان وفي صوته شيء من الأمل والتفاؤل، نظر القافر إلى الفضاء الرحب أمامه وكأنه يركّز في شيء وينظر نحو نقطة لا يراها حمدان، وقال:

- لو كان مقتول أتكون الجثة دليل على موته، وأتشوف العقبان تحوم، لكني ما أشوف شيء، صالح ما موجود هنا لكنّه بعده على قيد الحياة.

- وإذا كان حيّ كما تقول فهين هو؟ سأل حمدان بنفاد صبر.
- الله يعلم، هذا ما لا أعرفه، بس هنا ينقطع أثره. خط القافر بعصاه على المكان.

حينما عاد حمدان، ورأته عويذة عائداً مع القافر من غير صالح، أخذتها الظنون كلّ مأخذ، ولعب الشيطان في صدرها القلق، صرخت:

- هين صالح، أشوفه ما رجع معكم..؟

تقاوم عويذة وسواس أن يكون صالح قُتل كما قُتل أبوه، تقف مبهوتة وهي تستعيد ذلك اليوم الحزين الذي قُتل فيه زوجها غدرًا.

تتعبها هذه المقارنة بين الولد وأبيه، تلعن الشيطان الذي يوسوس لها ويعيد الذكريات التي تمت أن تنساها بعد أن وجدت في صالح وأولاده عوضاً عن فقدائها.. ما زالت تلك الذكرى تترأى لها محمولاً على ظهر الحمار، رأسه العاري من العمامة يتدلى من أحد جوانب ظهر

الحمار وقدماه الحافيتان تتدليان من الجهة الأخرى، أيقنت أنّه ميت،
فناصر زوجها وتعرفه، حتى في أشدّ حالاته تعبًا لا يمكن أن يرقد تلك
الرّقدة ولا أن يُحمّل على حمار بذلك الوضع، تلك جثته الهامدة، تختنق
الصرخة التي صرختها في ذلك اليوم حتى شقّت عنان السماء، واهتزت بها
جنبات الوادي، وأخرجت الجيران من بيوتهم، فخرجوا جميعًا وهي
تركض لاستقبال زوجها المقتول، غير مولية على شيء. وحينما أنزلوه
كان جسدًا بلا روح، عيناه كعيني صقر مفتوحتين تنظران إلى الفراغ.
راح دمه هدرًا وشربته الأرض التي ضمّت جسده وأخرجت بطولاته
وحكاياته، وليس لها إلّا الصبر والشكوى لرب العالمين الجبار المنتقم،
ولكن من ستُحاسب وقد رحل من كان عليها محاسبته بعد موت ناصر
بثمانى سنوات، عاشتها وهي تمنّي نفسها كلّ يوم بالثأر لزوجها، وكم
تمنت أن ينتقم صالح لأبيه، ولكن أبت عليها نفسها أن تشعل نار الفتنة في
العائلة الواحدة، وخصوصًا أنّ ياسر ولد الشيخ منصور قد تزوج ابنتها
حميدة، ولم تجد منه إلّا كلّ خير، تستغفر ربه من تلك الظنون التي
تأخذها وترجعها إلى ذلك الطريق الوعر، تلعن عويذة الشيطان في سرّها
وجهرها، فهي لا تريد أن تستعيد كلّ تلك الذكريات الآن، لا تريدها أن
تأتي دفعة واحدة، ولا تريد أن تقارن الابن بأبيه في أمر تحاول نسيانه،
فصالح بخير ولن يكون مصيره كأبيه، صالح ما زال على قيد الحياة، ذلك

ما هي متأكدة منه، فلم تر رؤيا ولا إشارة تدلّها على شيء، ولم يزرها ناصر منذ زمن طويل ليلقي عليها السلام وألغازه التي اعتاد أن يأتيها بها. هي لا تريد أن تشكّ بأحد من أبناء الحارة الذين ترى فيهم كلّهم أبناء وأخوة، وليس لصالح أعداء بينهم ولا أخ ينافسه على المشيخة، فقد كان لأبيه أسرارته التي لا تعرفها، ولكنّها تعرف صالح وتعرف تحرّكاته، وإن لم يخبرها التفاصيل، لكنّها تعرف وحمدان يعرف مع من يذهب صالح ومن يرافقه، خانها صبرها فبكت وصرخت قائلة:

- علوووه مكتوب عليّ الشقاء... وقلبي تعيب من فراق مضموني.

(41)

سار المغامرون بقيادة حمود في طريقهم ولم تكن نَفَافَة وناصر معهم هذه المرة، وأثناء سيرهم لفت انتباههم أماكن استيطان الشواوي تحت أشجار السَّمر، فلا تظللهم من أشعة الشمس الحارقة سوى أقمشة خفيفة وجلود حيوانات ملقاة على السَّمرة لا تقيهم حرارة الصيف ولا برد الشتاء، انحرف مبارك مبتعدًا عنهم فنادى عليه حمود:

- مبارك تعال، هين رايح؟
- أنا معكم، ما رايح مكان.
- رد سلّوم ضاحكًا:
- مبارك خايف من الكبش بو نطحه أمس.
- نادى عليه حمود:
- ارجع يا مبارك، الكبش ما هنا، وإذا جاء وأراد أن ينطحك أيتعلّق سلّوم في قرونه.
- عاد مبارك للسير معه وهمس له حمود:
- تو مالك مبارك، صحيح أنت خايف من الكبش، يا أخي خليك معنا ولا تباعد، الكبش ما ينطح إلّا من يشوفه وحده.
- أنا ما خايف، لكنّه كبش غبي وما يفهم، وينطح كلّ بو يشوفه.
- قال مبارك بصوت مرتجف فضحك حمود وقال:

- مبارك، خلّ عنك هذا الخوف، الكبش ما ينطح إلا كبش مثله، خليك رجّال.

نظر مبارك إلى كلّ الاتجاهات كي يتأكد أنّ الكبش ليس موجودًا، اقترب من حمود وسارا مع البقية، نظر حمود إلى مسكن الشواوي، فقال وهو يعدّ الشجيرات المظّللة التي يعيشون تحتها.

- ثلاث عائلات ما أكثر.

رد عليه مبارك:

- يقول أبوي أنّهم في الأصل عائلة واحدة، لكنهم تزاجوا من أبناء أعمامهم وخالاتهم، حتى كبرت العائلة وتفرّعت، الشواشي ما يتزوّجوا إلّا من عائلتهم بس، وما يحبّوا مخالطة أحد، فلا هم مع الحضر ولا مع البدو.

- لأول مرة يقول مبارك كلام صدق ولا يكذب. قال سلّوم.

- أنت تكذب، أنا صادق دائمًا.

صرخت عليهم سالمة من الخلف:

- يكفيكم نقار وشجار، هلكتونا.

ضحك الأطفال وواصلوا سيرهم محاولين اللحاق بحمود الذي كان يمشي سريعًا، لاحظوا أن هناك مسكنًا آخر منعزلًا في الخلف بمسافة قريبة من المساكن السابقة، قال مبارك بثقة:

- هذي عائلة غيرها، ولكن منهم وفيهم، يعني أهلهم.

- و ليش منعزلين، واحليلهم؟

سألت سالمة ولم يجبها أحد، ومضى الأطفال مقتربين من ذلك المسكن المنعزل، فرأوا فتاة صغيرة هزيلة جدًا، حتى إنّ عظام وجنتيها بارزتان، وعينيها غائرتان، سمراء اللون، ترتدي ثيابًا مرقّعة تجلس تحت شجرة من أشجار السّمر، اقتربت الفتيات من الفتاة، فلاحظن أنّ وجهها مليء بالبقع البنية الداكنة وكأنّها محترقة، وآثار وسم كبير على جبينها، وأمامها إناءان واحد فيه ماء والآخر فيه تمر، تقترب منها سالمة وتسألها:

- كيف حالش؟

تبسم الفتاة ابتسامة غير مستقرة ترتجف لها شفّتها، تفتح فمها محاولة الكلام، لكنّها لا تقول شيئًا، إنما تهتز وتنتفض في مكانها، تحاول أن ترفع يدها الهزيلة، لكنّ يدها كانت ترتعش، بل كلّ جسد الفتاة كان يرتعش، تطاير الذباب من حول رأسها وشعرها المنكوش، فانكبت على وجهها في التراب، تعاونت سالمة وسلامة على رفعها، فشممن رائحة بول وبراز في ثيابها، ابتعدت الفتيات عنها، حاولت الفتاة الزحف نحوهن لكنّها انكبت على وجهها مرة أخرى، فبدأت برفس التراب بقدميها وإصدار أصواتٍ أشبه بأصوات صياح أو استغاثة! أتت امرأة من خلف الشجرة تركض غاضبة تصرخ عليهن:

- موه تبغين منها؟ تركنها، مريضة.

ابتعدت الفتيات وركضن، دون أن ينظرن إلى الخلف، وحينما التفتن كانت المرأة قد ابتعدت عنها والفتاة تنظر إليهن وما زالت تحاول رفع يدها، لكن يدها ترتعش وكذلك جسمها. ركضت الفتيات ولحقن بالأولاد الذين تقدموا في سيرهم مسافة، فقد أخبرهم حمود بأنّ خطة اليوم أنّ الأولاد سيبحثون عن أي أثر لصالح بن ناصر لعلّهم يعثرون على شيء يدلّهم على وجوده في مكان ما، وفي ذات الوقت سيبحثون عن خلايا العسل، والبنات سيقمن باقتناص الفنازير والجراد، لكنّ سلّوم الذي لاحظ أنّ أولاد الشواوي كانوا يتبعونهم وينظرون إليهم، قال متحدثاً:

- تعالوا نغايظهم ونضحك عليهم.

التفت إليه حمود محدراً:

- اترك عنك المغايظ، عندك مهمة، خلا نبحت عن العسل، وفي نفس الوقت تهجّسوا في المكان يمكن نعثر على العمّ صالح هنا أو هناك.

- نبحت ليش لا. قال سلّوم

علّق مبارك ضاحكاً:

- عسى تلدغك اليوم نحلة في عينيك الاثنتين وواحدة في لسانك، وبعدها غايظهم إذا عرفت تتكلم.

أمرهم حمود بالتحرك والتزام الصمت قبل أن ترتفع حرارة الشمس أكثر..

لكن سلّوم لم يصمت، بل توقّف مع مجموعة من الأولاد وبدؤوا
بالغناء بصوت مرتفع ومسموع:
«شواوي لواوي لبنكم حصّ
عندكم بنية وعينها تبصّ
خليتها تحت السميرة
وشلّها اللصّ».

وكان أولاد الشواوي يردّون عليهم برميهم بالحجارة، ثم أطلقوا
خلفهم كلبًا مطاردًا إياهم فلاذوا بالهرب، راکضين للحاق بحمود الذي
كان يسير مسرعًا غير آبه بما يحدث في الخلف، لكنه التفت إليهم حينما
سمع صراخهم وهم يركضون، فرأى أنّ الكلب بدأ يطاردهم وأولاد
الشواشي يضحكون عليهم. توقّف حمود، وعاد إليهم ووقف مواجهًا
الكلب الذي كان ينبح ويزمجر، نظر إليه فتوقّف الكلب وقفل راجعًا:

- وافقري... كيف قدرت توقّف الكلب؟ كان أيعضنا. قالت سالمة.
- الكلب ما يطارد غير الخائف، ومن يعمل شيء خاطئ.
- عجب هذا كلب ذكي. قال سلّوم.
- هذا حارس أغنامهم وحارسهم، فكن مؤدّب يتأدّب الكلب من أدبك.

وبعد أن تراجع الكلب ذهب حمود إلى أولاد الشواوي الذين كانوا
يمسكون بحصى في أيديهم، فاعتذر منهم، أثناء ذلك أتى ولد قصير

ضعيف له وجه دائري أسمر وعينان واسعتان مكحولتان، وشعر أسود قصير ناعم يصل إلى رقبته، اقترب منهم وقال بصوت فيه شيء من التحدي والغضب، وبلكنة الشواوي المتقطعة:

- هو جايينكم حيت حلتنا؟

فرد عليه حمود:

- جئنا نبحت عن غسل.

نظر الولد إلى حمود كأنه يتأكد مما يقوله، ثم قال:

- هذي منطقتنا، لا تقتربوا منها.

- وهين نبحت عن العسل؟ نحن أولاد الحارة ومن حقنا البحث في أي مكان.

ضحك الولد القصير:

- دوك أنت، ما يعرف مكان العسل إلا من له خبرة ودراية، وهذه

مهمة البدو والشواوي ما الحضر، أنتو يكفي عليكم تحصلوا نفقة

الدود وتفرحوا وتقلعونها وتشوونها وتأكلونها.

رد مبارك مغتاظًا:

- وهل تريد أن تقول لنا إنكم ما تاكلوا الدود مثلنا؟

- نحن ما نأكل الدود، نحن نأكل الطيور ولحم الغزلان.

- أنتو الدود يأكلكم. قال سلّوم.

- أنت الدود ومن معك. قال الولد القصير.

- هيه لا تغلط علينا، وأنت وحدك كما التفتة لكنك تشبه الفتة. قال مبارك.

ضحك الأولاد والبنات من بلاغة مبارك المفاجئة، نظر إليه الصبي:

- أنا أراويك من التفتة.

قفز الولد متحرّكًا باتجاه مبارك ليتعارك معه، فتدخل حمود حاجزًا بيده بينهما قائلاً:

- اتركه عنك، أنت أعقل منه، هذا مجنون وما يقيس هرجه، لكن أنت أخبرني كيف نحصل على العسل بما أنك خبير.

تراجع الولد والتفت لحمود ونفخ صدره وقال:

- أنا ما خبير، ولكنني أعرف العسل من هين يجاب، وعسل الجبال مذاقه ما يشبه عسل الوديان، وعسل السّمر ما كما عسل الصدر، اسمحوا لي أقولكم أنتو ما تعرفوا العسل، نحن أدرى به وأعلم.

- عجب أنت ما تعرفني، أتحدّاك وإذا ما أجيب لك خلية عسل كما عسلكم ما أنا حمود بن سيف.

فتح الولد القصير عينيه المكحولتين بكامل اتساعهما، ولم يكن أحدٌ غيره يتحدّث وسط تلك المجموعة التي تحيط به من البنات والأولاد، وقال لحمود بصوت عالٍ حادّ به رنة:

- تتحدّاني؟

فهقهت سالمة حين سمعته، ونظرت إلى الفتيات وقالت لهنّ بهمس:

- دوكم، صوته كما صوت البنات، هذا الولد غاوي بس كما الشيطان.

ردّ حمود عليه:

- هيه، أتحدّاك، ولكن مو اسمك؟

- اسمي جندب.

ضحك مبارك وقهقهه حتى دمعت عيناه من الضحك وهو يقول:

- عجب اشرب مرق جندب.

تقدّم سلّوم وقال لجندب:

- إذا أنت اسمك جندب أنا اسمي فنزير.

ضحك الفريقان، وذهب الولد في اتجاه ومعه رفاقه، وذهب حمود في اتجاه آخر ومعه رفاقه، واتفقا أن يلتقيا قبل أن تتصف الشمس في وسط السماء، قياساً بظلة حدّدها جندب، غاب الفريقان وحينما عادا لم يكن لدى حمود ورفاقه سوى الفنازير والجراد، ومع جندب ورفاقه خلية يتقاطر منها العسل صافياً شهياً، سال لعاب أبناء حارة الوادي لمنظرها، نظر جندب إلى حمود ورفاقه وقال متباهياً وهو يهز رأسه:

- تتحداني مرة ثانية؟

- هاعة ما أقدر أتحداك.

- وموه تعطيني؟

رد سلّوم قبل أن يرّد حمود:

- أنعطيك الفنازير، وأنت تعطينا العسل.
- اترك فنايزك حالك.
- ضحكوا جميعاً، فتقدّم جندب وهو لا يكاد يصل إلى منتصف صدر حمود، رفع رأسه وهو يخاطب حمود بصوت حاد:
- أنقاسمكم العسل، وأعلّمك كيف تتبّع النحل ألين توصل للخلية، العسل يحتاج إلى جسارة وقوة، وأحسن أنواع العسل ما تحصل عليه بسهولة، يحتاج تعب ومشقة باه...
اتفق جندب مع حمود على اللقاء غداً في مكان حدّده جندب، وتصافحا وذهب كلّ واحد منهم في طريقه مع رفاقه.
- لاحظ حمود أنّ البنات كنّ يمشين ببطء وتأخرن في سيرهنّ وهنّ يتحدثنّ، فنادى عليهنّ:
- خلا، ليل، ركضن عن الكباش يشوف مبارك وينطحه.
- ركض مبارك متقدماً عنهم، وضحكت الفتيات وتراكضن حتى يلحقن بالأولاد الذين يحاولون مجاراة حمود في سيره الراكض وهو يلوح بيديه إلى الأمام والخلف.

(42)

وصل الأطفال إلى المكان الذي اتفق حمود مع جندب أن يلاقيه فيه، ليعلمه كيف يتتبع النحل الذي يأتي ليستسقي من فُرْصَةِ الفَلَج، وكان جندب بانتظارهم. تقدّم جندب قافراً كغزالة مصافحاً حمود وبقية الأولاد شاداً على أياديهم بقوة، ولكن قبل أن يتحرّكوا أتى أحد أولاد الشواوي وطلب أن يحدث حموداً كونه الأكبر بين الأولاد، ذهب حمود وتنحى معه جانباً، وحين عادا كان جندب قد اختفى من المكان، تلقت حمود في كلّ الاتجاهات ولم يجد جندب فسألهم:

- هين جندب؟

- قفز وركض من هذا الاتجاه.

قال سلّوم وهو يشير إلى الجهة التي ركض إليها..

- توقعت أنّه يهرب، لكن ما عليه، أبحث بأنفسنا عن العسل،

جندب ما يجي معنا.

قال حمود، فنظر إليه الأولاد والبنات نظرة استغراب ودهشة، صاح

مبارك:

- وليش ما يجي جندب معنا، نحن ما نتحرك إلا وجندب معنا.

- لو أخبركم عن حكاية جندب أتضحكوا وتتعبّجوا، جندب ما

جندب.

فغر الأطفال أفواههم وفتحوا أعينهم تعجبًا من هذا اللغز الذي يقوله لهم حمود، وأعينهم معلقة بشفتيه في انتظار أن يخبرهم حكاية جندب. صرخ مبارك الذي نفذ صبره قائلاً:

- كيف يعني، إيش هاذ الكلام الغريب؟ وكيف جندب ما جندب؟
هل هذي حزورة؟

أجاب حمود ضاحكاً:

- جندب ما جندب ولكنه جرادة.
صرخت سالمة:

- وافقري، وكيف كذاك؟

- يعني أنّ جندب في الأصل بنت واسمها جرادة.
يسأل مبارك وهو يضحك:

- يعني بنت، بنت؟

- نعم بنت، خلقها الله بنت، ولكن هي ما تحب تكون بنت.

اندهش الأطفال وتعجبوا وهم يستمعون إلى حكاية جندب من حمود، فقد استيقظت ذات يوم بعد أن أصبح عمرها سبع سنوات، وقالت لأُمّها بأنّها ولد وليست بنتاً، ولا تريد أن تلبس ملابس البنات، ضربتها أمّها حين سمعت منها ذلك الكلام وكذلك فعل أبوها، لكنّها تمرّغت في التراب وقطّعت ملابسها، وليست ملابس الذكور، ورفضت أن ترتدي ملابس البنات، ظنّت أمّها أنّ الأمر ليس أكثر من لعبة ولهو، وأنّه

سيأخذ فترة وينتهي، لكن الأمر لم ينته، إذ مرّ عام والفتاة تزدد تمرّدًا، وتجلس مع الرجال، ولا تلعب إلّا ألعاب الأولاد، ثم قصّت شعرها، وأخذت بندقية أبيها، وبدأت تغيب عن البيت، وتصطاد طيورًا وأرانبَ بريّة، واكتشف أبوها أنّها تجيد استخدام البندقية والتصويب بها حتى أكثر من إخوتها الذكور، وبدأت تتسلق الجبال وتحضر خلايا نحل العسل، وهي أحسن من يعثر على العسل وسط الجبال، فلم يكن من أمّها في النهاية سوى الاستسلام لرغبتها، ورحب أبوها بالأمر، وتقبّلتها عائلتها بهيئتها الجديدة، وكلّ من يراها لا يعرف أنّها بنتٌ.

وقد عرف حمود من أخيها أنّها ستهرب حينما تعرف أنّ هناك من اكتشف أمرها لكنّها سرعان ما تعود وكأنّ لا أحد يعرف شيئًا.
قال مبارك:

- عجب من اليوم ما أنحصّل عليه.
- لا تحاتي، باكر أتجي جراحة أو جندب وأنحصّل على العسل.
- ضحك سلّوم وقال:
- عجب أكلناه العسل دام من يد جراحة.
- عاد حمود بالأولاد في ذلك اليوم إلى البيت دون أن يعثروا على العسل، ولم يجنوا شيئًا من الجراد أو الفنازيز، بل اكتفوا بصدمتهم بمعرفة حقيقة جندب.



في اليوم التالي طلبت زهرة من خديجة أن تسمح لنفاعة وناصر بمرافقة حمود وسلامة، فوافقت خديجة المفجوعة على زوجها الذي لا تعرف عنه شيئاً. عاد الأولاد إلى الصحراء بقيادة حمود، وانتشروا في الوديان والسهول وفي الجبال يبحثون عن خلايا العسل، وبدأت البنات يسجلن ورق السيفاد الذي ما زال محتفظاً بطراوته ولونه الأخضر، ويطاردن الجراد والفتنازير، ويرمين السدرة بالحصى فتساقط ثمارها الناضجة وناصر معهن. تسأل سالمة نفاعة عن أبيها، فتقول نفاعة:

- أمي وحبوتي يقولن إن أبوي حي وبخير وأيرجع.

يستمع ناصر لحديث نفاعة وسالمة فيسأل نفاعة:

- متى يرجع أبوي؟

- ربك يعلم.

يعود ناصر إلى صمته، ضاماً في يده ثمار النبق، منصتاً لحفيف الشجر وهزيز الهواء وحديث الفتيات. نظرت سلامة فرأت حموداً راجعاً مع الأولاد في الفلاة القريبة من بيوت الشواوي، وحين اقتربوا صاح مبارك:

- الله يصرفك يا حمود، قتلنا من العطش، حتى جرعة ماي ما

حصّلنا عليها، وجرادة طارت.

قهقه سلّوم ثم صاح هو الآخر:

- عطشانين، حمود نريد ماي.

بحثوا عن ماء قريب فلم يجدوا، فذهبت سالمة إلى إحدى النساء الموجودات هناك بالقرب من الخيمة المنعزلة فطلبت منها ماء، فأخرجت لهم سعةً باردًا من الماء، نظرت سالمة إلى مكان وجود الفتاة التي كانت هناك تحت شجرة السَّمر فلم تكن موجودة، ولكن البقعة التي كانت تجلس عليها آثار حفر أقدامها على الأرض وهي تحاول الحركة تدل على أنها كانت هنا بالفعل، لم يكن الإناءان اللذان كان في أحدهما ماء والآخر تمر موجودين هناك، وكأنَّها ذهبت إلى مكان ما وستعود، كان المكان في انتظارها كما كانت الفتيات في انتظارها أيضًا، وقد ظنت سالمة أنَّها ربما داخل الخيمة.

نادت سالمة عليهم، فاقتربوا جميعًا، شرب الأولاد وبعدهم شربت البنات. وسألت سالمة المرأة بتردد:

- خالتي هين البنت بو كانت هنا تحت السَّمرة؟

صمتت المرأة وكأنَّ السؤال أصابها بالخرس، دمعت عينها ثم قالت:

- الحصة ماتت.

صمتوا جميعًا. لم تشرح المرأة كيف ماتت، أو ماذا حدث، بل انصرفت فور أن قالت لهم تلك الكلمة! حزنّت الفتيات على وفاة الفتاة التي لم يعرفن اسمها إلا بعد وفاتها. ولكنهم بدؤوا منذ ذلك اليوم يسرون قرب مساكن الشواشي المكشوفة بهدوء، فلا كلبهم ينبح حين يراهم، ولا كبشهم يركض نحوهم مطارداً مبارك لينطحه، ولا يرمي

الأطفال حجارتم عليهم. واقترب أولاد الشواوي من الأطفال الذاهبين إلى الوادي كما اقتربت البنات من البنات، وأصبح لثافة صديقات جديرات، تلعب معهن حتى ينتهي الأولاد من السباحة في تلك البرك الصغيرة والبعيدة التي لا يعرفها إلا أولاد الشواشي، وعندما يعودون تكون أم الحصّة قد حلبت لهم من الشياه حليبًا طازجًا، فيشربون حتى ترتسم الرغبة حول أفواههم، فيضحك بعضهم على بعضهم الآخر.

خرجت جرادة من مخبئها، وأخذت حمود في رحلة جبلية حتى إنّه تأخر عليهم، فعادوا إلى بيوتهم، ولم يبق سوى مبارك وسلّوم في انتظاره، وقد حملت سالمة ناصر هذه المرة حتى وصلوا إلى البيت، وحينما عاد حمود مع جندب من أعالي الجبال ومجاهل الوديان، كان كلّ واحد منهم يحمل وعاء مليئًا بالعسل، ودّع حمود جندب كما يودع صديقًا شاذًا على يده، وذهب مع رفيقيه اللذين تذوّقا العسل:

- هذا ألدّ عسل ذقته في حياتي.

قال مبارك وهو يلحس أصابعه، فأضاف سلّوم وهو يلحق شفّتيه:

- وهين راحت جرادة؟

ضحك حمود وقال له وهو يلهث حاملاً إناء العسل:

- ما كانت جرادة، كانت جندب، أو قول غزال أو أسد، لأول مرة في حياتي أتسلّق هذيك الجبال، وأوصل ذيك المناطق المجهولة، حتى أُنِي ما قدرت مجارة جندب في قفزاته.

أخبرهم حمود عن دهشته وهو يرى جندب يقفز تلك القفزات في الجبال والتلال والوديان كأنّه ظبي، باحثاً عن خلايا العسل البعيدة، بعد أن ربط خاصرته بحبل وتدلّى في جرف بين جبلين، نازلاً إلى مكان لا يمكن إلّا للخبير أن ينزل إليه، وأعطى حموداً طرف الحبل ليمسكه، وكانت يده ترتجف وهو ينظر إلى تلك الأماكن الوعرة التي كان ينزل إليها جندب متأكّداً من وجود العسل هناك، فكان يسير على أثر نحلة يتتبعها، فالعسل في تلك الأماكن البعيدة أشهى وألذّ من العسل في الأماكن القريبة من الوديان والحارات، كما يؤكّد جندب قائلاً إنّ الأمر يستحقّ العناء.

يخبرهم حمود عن البرك المائية التي رآها وسط الجبال حالفاً بالله أن عينه ما رأت أصفى منها ولا أعذب من مائها، برك كعين الطير في نقائها، ومن هناك رأى حارة الوادي في نخيلها وبيوتها، وكانت البيوت أشبه بصناديق صغيرة متناثرة بالقرب من الوادي، والبيوت الأخرى تكاد لا تُرى وسط واحة النخيل، فالمكان الذي ذهب إليه هو وجندب مكان كالسحر في جماله.

- جندب عنده جسارة ما رأيته في أحد من قبل، رغم أنّه بنت.

- وكيف تأكدت أنّها بنت؟
- سأل سلّوم وهو يغمز بعينه لمبارك ضاحكًا محاولاً الإيقاع بحمود الذي ردّ عليه:
- ما محتاج أتأكد، أخوها خبرني، بنت جميلة لكن ما أيّ بنت كما أنت تظن، جرادة أرجل منك ومني ومن مبارووك الدجاجة.
- ركض حمود حاملاً خلايا العسل وركضوا خلفه، وحينما وصلوا الحارة اقتسم حمود العسل مع رفيقه، وأخذت أمّه قليلاً منه لأولاد جارتها خديجة كما طلب منها حمود. وكانت خديجة قد أعدت السידاف الذي أحضرته نَقَافَة معها، فدعت زُهرة لتذوقه معها فقالت زُهرة:
- حتى نحن غدانا اليوم سيداف وقاشع.
- عجب الحارة كلها اليوم تتغدى سيداف.
- وبينما كانت زُهرة على وشك الذهاب عادت لتسأل خديجة:
- ما شيء أخبار عن صالح؟
- ما شيء يا زُهرة، ولا نعرف هين هو ولا كيف حاله، لكن ربّك كريم، قلبي يحدثني أنّه أيرجع.
- بإذن الله، وكيف الحمل، بعدك تتوحمي؟
- انتهى الوحام، تو أدخل الشهر الخامس.
- قالت وهي تشير إلى بطنها، نظرت إليها زُهرة باستغراب وقالت:

- ما تظهر عليك أشهر الحمل، الله يقوّمك بالسلامة وتولدي ولد مع ناصر.
- كلّ ما يرزقني الله إياه أريده، المهم أن يرجع صالح ويكون بخير، والطفل في بطني بخير وعافية، يا زهرة! الحياة صعبة ولا نعرف مو يحدث في الأيام القادمة، وأمي عويذة تعبانة وتحاتي صالح.
- ما عليها لوم، قلب الأم تعيب.
- حين ذهبت زهرة وبعد عودة عويذة من المزرعة، كانت خديجة قد أضافت فئات الخبز على السידاف وجّهّزته للغداء، وعزلت في صحن صغير، غطّت عليه ووضعت به بجانب فراش حمدان مع رأسين من البصل، سيتناولها حينما يعود، تتناول عويذة طعامها وتدسّ اللقمة في فمها بلا شهية، وتقول محدّثة نفسها:
- آكل العيش والعيش يأكلني.

(43)

مرّ ما يقارب شهرين على غياب صالح، ورغم بحثهم المستمر لم يجدوا جثته لتكون دليلاً على موته، والقافر يخبّن عدم موته. هناك حكاية عن غيابه لم تُعرف تفاصيلها، ولا يعرفها سوى صالح نفسه، حتى عويذة نفسها بدأت تخرج إلى الفلاة مع حمدان لعلّ قلبها يقودها إلى شيء أو مكان، فربما سقط من جبل، أو ربما لدغته هامة من هوام الأرض في الفلاة، ربما حدث له شيء، لكنها في كلّ مرة تعود وفي قلبها جبال من الحزن والهم. جلست عويذة على الأرض باكية، مخذولة، وكلّ فقد الأرض في قلبها، قاومت كلّ عذاباتها، لكنّها عاجزة عن مقاومة هذا الضّعف الذي يسكنها في غيابه، فهي أضعف من أن تحتمل فكرة أن يكون قد أصابه مكروه، قلبها فارغ من كلّ شيء إلا صالح. متعبة، منهكة، لا تنام ليلاً ولا تستريح نهاراً، ولم تكن خديجة الصابرة المحتضنة لأطفالها بأقلّ منها تعباً ووجعاً، وهي الأخرى لا تستطيع أن تصدّق موته. «صالح ما زال حياً»، هكذا قال حمدان حين عاد من رحلة بحثه الأخيرة عنه.

- للميت جثة توارى تحت الثرى، وصالح بعده فوق الأرض.

قالت خديجة مؤكدة ما قاله حمدان وهي تقاوم دمعها المنسكب حزناً على غياب صالح.

في إحدى الصباحات قالت عويذة لخديجة بصوت فيه شيء من البشر والأمل:

- رأيت وأنا نائمة طير أخضر كما طيور الجنة، الطير محبوس داخل قفص، ويحاول يخرج لكن القفص مقفول، وهذا القفص تحرسه الضباع.

- موه تفسيره؟ سألتها خديجة بفرع وهي تعلم أن رؤيا عويذة حق
- يعلم الله، إنَّ صالح إمّا يكون محجوز في مكان أو مسجون.
اعتادت عويذة تتبّع الإشارات في حلم، أو كلمة، أو شعور أو حدس، وهي تصدّق إيمانها بتلك الإشارات، ولم يغب عن قلبها الأمل في أنَّ صالح ما زال على قيد الحياة، وقد رأت في ذلك اليوم عصفورًا أخضر يزقزق على غصن شجرة، فقالت لخديجة إنَّ الطائر قد أتى يبشرها بنجاة ابنها، فالطيور الملونة لا تأتي إلا لبشارة خير.

رغم محاولة خديجة وعويذة تحمّل الفقد والغياب وزرع الأمل في قلوبهما بأنَّ صالح بخير، كانت الأيام تمر ثقيلة وبطيئة، فصالح لم يظهر ولم يبن له أثر، وخلال الأيام التي انشغلت فيها الحارة ببحثها عن صالح، عادت الطائرات مرة أخرى، ترمي عليهم منشورات تحثّهم فيها على أن يسلموا الثوار المتحصنين، وأوراق كُتب عليها بأنّه سيتم قصف الجبل والمناطق المحيطة به إذا لم يستسلم الثوار، لكن أهالي الحارة لم يأبهوا

للتهديد، بل كانوا يجمعون المنشورات ويشعلون بها النار في مواقد الطعام.

عرف أهل الحارة أنّ الطائرات لم تحلّق هذه المرة لاستكشاف المنطقة أو المراقبة فقط، وإنما ستضرب الجبل بالقنابل لأنّ الثوّار - كما يُتناقل - قاموا بتفجير أنابيب البترول الممدودة في الصحراء. بعد أيام، بدأ القصف بشكل عشوائي، نفّات من شرر تسقط على الجبل، تصيب كلّ ما يتحرك من إنسان أو حيوان. تحصّن الأهالي في بيوتهم، وأصبح الخروج صعباً عليهم، وتوقّف سير الحياة المعتاد، أحاطت السيارات العسكرية بالحارة، وانتشر الجند مرة أخرى، وبدؤوا يفتشون البيوت بحثاً عن الثوّار والأسلحة.



استمر القصف أياماً ثم غابت الطائرات عن السماء، ولم يعد صالح ولم يظهر. اتفق رجال الحارة على التسليم بموته بعد مرور أكثر من شهر على غيابه، فلو كان على قيد الحياة لظهر له أثر يدلّ على وجوده، لذا على خديجة أن تعتدّ حِداداً على موته، فاجتمعوا مع ابن عمه الشيخ ياسر، وانفقوا بأن يخبر زوجته حميدة كي تبلغ زوجة أخيها خديجة بأنّ عليها أن ترتدي ثوب الحِداد على زوجها.

أت حميدة باكية لاهثة، غير قادرة على إخراج الكلمة من فمها، لتخبر أمها ما أخبرها به زوجها، وما اتفقت عليه الجماعة، وحينما أخبرتهن باكية، قالت لها أمها:

- أخوك ما مات، ولا أصدّق موته حتى يجيئوا لي دليل على قولهم، قلبي يقول لي أن صالح ما مات.

رفضت خديجة ارتداء ثوب الحداد، وقالت لحميدة:

- خبري زوجك يا حميدة، بأن ابن عمه ما مات وانتظره، فمن مات تدفن جثته في التراب، وأنا ما دفنت جثته.

ذهبت حميدة التي لم تكن أقلّ حزناً من أمها وخديجة، وأخبرت زوجها بما قالته لها خديجة، وما تؤمن به أمها من أن صالح ما زال حياً. أتى من أتى في محاولة إقناعها بالبده في مراسم الحداد، وعقد عقدة التتريك وارتداء ثوب العدة، لكنّها رفضت وأبت بكبرياء المرأة الحرّة العارفة بزوجها والمُحبّة المخلصة له، وكأخر حلّ لديهم أرسلوا لها المعلّم خلفان الذي قطع في ذلك اليوم درسه لطلاب المدرسة، وجعل حمود ومبارك يشرفان عليهم حتى يعود. وقف المعلّم خلفان خلف النافذة دون أن يرى خديجة أو تراه على اعتبار أنّها بدأت العدة وفق حسابهم، لكنّها خرجت إليه قائلة له:

- معلّم خلفان لا تكلمني من ورا الدريشة، أنا ما تريكة. صالح ما مات.

- ولكن يا بنتي، صالح ما مسافر أو غائب ننتظر رجوعه، صالح داخل الحرب، ومضى شهر وأكثر، وما أحد يعرف عنه شيئاً حتى رفاقه.

- عساها تمضي سنين، أنا جالسة في مكاني، وأنتظره عند هذا الباب.
تراجع المعلم خلفان الذي كان يُعتدّ برأيه وقال:
- اتركوها وما تريد، الأمر راجع لها.

لم ترتد خديجة السواد، ولم تلزم بيتها أربعة أشهر وعشر كما تفعل النساء، ولم يعقدوا لها «عقد التريك»، وظلّت تلبس ثيابها المعتادة بألوانها المختلفة الخالية من السواد. وخرجت في الصباح إلى الضاحية البعيدة، تحدّياً لما قالوه عن موت صالح وتكذيباً، فأحضرت حزمًا من البرسيم والعلف للماشية، حتى ظنّ البعض أنّها كانت تعرف أين زوجها، ولا تريد أن تقرّ بذلك، لكنّه اليقين الذي كان يملأ قلبها وقلب عويدة بأنّ صالح حيّ في مكان ما.



بعد شهرين من غياب صالح وصلت رسالة عن طريق الشيخ، أحضرها حمدان وأعطاها لعويدة التي قلبتها بين يديها وسألت حمدان عن أمر الرسالة، لكنّه قال إنّ الشيخ لم يخبره بما جاء فيها، شمّتها وقالت بفرح وبصوت بالٍ:

- أشمّ فيها ريحة صالح كما شمّ يعقوب ريحة يوسف.

تهلّ وجه خديجة فرحًا وهي تسمع تلك الكلمات من عويذة، وعاد الأمل إلى قلبها أنّ في الرسالة خيرًا وبشارة. أخبرت عويذة حمدان الذي كان ينتظر إشارة منها أن يذهب معها إلى المعلّم خلفان كي يقرأ الرسالة، لكنّ حمدان رأى أن يحضر المعلم خلفان إلى البيت، فذهب وعاد بعد قليل ومعه المعلّم خلفان، ناولته عويذة الرسالة بيد مرتجفة:

- معلّم خلفان، هذا الخط تو واصل، ويعلم الله فيه شيء من أخبار صالح.

تناول الرسالة من يدها وقرأها مباشرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أمّي الغالية وزوجتي والأبناء

أتمنى أن تكونوا في أحسن حال، أبلغكم بأنّي بخير وعافية، وأنّي مسجون في الكوت، حتّى يمن الله علينا بالفرج، سلامي للجميع ..

صالح بن ناصر

كتبت في 18 جمادى الأولى

1377 هـ. سجن القلعة»

بكت خديجة، أمّا عويذة فسألت المعلّم خلفان بهدوء إذا كان هناك شيء آخر مكتوب في الرسالة، فأخبرها أنّ الرسالة لا يوجد فيها غير هذا السطر فقط. كلمات قليلة تفي بالغرض من إرسالها، وتخبرهم بمكان

وجوده، وأنه حيّ. تناولت عويذة الرسالة من يد المعلم خلفان وشمّتها وضمتّها، وحمدت الله أنّ صالحًا ما زال على قيد الحياة وإن كان في السجن، فالحياة لا تشبه الموت، فلا بدّ من لقاء ذات يوم بقدرة الله ربّ العالمين.

اعتذر المعلم خلفان من خديجة عن موقفه حين أتاها وأراد أن يعقد عليها عقدة التتريك، فردّت عويذة عنها، وقالت له:

- قلب المؤمن دليله يا معلّم خلفان.

فقال لها:

- نعم وهو كذلك.

ردّدت عويذة بصوت يملؤه الحنان والأمل والتفاؤل:

- أيرجع دام الله كتب له حياة أيرجع وأنلتقي.

قلب عويذة عامرٌ بالإيمان وقد وصل بها اليقين إلى أنّها كانت تؤمن بالأسباب والإشارات، فعرفت أنّ الطائر الذي رآته محبوبًا كان يعني أنّ صالحًا مسجون، فتأكدت بذلك بأنّ ابنّها الناجي من الموت سيعود إليها، فدعت ربّها أن يطيل الله في عمرها إلى أن تراه خارجًا من السجن وتضمّه بين يديها، وألا يأخذ الله روحها قبل أن يأتي.

- يا ربّ، أجّلها حتى يرجع مضموني، أريد أشوفه قبل عن أذهب من

هذي الدنيا.

ردّت عليها خديجة:

- الله يطوّل بعمرِكَ ما، أيرجع وأُشوفيه.

شعرت عويذة أنّ قلبها غدا مطمئنّاً بعض الشيء، فصالح ما زال حيّاً، وقد تأكّد لها ذلك وعرفت مكانه، «قدر أخفّ عن قدر» قالت في نفسها، وستدعو ربّها ليل نهار حتى يخرجّه من سجنه كما أخرج يوسف من البئر وأعادّه إلى أبيه. سيخرج كما خرج يونس من بطن الحوت إنّ الله سميع مجيب. أخبرت عويذة حمدان أن يذبح شاة كانت قد نذرتها إن كان ابنها على قيد الحياة، وستورّعها صدقة للمحتاجين، وقد أتاها الخبر وفعلت. أتت الأخبار تباعاً بعد ذلك بأنّه تم القبض على صالح بعد أن رُصد له كمين في طريق الجبل، ولكن لا أحد يعرف كيف عرفوا مكانه، ومن كان يتتبّعه، هل خانته الرفاق؟ أم باعه الأصدقاء بثمان المكافأة التي ستُمنح لكلّ من يسلمه حيّاً أو ميتاً؟ أم هي الأقدار التي جعلته بين أيديهم؟ لا أحد يعلم!

تحدّث عويذة نفسها وفؤادها مقسّم في كلّ اتجاه، فبعد أن اطمأنت إلى أنّه على قيد الحياة، عاد إليها القلق مرة أخرى، وبدأت تفكر فيه وهو في سجنه، وبدأت تشكّ في الجميع وتبعد عنهم الشك في نفس اللحظة متسائلة بينها وبين نفسها: من أين أتت الخيانة وصالح ابنهم وأخوهم وصديقهم؟ ألم يكن بيته مأوى للجميع؟ ألم يكن يقسم معهم اللقمة التي يأكلها؟

بدأت تسترجع حسنات ابنها وكلّ ما كان يفعله من أجل أبناء حارتهم، لكنّها تعود وتقول مرة أخرى:

- ولكن الجوع كافر، والحاجة شيطان وسواس خناس.

ثم تعود مرة أخرى وتكذب الشيطان الذي يوسوس في صدرها وتلعنه وتتعوّذ منه وتقول وهي ما زالت تحدّث نفسها: «إذا أرادوا شيئاً ما يغلبهم، يعلم الله أنّهم خططوا له، بس عسى الله يجمعني بمضنوني ويعود لي وتقرّ عيني بشوفته إن كان في العمر بقية».

سمعتها خديجة فظنت أنّها تحدّث أحداً فسألتها:

- مع من تتكلمي ماه؟

انتهت إلى أنّها كانت تتحدّث بصوت مسموع فقالت لخديجة:

- أكلّم هذي النفس التعبانة في غياب صالح يا بنتي، وألعن الحاجة والفقر والجوع.

(44)

أتت الأخبار من أفواه السامعين أنَّ صالحًا سُجِنَ مع مجموعة من مشايخ القبائل الأخرى الموالين للإمام، قيل إنَّهم دَبَّروا خطة محكمة للقبض عليهم وإيداعهم سجن القلعة. ومما قيل أيضًا إنه تمَّ الإيقاع بهم من خلال استدراجهم إلى اجتماع سرِّي من أجل مناقشة ما آلت إليه الأمور وحقن الدماء.

بدأ بعضهم يتحدَّث عن المعاهدة السريَّة التي تتلخص بنودها في السماح للأجانب بدخول البلاد من أجل الوصول إلى النفط الذي اكتُشِف في المنطقة، والذي سيُدِّر أرباحًا كبيرة إن سُمِح للأجنبي بالبحث عنه واكتشاف مناطق وجوده وحفر الآبار لاستخراجه، وأنَّه سيتقاسم مع أبناء البلد عائدات بيع البترول، مما يساعدهم على التغيُّر الذي يحلمون به، وستُفتَح المدارس والمستشفيات، وسيُمنَح الشيوخ حصة من عائدات البيع.

انقسم المجتمعون في مدخل الحارة بين مؤيِّد ومعارض لبنود معاهدة هم غير متأكدين من وجودها في الأساس، اختلفت الآراء حول ما يحدث، وأنَّهم بعضهم المشايخ بتنجيس أيديهم بوضعها في يد الأجنبي للخروج من هذه الأزمة والتخلُّص من حكم الإمامة، وأنَّ الخيانة إذا أتت ستأتي من الشيوخ أنفسهم، ولكنَّ سيف اختلف معهم وقال إنَّ ما يحصل فتنة، فلم يحدث شيء من ذلك الذي يذكرونه.

أتى صوت من طرف الجلسة:

- المشايخ رفضوا ما جاء في البنود، ورفضوا بيع الإمامة وبيع الأرض وما فيها من بترول، ودار بهم العسكر وأخذوهم مكفوتين. أضاف آخر:

- يقال والله أعلم إنّ المشايخ بعد ما طلبوهم للاجتماع، تركوهم في بيت، ما أحد ناقشهم، ولا أحد تحدّث معهم لا عن معاهدة ولا عن صلح، وأنّهم ما قابلوا السلطان وما كلموه. قال مرهون.
- ومن قال لك هذا الكلام، وكيف عرفت وأنت جالس في دكانك؟ سأله سليمان.

- تراني تاجر، واسمع بو يقال.

غمغم سليمان بكلمات غير مسموعة، وعلّق خلف قائلًا في غضب:
- تسمع منّي، تو مو الداعي من سجن المشايخ، ما يعرفوا أنّهم بهذي الأفعال يألّوا الأحقاد ويغلّظوا القلوب عليهم، ويشعلوا نار الفتنة أكثر.

- يا خلف هم يريدوا الوصول إلى الجبل وقتل الإمام أو القبض عليه وعلى من معه.

- تسمع منّي، الإمام ما يوصلوا له ولا أينالوا شعره من راسه ورأسه غانم، الإمام في حراسة الله وجنده.

- عجيب أمرهم، تو مو باغيين من الجبل، الجبل كلّ ما فيه حجرتين وشجرتين وكم شجيرة ورد وهواء بارد يقطع الجلد....

تنهّد سيف وقال:

- يا سليمان هم ما يريدوا الجبل في أشجاره وبرده وورده، قلنا لك هم يريدوا الإمام المتحصّن هناك.

ردّ سليمان:

- اسمع انتّه، هذي المضحكة، والله ما نالوا شيء ولحية الإمام تشمّ الهواء.

- علوه عيّنوا خير يا جماعة، الجبل ما يرفرف فيه إلا البيرق الأبيض بإذن الله، وإن الله على نصر دينه لقدير، وإلا موه رأيك المعلّم خلفان؟ قال سيف.

تحدّث المعلّم خلفان بعد طول صمت، مسح لحيته بيده وقال:

- ويمكن كلّ ما قيل ليس صحيحًا، فنحن لا نعرف الحقيقة، الحقيقة عند ربّ العالمين.

- دوك أنت، وموه هي الحقيقة يا معلّم خلفان؟

قال سليمان ضاحكًا:

- ما أقصده أمر المعاهدة وسجن المشايخ والثوار، سجنهم ليس له علاقة بالمعاهدة التي تقولون عنها، فلا يعلم ما حدث سوى الله. ومن يتعذبون الآن في سجن القلعة، ويعلم الله كيف يتم التعامل معهم هناك، وما يتعرضون له من تعذيب وضغوط، ادعوا الله أن يفرّج كربتهم ويفكّ سجنهم، إن الله سميع مجيب.

- آمين.

قالوا جميعاً بصوت واحد.

ضرب خلف على صدره وقال:

- تسمع مني، والله ما نتراجع وما تهدأ نفوسنا حتى نشوفهم خارجين من بلادنا. وهزّ بندقيته التي لا تفارقه وأضاف:

- اسمع مني، هذي الصمعة ما أنزلها من كتفي ما دامت الحرب قائمة، الحرب حربنا والبلاد بلادنا.

استمع له الرجال وأصابتهم عدوى الحماسة التي في داخله، ورفع المعلم خلفان كفيه إلى السماء، ودعا أن يفكّ الله كربة المساجين ويفرّج عنهم إنّه على ذلك لتقدير. ردّد الجميع خلفه: آمين.

هدأت الأصوات وتفرّق الجمع، وعاد كلّ منهم إلى بيته، فلم يعلم أحد على وجه التحديد ما حدث هناك، لأنّ صالحاً في تلك الليلة لم يلتق برفاقه، بل تشير الدلائل إلى أنّه قبض عليه قبل أن يذهب إلى أيّ مكان، وتُركت أتانة حيث قبضوا عليه.

أخبر حمدان عويذة بما سمعه من رجال الحارة، فتساءلت:

- كيف يتخلّى الإمام عنهم ويتركهم في السجن، صالح ومن معه هم من كانوا مرابطين في الكهوف والثغور مانعين المتربصين به؟

فلم يُجبها حمدان بشيء، تنهّدت عويذة تنهيدة طويلة وهي تحتسب أمرها عند الله داعيةً أن يحفظ ابنها ويعيده إليها سالمًا من ذلك السجن الذي سمعت عنه أنّ الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود، وأنّ

المساجين هناك لا يرون شمسًا ولا قمرًا. زاد القلق والخوف في قلب عويذة حين سمعت أن أحد المشايخ توفي في السجن ودُفن هناك، ولم يستلم أهله جثمانه، وقد ثارت ثائرة المقاومين مطالبين بجثة الشيخ المتوفى، ولكن رُفض تسليمهم الجثة، وقد كُثرت الأقاويل حول ذلك، فقيل إنه كان مريضًا، وقيل: إنَّ من يموت في ذلك السجن تُرمى جثته في البحر، ولا يعلم الحقيقة غير الله وحده.

لم تنم عويذة في تلك الليلة، بقيت ساهرة ترقب النجوم وتفكر في صالح المُغيَّب في سجنه، وفي الهزيع الأخير من الليل استيقظت خديجة ورأتها جالسة على فراشها:

- رقدي ماه، ووكلّي أمرك لربِّ العالمين.
- العين ترقب نجم مضموني، رقدي أنتِ يا بنتي، أنا متى جاني النوم أرقد.

لكنَّ النوم لا يأتي وقد فارق عيني عويذة منذ فارقتها صالح، وخديجة أيضًا يشغلها التفكير في صالح وفي أطفالها، وطفلها القادم الذي سيأتي وأبوه غائب. تغمض عينيها، تظن عويذة أن خديجة نامت، لكنَّ خديجة لم تنم، فالصور التي تعرضها لها ذاكرتها، وشوقها لصالح وقلقها عليه كل ذلك يحرمها النوم.

تنزل عويذة من السطح وخديجة تراقبها، تراها وهي توظف حمدان الراقد في فراشه تحت شجرة المانجو، تراها تسير إلى زريبة البقر وتدخل

وحمدان ينتظرها في الخارج، تسلّمه عددًا من البنادق، ترى حمدان يحفر تحت شجرة المانجو، ثم تراه يدفن الأسلحة في الحفرة، ثم يضع عليها السعف اليابس ويهيل التراب فوق السعف، ويبسط الحصر وينام عليها. تذكّرت خديجة أنّ عويذة حينما تذهب إلى الفلاة كانت تتأخر في بعض الأحيان، وتُدخل حمولة الحطب إلى زريبة البقر مباشرة.

كانت تشكّ في أنّ عويذة تحضر شيئًا وتخبئه هناك، إنّهُ السلاح الذي جمعته في ذهابها وإيابها من وإلى الجبل، كانت تستلمه من الثوّار، أكبرتها خديجة في نفسها، فعويذة ليست كما تبدو لمن يراها، وليس غريبًا على صالح أن يفعل ما يفعل وهو ابن هذه المرأة وتربية يدها، وليس غريبًا على حمدان أيضًا أن يحذو حذو صالح. تبتسم خديجة وهي ترى حمدان النائم على السلاح، وكأنّ لا شيء تحته، تتساءل: ترى من كان يظن أنّ حمدان بهذه الروح الجسورة، ومن يراه لا يعطيه حقّه من التقدير، ولا يعرفه إلّا بيدار العائلة وخدامها، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة لصالح ولا لعويذة، فهو ساعد صالح الأيمن وكاتم أسرارها، والحارس الأمين لعائلته. تفكّر في حمدان الذي رفض الزواج، تمنّت لو تستطيع أن تعثر له على زوجة مناسبة وتقنعه بها، فحمدان يستحق الحياة كما يحياها غيره. تذكّرت خلّوفة التي أحبّته واقتربت منه وحاولت لفت انتباهه، لكنّه صدّها عنها ورفض الزواج منها، وقد تزوّجت خلّوفة وأصبح لديها أولاد

وحمدان بلا زوجة ولا أولاد: «إنه أنقى من الثوب الأبيض لمن يعرفه رغم سواد جلده»، قالت خديجة في نفسها.

نامت خديجة وقد أخذها التفكير إلى صالح وصورته لا تفارق عقلها وقلبها، تتذكر الليالي التي يعود فيها مشتاقاً ملهوفاً إليها، تذهب في النوم وطيفه لم يبارح خيالها، ولا تستيقظ إلا على صوت المعلم خلفان وهو يؤذن لصلاة الفجر. تسمع صوت عويذة الهامس وهي تصلي داخل البيت، نظرت إلى فراش حمدان المطوي نصف طيَّة، تستعيد ما رآته في الليل، فترى الفراش كما هو، لم يتغير شيء، فتظن أن ما رآته لم يكن سوى حلم، أو أن الأمر اشتبه عليها. حملت سطلاً وضعت فيه الملابس المتسخة، وذهبت إلى المجازة، فمنذ غياب صالح لم تذهب إلى هناك.



في الليلة التالية قررت خديجة أن تراقب ما يحدث، ظلت ساهرة تراقب النجوم وتراقب الدرب الذي سيأتي منه حمدان، رأت عويذة نائمة في فراشها تتقلب يمنة ويسرة، تغالب الأرق، نظرت إلى ناصر الذي كان نائماً كملاك إلى جانبها الأيسر، لكنّها فزعت حينما انتبهت إلى نَفَافَةِ التي كانت جالسة متربّعة تنظر إليها، فابتسمت لها:

- تو مالك يا بنتي جالسة كما البومة، خير مو مسهرّك، نامي، باكر الصباح عندك مدرسة؟
- أعدّ النجوم ماه.

- ما أحد يعدّ النجوم يا بنتي، النجوم عددها واجد، وصعب حدّ يعرف عددها، رقيدي وخلي عنك عدّ النجوم.
- أدور نجمي، هين نجمي بين هذي النجوم؟
- رفعت خديجة عينيها إلى السماء، وأشارت بأصبعها إلى النجوم وقالت لنفّافة:
- شوفي ذاك النجم اللامع هناك، هذاك نجمك، وأنتِ نجمتي أنا.
- نظرت نفّافة إلى النجوم وحاولت التركيز في النجم الذي أشارت إليه أمها، ولكنها لم تستطع تمييزه..
- ما شفته.
- دغدغتها أمها وحضبتها وقبّلتها:
- وتو غمّضي عيونش ونامي.
- ماه... احكي لي حكاية.
- نامي، تأخر الوقت، وأنا ما عندي حكايات، جرابي فارغ، باكر جبّوتك تاخذكم إلى العجوز صبيحة، جرابها تارس بالحكايات.
- انتهت عريدة إلى خديجة وهي تتحدث مع نفّافة:
- نامن بناقي نامن.
- تمايلت خديجة بجانب ابنتها، وبقيت نفّافة تنظر إلى النجوم في لمعانها وتراقصها الفاتن، تسمع أصوات قطط يتعاركن، تتمنى لو تنزل لتتصر للمغلوب منها، لكنها تطمئن بأنّ قطتها راقدة على طرف فراشها، ترتفع

أصوات القطط بشكل يزرع في قلبها الخوف وتسأل أمها وهي ملتصقة بها:

- ماہ السنائر يتضاربن.
- قلت لك نامي، ما عليك من السنائر، يتضاربن ويتصالحن.
- ماہ خلا نساعد السنور المضروب.
- ما يجوز تتدخل بين السنائر، السنائر تدافع عن نفسها، وإذا دافعت أنت عنه الليلة، أتغلبه السنائر باكر، ثانيًا ومودّاش إنهن سنائر، يمكن يكونوا جنّ متشبّهين أو ضباع أو مغاصيب مبدلين سنائر. نامي، النهار له ناسه والليل له ناسه.
- التصقت نَفَاقَةً بأمها أكثر، وأمالت جسدها واضعة إحدى يديها تحت رأسها ويدها الأخرى ممسكة لحاف أمها، وهي تفكر فيما يحدث في الخارج وعراك القطط أو الجنّ أو الضّباع. كم هو مخيف هذا الليل لولا القمر والنجوم التي تزيّن السماء، أغمضت عينيها وتكوّرت ضامة ركبتيها وساقها ودفنت رأسها في الوسادة قابضة على يد أمها حتى نامت.

(45)

حين استيقظت نَفَافَة في الصباح وجدت ناصراً قد بلّل فراشه وملأت رائحة البول أنفها والمكان، أيقظته بضربة على ظهره، فاستيقظ، سحبته من يده وهي تغلق أنفها بإصبعيها. أنزلته من السطح فتناولته أمّه التي كانت قد خرجت لتوها من زريبة الغنم، حاملة إناء الحليب برغوته التي تكاد تفيض من طرف الإناء، غسلته وغيّرت ملابسه دون أن تغضب منه كما توقعت نَفَافَة، لكنّها همست في أذنه بما تقوله له دائماً كلما وجدته قد بال في فراشه:

- إذا سويتها مرة ثانية، أربط قرّة في حقبك.

ضحكت نَفَافَة وهي تتخيّل أمها وقد ربطت ضفدعاً في دكة سروال ناصر، لكنّها تعلم أنّ أمها لن تفعل ذلك، وأنّ ناصر سيبول مرات ومرات، غسلت وجهها وأدّت فرضها، سمعت صوت جدّتها معاتباً:

- أي صلاة تصليّ هذي البنت، الفجر ولاّ الضحى؟

ردت خديجة ضاحكة وهي تنظر إلى ابنتها التي ما زالت تركع وتسجد:

- تصليّ صلاة الصبح ماه، هذه الصلاة تصليّها نَفَافَة بين الفجر والضحى.

- يا بنتي يا خديجة، الصلاة ما لعب ولا ضحك، فإمّا أن تصلي صلاتها في وقتها وبخشوع، وإلا فلا صلاة تلزمها، الله غني عن صلاة ما تصلي في وقتها وبلا خشوع.
- أتصلي وألتزم بصلاتها وأتخشع، نَفَاقَة بعدها صغيرة.
- البنت كما تربيها وكما تعودها، فإذا تعودت على إهمال دينها وصلاتها، أتكبر على كذاك، ونحن محاسبين على تقصيرها، الله يعفّ جلودنا وأجسامنا عن نار جهنم.
- آمين ماه، ما تحاتي ولا تخافي عليها، هذي بنت عويده، وما أتقصّر في صلاتها إن شاء الله.
- عويده تكسرت عظامها، وشاب شعر رأسها، وفارقها محبوبها، ولعبت بها الدنيا، وما أريد يكون حظّها كما حظّي.
- سمعت نَفَاقَة الحوار الذي دار بين أمّها وجدتها، فلم تركّز في صلاتها، وحين انتهت من صلاتها قالت لجدتها:
- حَبْوة من باكر، أصلي صلاة الفجر في المجازة، ولكن أنت لا تتركيني راقدة في فراشي، قوميني معك.
- ضحكت عويده وقد أدركت أن نَفَاقَة لم تصلّ بخشوع، فقالت لها:
- وكيف سمعتِ بو قلناه وأنت متّجهة لله رب العالمين؟ يا بنتي الصلاة تحتاج قلب خاشع، الإنسان إذا قبل إلى القبلة لا يرى ولا يسمع ولا ينتبه لشيء إلا لصلاته، وسمعت جدك رحمة الله عليه

يوم كان يعلم أبوش الصلاة إن رجال قطعوا له ساقه وهو يصلي،
وما حسّ بألم لآته كان خاشع في صلاته وغائب عن كل شيء إلا
عن ربه.

قَبِلَتْ نَفَافَةَ رَأْسِ جَدَّتْهَا مُعْتَذِرَةً، فَاحْتَضَنْتَهَا عُويْدَةً وَوَعَدَتْهَا أَنْ تَأْخُذَهَا
إِلَى الْمَجَازَةِ بِمُصَلَّى النِّسَاءِ حِينَما تَذْهَبُ، بَيْنَمَا انشَغَلَتْ خَدِيجَةُ بِتَسْخِينِ
الْحَلِيبِ الَّذِي حَلَبَتْهُ وَأَضَافَتْ عَلَيْهِ قَلِيلًا مِنَ الْمَلْحِ وَالزَّعْتَرِ، وَطَبَخَتْ
بَيْضًا مَقْلِيًّا بِالسَّمَنِ. جَلَسُوا جَمِيعًا لِتَنَاوُلِ الْإِفْطَارِ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَتَى
حَمْدَانُ حَامِلًا زَبِيحًا مِنْ رَطْبِ الْخُلَاصِ الَّذِي يَلْمَعُ كَالذَّهَبِ تَحْتَ ضَوْءِ
الشَّمْسِ، تَرَكَهُ بِالْقَرَبِ مِنْ عُويْدَةٍ الَّتِي تَنَاوَلَتْ بَضْعَ تَمَرَاتٍ مِنْهُ بِكَفِّ يَدَيْهَا
وَتَرَكْتَهَا وَسَطَ السَّمَاطِ، أَدْخَلَ حَمْدَانُ يَدَهُ فِي جَبِيهِ وَأَخْرَجَ ثَمَرِي مَانِجُو
نَاضِجَتَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِنَاصِرٍ وَنَفَافَةَ. قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ:

- حَمْدَانُ رِيَوْقُكَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، تَرِيقُ قَبْلَ أَنْ يَبْرُدَ الْحَلِيبُ.

نَظَرَ حَمْدَانُ إِلَى خَدِيجَةَ مِنْ طَرَفِ عَيْنِهِ، وَكَعَادَتِهِ حِينَ يَحْدُثُ خَدِيجَةُ
لَا يَرْفَعُ عَيْنَهُ فِي عَيْنِهَا أَبَدًا:

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ حَيِّي.

بَعْدَ انْتِهَائِهِمْ مِنْ وَجَبَةِ الْإِفْطَارِ أَدْخَلَتْ خَدِيجَةُ أَبْنَاءَهَا لِتُهَيِّئَهُمْ لِلذَّهَابِ
إِلَى الْمَدْرَسَةِ، حَمَلَتْ نَفَافَةَ لَوْحَهَا وَرَخَامَهَا، وَبَيْنَمَا هِيَ مَعَ أُمِّهَا فِي الْغُرْفَةِ
سَأَلَتْ أُمُّهَا:

- مَا، فِي اللَّيْلِ شَفَتَ حَمْدَانُ يَدْفِنُ شَيْءَ تَحْتَ فِرَاشِهِ.

عرفت خديجة أنّ نَفَاقَةَ رأت ما رأته أيضًا ولم تنتبه هي إليها، فتأكدت أنّ ما رأته لم يكن حلمًا، ربت ظهرها برفق وسألتها:

- وكيف شفتِ حمدان يدفن شيء تحت فراشه وأنتِ نائمة.
- كنت خائفة، وفتحت عيني وشفت حبّوتي عويذة تنزل من السطح، وبعدين شفت حمدان.
- وموه عنده حمدان الفقير يدفنه تحت فراشه.
- والله شفته.
- كنتِ تحلمي، ولكن إياش أن تخبري أحد عن هذا الحلم، تعلّمي يا ابنتي أنّه حتى الأحلام نضمّها ونكتمها، ونحفظها في قلوبنا، فهمتِ ولا ما فهمتِ؟
- هيه فهمت، حتى صديقتي سالمة ما أخبرها عن حلمي.
- حتى سالمة لا تخبريها، آها يا ابنتي إياك أن تخبري أحد عن حياتك وأسرار بيتك وأحلامك، إنّ ما تعرفي الناس، اليوم صديق وباكراً عدو، أغلّقي على كلّ شيء داخل صدرك.
- إن شاء الله ماه.

أتت سالمة ومعها سلامة لتأخذنا نَفَاقَةَ وناصر إلى المدرسة، لم يكن حمود معهما، سألت خديجة عن حمود إذ كان معتادًا أن يحضر ليحمل ناصر فقالت سلامة:

- أرسله أبوي دكان مرهون يشتري حبال.
ردت سالمة:
- خالتي أنا أشل ناصر هذا اليوم، لا تحاتيه.
- أنا ما أحاتي شي، ولكن تعرفن ناصر....
- لم تكمل ما كانت على وشك قوله، احتضنت ابنها، فتقدمت سالمة وأخذته من يدها، وأرادت أن تحمله كما يفعل حمود لكن ناصر رفض وقال:
- ما تشليني، أريد أمشي.
- ضحكت الفتيات، وضحكت خديجة وقالت:
- ناصر صار رجّال ويتشرط، خليه كما يريد، الله يحفظكم.
- وصل حمود في ذلك اليوم متأخراً إلى المدرسة، وحينما دخل لم يضربه المعلم كما يفعل مع بقية الطلاب الذين يتأخرون، فقد ناول المعلم ثمارتين ناضجة وقال له:
- اعذرني المعلم، طلب مني أبوي أحضر له غرض من دكان عمّي مرهون، وأنا في الطريق وجدت هذي الثمار الناضجة من شجرة التين، وقلت في نفسي ما يستحق هذا التين الشهي إلا المعلم خلفان.
- تناول المعلم ثمار التين الناضجة اللينة الهشة التي تفيض منها العصارة وبدأ بأكلها وهو يقول:

- لك لسان حلوا يا حمود كما حلاوة هذا التين، وإلا ضربتك كما أضرب غيرك، ولكن أنت طبقت المثل الذي يقول «اطعم الفم تستحي العين». اذهب يا بني واجلس، وابدأ بتعليم ناصر بن صالح سورة عبس، سيحفظها منك بإذن الله.
- ونادى على الطلاب حينما شعر بهم فتورًا وكسلًا:
- لا تناموا، هذه مدرسة للعلم ما للنوم، اقرؤوا.
- وضع المعلم خلفان يده خلف أذنه وكأنه ينصت إليهم وقال لهم بصوت عالٍ:
- تراني ما أسمعكم.
- ضجّت المدرسة بأصوات الطلاب في قراءات متعددة، وانشغل المعلم بتناول ثمار التين التي أحضرها له حمود، وحينما انتهى مسح يده في جذع شجرة القاو.
- بعد انتهاء اليوم الدراسي، وبعد أن سلّموا على المعلم وخرجوا، اجتمع حمود بالطلاب الذين كانوا ينتظرون خطّته لهذا اليوم:
- اليوم يحرصنا جندب عشان ندور معه عن العسل.
- هذا ما عرفناه جندب ولا جراحة؟ نخاف عليك يا حمود من هذا الجندب.
- أنت اتبعني يا سلّوم وفالك طيب، خاف على نفسك، لا تخاف عليّ أنا من جندب.

ساروا خلف حمود الذي يمشي حافيًا، يحمل ناصر بين كتفيه، وكذلك مبارك وسلّوم وبقية الأولاد كانوا يسيرون بلا نعال، وقد تشكلت طبقة جلدية سميكة في قاع أقدامهم كطبقة عازلة تقيهم وخز الأشواك وطعنات الحصى الحادة وحرارة الشمس، بعض البنات ارتدين نعلان جلدية، وسلّوم يعرج قليلًا في مشيته فيتأخر قليلًا عنهم. استمروا في سيرهم بين الدّكوك والمقاصير والمزارع، وحينما وصلوا بالقرب من بيوت الشواوي أطلق حمود بصوته صفيّرًا، وما هي إلّا لحظة حتى أتى جندب راكضًا نحوهم، صافح جندب الأولاد ولم يصافح البنات، فغمزت سالمة لسلامة ونفّافة:

- مصدّقة عمرها هذي الجرادة أنّها جندب.

تبع حمود وأصدقائه جندبًا الذي كان يسير أمامهم في خفة وسرعة، فكان أسرع من حمود في السير، التفت حمود إلى البنات بعد أن وصلوا إلى مشارف نهايات الوادي وقال لهنّ:

- انتظرن هنا، ونحن وجندب أنروح نقتلع خلية نحل.

أنزل ناصر من بين كتفيه، وقال لنفّافة:

- ناصر معكن، انتبهي يا نفّافة عليه، ولا تتحركن حتى نرجع، نحن

ما نتأخر.



وبعد أن مشوا مسافة في طريقهم انتبه جندب إلى سلّوم وهو يعرج فسأل عن سبب عرجه، فأخبره مبارك ما أصاب سلّوم، فطلب منه جندب أن يجلس ويمدّ ساقه، فمدّها، وبسرعة ضغط جندب على الكاحل بيده فأصدرت صوتاً، صرخ سلّوم، فنظر إليه جندب وساعده على النهوض، نهض سلّوم فشعر أنّ قدمه قد ذهب عنها الشدّ والألم فسار عليها دون أن يعرج، أخبرهم جندب أنّها كانت مشدودة بسبب تقلّص العضلة داخل الجبيرة، وقد تعلّم تلك الحركة من أبيه حينما ينزع الجبيرة من المصاب بالتواء، نظر سلّوم إلى جندب فكان جندب حقّاً كما قال حمود وليس جرادة.

في الجهة الأخرى وبعد أن ذهب الأولاد بصحبة جندب، جلست البنات وبدأن بالبحث عن الجراد والفنازير وأشجار النّبق، هزّت سالمة جذع السدرة بكلتا يديها، فتساقطت ثمار النّبق. تراكضت الفتيات لالتقاطه.

- نبق مقضماني.

قالت سالمة وهي تأكل الثمار الناضجة الخالية من النوى، وبينما تراكض الفتيات ندّت عن نَقَافَة صرخة، فتوقفت سالمة عن نفّض الشجرة، فسألتهما عمّا بها:

- كأنّ شوكة دخلت في رجلي.

- بس أنت لابسة وطيّة، فكيف دخلت الشوكة؟

جلست نَفَافَة ومدت رجلها، نظرت سالمة إلى قاع قدمها فوجدت شيئاً أشبه بشوكة، حاولت إخراجها لكنّها لم تستطع، تتألم نَفَافَة ألماً شديداً، تحوّل مكان الإصابة في قدم نَفَافَة إلى اللون الأحمر مع زُرقة. شعرت وكأنّ قدمها شلّت فلم تستطع الحركة أو الضغط على قاع القدم لتقف عليها، كان الألم يتصاعد إلى أعلى الساق، أصيبت القدم بالخدر، فلم تستطع تحريكها.

- يعلم الله هذي ما شوكة.

قالت سالمة في فرع:

- أخاف أن يكون ثعبان عضّها أو عقرب لدغتها.

- شفت شيء يشبه الشوكة. قالت سالمة وهي تنظر إلى قدم نَفَافَة.

تلفتت سلامة حولها فاكتشفت وجود ثعبان ميّت وقد يبس وتفتت في

المكان، وصرخت:

- عرفت، دخل في رجلها عظم هامشة.

- وموه نسوي تو، كيف نتصرف؟

- ما أعرف يا سالمة، أخاف يتأخروا الأولاد، ونحن هنا في هذا

الوادي.

(46)

لاحظت البنات أنَّ مكان الإصابة في قدم نَفَافَة قد أصبح أكثر زُرقة وانتفخ قليلاً، فاقترحت سالمة أن تذهب لتستنجد بإحدى النساء الشاويات، غابت سالمة وجلست بقية البنات مع نَفَافَة التي كانت تن من الألم، كان قلق البنات يتزايد مع تأخر سالمة وتأخر الأولاد. بعد فترة وصلت سالمة ومعها المرأة حاملة سعن من الماء في كتفها وحقيبة جلدية صغيرة في يدها، اقتربت المرأة من نَفَافَة وعانت قدمها، فقالت إنَّ ضرر شعبان قد دخل في قدمها، أرادت سالمة أن تعطي نَفَافَة قليلاً من الماء لتشرب لكن المرأة قالت: إنه لا يُحبَّذ أن تشرب الماء الآن، ربطت المرأة رجل نَفَافَة من الساق حتى لا يصل السم إلى الأعلى وينتشر، فضرر الشعبان سام حتى بعد موته، بل إنه أخطر من اللدغة كما قالت المرأة وهي تربط الساق وتشده وتعدد الربطة.

فتحت المرأة حقيبتها الجلدية وأخرجت علبة فضية، أعطت نَفَافَة منها قليلاً من العسل، ثم أخرجت مناقشاً فضياً صغيراً، وبدأت بإخراج ضرر الشعبان الصغير الأشبه بشوكة من قدم نَفَافَة، تتوجع نَفَافَة بين يدي المرأة لكن المرأة التي كانت كما يبدو تعرف ما تفعل تواصل عملها دون النظر إلى وجه نَفَافَة أو الانتباه إلى تألمها وصراخها، أخرجت ضرر الشعبان بالمناقش ثم غسلت القدم وقطرت عليها قطرات من زيت في قارورة

صغيرة، وربطت مكان الإصابة، وأعطت نَفَافَةً قليلاً من الماء. سألت المرأة الفتيات إذا كنَّ يُردن أن تسير معهنَّ إلى البيت، لكن سالمة قالت لها بأنَّهن سيتتظرن عودة الأولاد من الجبال برفقة جندب، فضحكت المرأة حين سمعت اسم جندب:

- هذه البنت شبيبت لي رأسي، ما تريد أن تكون بنت كما خلقها ربّها، شوف غواتكن البنات، تمنيت بنت مع خمسة أولاد، ويوم جاتني البنت، فرحتي ما اكتملت، يوم كبرت تمردت وتفرغت وقالت أنا ما بنت، أنا ولد.

تنهّدت المرأة والفتيات يستمعن إليها وأضافت:

- عسى يجي يوم وتعدل، البنت وارثة، يقال إن حبّوتها الله يرحمها كانت تلبس ملابس رجال يوم كانت صغيرة.

جلست المرأة قليلاً مع الفتيات ثم ذهبت بعد أن تأكّدت بأن نَفَافَةً بخير، ولكنّها أخبرتها بالأّ تحاول أن تدوس على قدمها حتى تتعافى، احتارت الفتيات كيف ستعود نَفَافَةً إلى البيت، لكنهنّ تركن القرار لحمود حين يعود.

تنادي سلامة على حمود:

- حموووووود، حموووووود

فكان صدى صوتها يتردد بين جنبات الوادي وفي سفوح الجبال، ولا محيب، تسير إلى الأمام، تعتلي تلة قريبة ربما تراهم أو ترى أثرًا لهم أو

يستطيعون سماع صوتها من هناك، ولكن لا أثر لهم ولا صوت.
 عادت سلامة إلى الفتيات المتحلّقات حول نَفَافَة، سألتها سالمة إن
 كان حمود أو أحد منهم ردّ عليها فقالت ضاحكة:
 - بنت الجبل ردت عليّ.

بدأت سالمة بالصفير، ربما يفهمون أنّ عليهم العودة، فكما سمعت
 من أمّها ذات يوم أنّهم كانوا يقومون بالصفير كإشارة للتخاطب في الجبال
 والوديان، وكوسيلة من وسائل التواصل في الفلاة، وإذا قمن بالصفير ربّما
 يفهم جندب أنّ هذه إشارة استغاثة. وضعت سالمة كفيها حول فمها
 وبدأت بالصفير وكذلك فعلت الفتيات معها، سمعت سالمة نشيج ناصر
 الذي كان ملتصقاً بأخته، فبدأت بتهديته حتى سكت، وازداد التصاقاً
 بنَفَافَة، سمعت الفتيات أصوات صفير من الجبل ردّاً على صفيرهن،
 كرّرت سالمة الصفير وكذلك الفتيات.

استبشرت الفتيات خيراً، وقالت سلامة ضاحكة:

- الحمد لله بنت الجبل وصلّت الرسالة إلى حمود، الطيور راجعة
 بعد كلّ هذا التغريد والصفير.

انتظرت الفتيات قليلاً، فلاح طيفهم، يتقافزون كظباء برية من بعيد
 وجندب كوعل صغير يقفز أمامهم.

حين وصلوا أخبرتهم سلامة بما حدث، اقترب جندب من نَفَافَة،
 وقرب رأسه ووجهه منها ليرى إصابتها، ولأول مرة ترى فيه الفتيات

صورة فتاة، فكان لعينيه رموش كثيفة، ويده صغيرة ناعمة، نظر جندب إلى قدم نَفَافَة وقال قول خبير عالم:

- رجلها بخير، ما فيها شيء، ولكن عليها أن تحذر ولا تدوس بها.
- لكن كيف تمشي وتروح إلى البيت، والبيت بعيد من هنا.
- قالت سالمة وهي تنظر إلى حمود نظرة اتهام بأنه سبب ما حدث، فهم حمود نظرة سالمة، ولم يطل تفكيره بالأمر فقال على الفور:
- أنا أشلّها.
- رفضت نَفَافَة الفكرة وقالت بصوت خجول متألم:
- هاعة، هاعة...

ضحك الجميع من فكرة حمود وردّ نَفَافَة، فردت سالمة:

- نحن ما نقدر نحملش، وحمود كما أخوش فلا تخجلني، ويقول المثل «خبز خبزتيه كليه وحدث»، هو متسبب وهذي أفكاره، هو جابنا إلى هنا، خليه يتحمّل، واركبي في ظهره ولا تقولي هاعة.
- هاعة، هاعة، فضيحة، أتضربني أمي.

تردّدت نَفَافَة وناصر ممسك بها، فكانت خجلة وخائفة من أمّها في نفس الوقت، ترى ماذا ستقول أمّها حينما تراها على ظهر حمود ولد سيف قبل أن تعرف ما حدث معها، لن تتردّد في ضربها، تراجعت نَفَافَة ورأت أنّ الوجع أهون عليها من أن تتركب على ظهر حمود، حتى لو كان في مقام أخيها، فهي ما زالت تتذكر أنّ أمّها ضربتها ذات يوم بعذق نخلة

صغير يابس حين رأتها قد تسلّقت ظهر حمدان وهو عاكف في صناعة خوصياته، فخرجت إليها غاضبة وسحبته وأدخلتها البيت وضربتها وهي تقول لها: عيب، عيب..

ما زالت نَفَافَة تذكر كلمة عيب، وما زالت تشعر بوجع الضربة كلّما تذكّرت الحادثة، وقد كانت صغيرة يومها، فماذا ستفعل أمّها اليوم وهي تراها على ظهر حمود، إن ما تفعله الآن عيب أيضًا وعيب أكبر..

- ما أركب في ظهر حمود، وحدي أمشي.
وقفت وحاولت المشي متكئة على كتف سالمة، لكنها لم تستطع، فجلست باكية متألّمة، اقترب حمود منها مقبلاً ظهره إليها:

- ركبني نَفَافَة، ما تقدرني تمشي.
- هاعة، أمي أتضربني، عيب أركب على ظهرك.
- أنا أخبر خالتي خديجة وأشرح لها كلّ شيء، ما عيب، إنت ما تقدرني تمشي، وما أحد يقدر يحملك غيري، أنا أكبركم كلّكم.

رد مبارك من الخلف:

- أنا أقدر أشلّها.
صرخت نَفَافَة مرة أخرى وهي تبكي:
- هاعة، هاعة، هاعة، أمشي وحدي، ما حد يشلّني.

تحرك حمود واقترب من نَفَافَة جاعلاً ظهره باتجاهها، وهو متكئ على ركبتيه، وقال لسالمة وسلامة:

- ساعدها تركب على ظهري.
- استسلمت نَفَافَة لأوامر حمود، وساعدتها سالمة وسلامة على الركوب في ظهره، حملت سالمة ناصر وذهبوا في الطريق، يسير حمود أمامهم حاملاً نَفَافَة مطوّراً ساقياً بكلتا يديه حتى لا تقع ونَفَافَة عاقدة يديها حول رقبته، تُعلّق سالمة ضاحكة:
- ما أخاف منه أن حمود يطيح بنَفَافَة وهو يركض كما الريح، خبروه يمشي شوي شوي، إذا طاح هو فمن يشله؟
- يضحكون وهم يرون حمود يسير بنَفَافَة مسرعاً، وصوت أنفاسه المتلاحقة فوق بعضها، لكنه يأخذهم من طريق آخر غير الطريق الذي يسلكونه عادةً، لم يذهب من وسط الحارة، بل غير الطريق وسار من خلف مقاصير النخيل والليمون حتى وصلوا بيت نَفَافَة، لاحظت سالمة أن سلّوم ما عاد يعرج في مشيته وأنّه يقفز قفزات سريعة، فسألته:
- كنت تعرج، أشوفك تقفز، أي معجزة حدثت معك؟
- جندب عالجنّي.
- هذا جندب ما سهل، يعرف كلّ شيء.
- ضحك الجميع بينما حمود يلهث وصوت لهاته يسمعون جميعاً وهو يسير ونَفَافَة متعلّقة في رقبته، فيضحكون ويتهايمسون عليهما.



خرجت خديجة على صوت ضجيج الأطفال وحديثهم ووقع أقدامهم، فرأت ابنتها محمولة على ظهر حمود، فقالت في تعجّب وقلق:

- خير إن شاء الله مو فيها نَفَافَة؟
- أنزلها حمود وهو يلهث، فتلقفتها يدا أمّها التي لم تنتبه بعد إلى قدمها
الحمراء والمنتفخة، ردت سالمة:
- خالتي خديجة، نَفَافَة دخل ضررس هامشة في رجلها.
- وكيف دخل ضررس الهامشة، هين كنتوا؟
- وهنا نظرت سالمة إلى حمود حتى يتولى الرد عنها:
- تحت شجرة النبق المقضمانية.
- ومن أخذكم إلى هناك؟
- خالتي هذا ذنبي أنا، سامحيني، وبإذن الله نَفَافَة بتكون بخير،
وحرمة من حلة الشاوي أخرجته من رجلها وهي بخير، وهذا
العسل لكم، علاج لنَفَافَة.
- يا ولدي، العسل موجود، يهمني سلامة نَفَافَة.
- بنتك بخير يا خالتي، وسامحيني.
- عاد الأولاد كلّ إلى بيته، وفي الصباح ذهبت زُهرة لزيارة نَفَافَة، مطمئنة
على حالها، ومعتذرة من خديجة، قالت خديجة:
- البنت بخير وما فيها إلّا العافية، ولكن ما كان يفترض بحمود
يأخذهم إلى الوادي، يعلم الله أني أحبّ حمود محبتي لأولادي،
حمود ولد طيب ويساعد ناصر، ربي يبارك لنا فيهم.

- آمين، بس الولد ما يقيس الأمور، ولا يفكر هين يضع قدمه ولا يحسب خطواته، ومستعجل في كل شيء، وحدي ما أعرف متى أيعقل هذا الولد؟

ضحكت خديجة وهي تشير لابتها:

- وأمس كان شال نفاقة على ظهره وهي كما الجزلة، صلاة محمد السلام عليها، عسى ما نقع ظهره من ثقلها.

- بخير ما تحاتي، حمود رجال، لو ما جنونه وربشته. ردت خديجة مازحة زهرة:

- إذا عشت أزوجه إياها، وقال يبغاها.

- محظوظ حمود لو تكون نفاقة من نصيبه، وحظي أنا من حظ ولدي نأخذ بنت خديجة.

ضحكت المرأتان وهما تحلمان بذلك اليوم البعيد، وكانت نفاقة تسمع حوارهما فاحمرّت وجنتاها خجلاً.

(47)

- الجيش في الحارة، الجيش في الحارة.

قامت عويذة فور سماعها للتنبيه، وأمرت خديجة أن تخبئ كل شيء تخاف عليه من السرقة، ونظرت إلى حيث يرقد حمدان ورمت باتجاهه بعضاً من سعف النخيل، وكذلك فعل بقية الأهالي فبدؤوا يخبئون الأسلحة المتبقية في حوزتهم، ومؤونتهم وينقلون أجربة التمر، وخبأت النساء مصاغهن في حفر تحت الأرض، لأنهم يعلمون أن الجنود حينما يقومون بتفتيش البيوت بحجة البحث عن أسلحة، يعيشون خراباً، فيقطعون أجربة التمر، ويسكبون التمور على الأرض، ويأخذون كل ما تراه أعينهم ويقع في أيديهم.

انتشر الجنود في المكان وحاصر الجيش الحارة، وبعد قليل بدأت الطائرات تحلق فوق أسطح المنازل وقمم النخيل، يسمعون هدير محركاتها، تتمايل سعف النخيل لاقتراب الطائرات منها، يركض الجميع، يدخلون البيوت الأقرب إليهم حاملين أطفالهم ومغلقي أبوابهم. عاد حمدان إلى البيت راكضاً كي يكون بالقرب من عويذة وخديجة والأطفال، تتساءل خديجة ماذا يريدون منهم أكثر ممّا فعلوه فيهم، فقد هدموا البيوت، وصادروا الأسلحة والممتلكات، وسجنوا الرجال في سجن القلعة أو في سجون الجيش القريبة من المنطقة، ولقد تناقص عدد

الرجال في الحارة، فلم يبقَ سوى النساء والأطفال والبيادير وقليل من الرجال..

- حرب ما سهلة ولا متكافئة، وما شهدت الحارة حرب مثلها من قبل، سلّطوا علينا نيرانهم من الأرض والسماء، الطلقة الوحيدة تقتل عشرة، عسى أن ينتقم الله منهم ويردّ كيدهم في نحورهم.

قالت عويذة لحمدان الذي أخرج بندقية من تحت فراشه وظل ممسكاً بها وقال:

- سلاحنا في أيدينا، أندافع بقدر ما نستطيع، إحنا ما سهلين ترانا.

- ضمّ سلاحك يا حمدان، ما وقت إشهار السلاح، أقولك ضمّ سلاحك.

أعاد حمدان سلاحه إلى مكانه وغطّاه بالفراش:

- وموه نفعل تو، نجلس كما الدجاج نقش الأرض، موه يريدوا؟

- يريدوا الجبل، يريدوا رأس الإمام وعمامته، يريدوا ينكسوا البيرق.

قالت عويذة كلماتها والغضب يثور في أعماقها.

استمر الحصار خمسة أيام بلياليها، طائرات تحلّق في الجوّ وسيارات ومدافع وجنود تنتشر في الأرض، لم يسمحوا لهم بالخروج من بيوتهم، وأصبح ذهابهم للفلاة صعباً أمام ذلك الحصار، شلّت حركة الحياة، ولم يعد هناك ما يدبّ في الأرض، كانت الطائرات ترصدهم من الأعلى وعين الله تحرّسهم في سمائه، شكّل رجال الحارة فرقاً للمقاومة، هناك فرقة

للتنبيه حينما تبدأ الطائرات ترش سمومها، من خلال النفخ في بوق، فيدخل الجميع في بيوتهم يتحصنون بها، وفرق لتوزيع الماء على البيوت، وفرق لاستكشاف الأماكن الخالية من الحراسة، لكن حتى تلك الفرق لم تكن قادرة على أداء مهمتها مع ذلك الحصار، أوقفوا رعي الماشية، أغلقوا فُرْصَةَ الفَلَج، حتى لا يتم تسميمها، فكان بعض الرجال يذهبون ليلاً لجلب الماء من الفُرْصَة، يخرجون من مخارج لا يعرف الجيش عنها، وحينما تخرج النساء لا تخرج إلا تحت حراسة الرجال.

في بيت عويذة كان حمدان من يذهب ليلاً لإحضار الماء، وقد أرادت عويذة أن تذهب معه كي يجلبوا كمية ماء كافية، لكنه أصرّ أن يذهب بمفرده، وقال لها إنه قادر على القيام بذلك، فكان يجلب أكثر من وعاء للماء في المرة الواحدة. كان الجيش يعلم أنّ هذه الحارة هي من تقف في طريق عبورهم للجبل، ولن يصلوا إل لجبل حتى تسقط هذه الحارة الصغيرة في أيديهم، ولن يمسكوا البلاد إلا بسيطرتهم على الجبل.

وفي قمة الحصار، غادرت الطائرات سماء الحارة، ولم يعد أبناء الحارة يسمعون هديرها، فُتِحَت النوافذ والأبواب، أطلّ أهل الحارة إلى الحياة، خامرهم الشك في أنّ ما يحدث ليس سوى خدعة، هكذا قالت عويذة لأهل بيتها، وحذّرت حمدان من المجازفة في الذهاب إلى الجبل:

- احذر يا حمدان، ترى هذي خدعة جديدة منهم، جلس مكانك.

- أنا جالس حيي في مكاني وما أخرج.

مرّ اليوم حتى منتصفه، وحينما رفع المعلّم خلفان الأذان في المسجد، استبشر أهل الحارة خيرًا، فذهب الرجال إلى المسجد وهم في شوق إلى الصلاة بين جدرانها وتحت قبتّه، أقاموا الصفوف المترابطة للصلاة، جلسوا ذلك اليوم في مدخل الحارة حتى موعد صلاة العصر، فقد كان الجو لطيفًا ونسائم الشتاء بدأت تهبّ عليهم في هواء خفيف تمايله أوراق الشجر، ولكن حتى ذلك الوقت لم تأمن عويده، كان قلبها يحدثها أنّ هذا ليس إلّا فخًا يريدون به إخراج الثّوار من معقلهم.

مرّ اليوم الأول بسلام ولم يظهر للطائرات أثر، وكذلك اليوم الثاني والثالث، بدأت الحياة تعود، فرغبة الحياة أقوى من رهبة الموت، وفي اليوم الرابع خرج الأطفال يلعبون أمام بيوتهم، أطلق الراعي صفيّره لينبّه أهل الحارة بإخراج أغنامهم إلى المرعى، أخبرهم المعلّم خلفان بأنّ مدرسة القرآن ستعود إلى سابق عهدها، فليس من المعقول أن يظلّ الأطفال بلا تعليم، عادت النساء إلى أعمالهن، والرجال إلى سوقهم، صدّق الناس أنّ الحرب ابتعدت عنهم وأنّها قد تكون انتهت، فأملهم بالله كبير.



كانت عويده تشعر بانقباض في صدرها، لعلّه حلم البارحة؛ فقد رأت أنّ البيت ممتلئ بالبديويّات المبرقعات الملتحفات بالسواد، حتى إنّها لم تجد موطئًا لقدميها، رأت الجميع إلّا هي، كانت تنظر إليهن ولا تدري في أي موقع هي من ذلك السواد في بيتها. بدت البديويّات كغربان سود يملأن

المكان، تتعوذ من الشيطان الرجيم، تطرد الوسواس من قلبها، أي إشارة لها في هذا الحلم؟

همّت خديجة بالذهاب إلى الضاحية

- لا تخرجي اليوم، اجلسي في البيت، أنا أروح.
- اليوم نحصد القطين من الوقيف، تأخر حصاده بسبب الطائرات.
- لا تروحي يا بنتي، القطين ما يطير من مكانه، قلبي ما مطمئن، أشعر كما السحابة على فؤادي.
- لا تحاتي ماه، اليوم الشمس شارقة، ولو تركناه في وقفانه أترشه الطائرات وأنخسر محصول عام كامل، والحمد لله اليوم ما شيء أثر للطائرات. وما يحدث غير الخير بإذن الله، ونفافة معي أتساعدني، نريد ننتهي من الحصاد، نريد نخزنه، فما نعرف باكر كيف يكون الحال، وأنت كما تشوفي، كل يوم على حال.

لم تستطع عويذة أن تُقنع خديجة بالبقاء، فقد اتفقت مع جاراتها أن يحصدن سنابل الذرة التي يبست في عيدانها ولا يمكن أن تتأخر، ويوم الحصاد ليس كأَيِّ يوم، ففيه تكثر الأحاديث وتتجمع النساء مع بناتهن، يشوين الذرة الناضجة، تساهم كل امرأة بشيء؛ فزهرة ستحضر دلال القهوة، وخديجة ستحضر قصعة من التمر المدلوك بالسمن، ومفروكة الخبز بالحميس... كانت خديجة تشعر بالملل بعد أيام من الجلوس في البيت، والحركة جيدة للمرأة الحامل، ولأن عويذة تحبّ خديجة، وافقت على خروجها لحصاد الذرة.

نشطت خديجة في حمل أشياءها، وأعطت نَفَاقَةً مجزاً صغيراً. وحينما وصلت وابتتها المزارع، سمعت هدير الطائرات، ثلاث طائرات تحلّق فوق النخيل وتسقط أوراقاً، وكأنّ الطائرات كانت تنتظر خروجهم، بدأ أهل الحارة يترامضون في كلّ اتجاه دون أن يلتفتوا الأوراق المتساقطة، تأتيهم أصوات عبر مكبرات الصوت تأمرهم أن يسلّموا الثّوار، بعض النداءات واضحة وبعضها غير واضح، ولكن لا أحد يسمع ما يقال، الأصوات تضيع مع هدير الطائرات ومع دقات القلوب المتسارعة، الرعب يحثّ الأقدام للبحث عن أقرب ملجأ، تناثرت الأوراق على أرض لا يملك أهلها أوراقاً أو أقلاماً. لم يعد مشهد نثر الأوراق غريباً عليهم، أدرك أهل الحارة دون أن يقرؤوا ما هو مكتوب فيها أنّهم سيُقصّفون، اقترب المروحيات من قمم النخيل يحرك السعف بشكل جنوني، تكاد النخيل تسقط من فرط الاهتزاز الذي تتعرض له، صرخ أحد الرجال بالجميع أن يبتعدوا عن البرج، كانت الأصوات تتلاحق وتأمرهم بالركض والاختباء في أماكن بعيدة عن مرمى الطائرات، يركض الجميع، هناك من يرصدهم ويرصد تحركاتهم العشوائية، يترامضون وهم عزّل من كلّ شيء إلا إيمانهم أنّ هذه الأرض لهم والجبل لهم، وكلّ خيرات أرضهم لهم، فإذا كان في موتهم حياة للجبل، فلتكن حياتهم رخيصة من أجله. لم يكن بينهم من عرف تاريخ الشعوب ونضالها، ولكنّ الكرامة لا تُدرّس، والحرية لا تُعلّم.

(48)

بدأ قصف البرج الذي بين المزارع، البرج فارغ إلا من مدافع هولندية صدئة، وقربه بئر ومصلّى صغير، شهب من نار تتساقط عليه، تركض بعض النساء نحو مخزن الحبوب الخاص بالشيخ ياسر بن منصور فهو أقرب ملجأ، تقبض خديجة يد ابنتها ويركضن مع الراكضات، حين أحسّت في نفسها ضعفاً عن مجاراة ابنتها صرخت بها:

- ركضي، ركضي... سبقيني لمخزن المناخ.

كانت تلهث، فهي حبلى في شهرها السابع، تواصل الهرولة وعيناها على ابنتها؛ لكنّ نَفَاقَةً تتوقف، تريد أن تعود إلى أمّها، تصيح مادّة يدها الصغيرة، وخديجة غاضبة تأمرها:

- قلت لك ركضي، ركضي...

أطلقت نَفَاقَةً ساقها، وركضت مع من يركضون. انتبهت خديجة إلى جارهم سيف مخبئاً خلف نخلة مصوّباً بندقيته إلى الأعلى، يطلق، لكنّ الرصاصات تضيع في الهواء.

- كيف تقاتل الطائرات؟ لا تضيع رصاصك في الهواء.

قالت خديجة لسيف وهي تلهث، اتجه نحوها، مدّ إليها يده:

- أساعدك يا أختي؟

- أحسنت، الحق بابنتي نَفَاقَةً، صوب مخزن المناخ، وصلها البيت، نَفَاقَةً في حمايتك.

حَثَّ سيف خديجة أن تُسرع، ولحق بِنَفَافَةٍ. وما هي إلا لحظات حتى عادت الحوامة تضرب بالرشاش المنطقة المحيطة بالبرج؛ كانت نَفَافَةٌ قد وصلت المخزن، وخديجة تمسك بطنها بيدٍ راكضة تصرخ:

- ركضي، ركضي...

ابتعد هدير الطائرة، وضع سيف بندقيته في المخزن، حمل نَفَافَةً مسرعاً بها نحو «حارة المال» خوفاً من غارةٍ أخرى. تنظر نَفَافَةٌ حولها، إنها الطريق نفسها التي سارت فيها مع أمها، آثارهما ما زالت باقية، تلك الساقية التي تجاوزتها معها، وأخذت من الماء بكفها وغسلت لها وجهها، تلك شجيرة الياسمين التي قطفت منها أمها زهرتين لهما. ستكون بخير، ذلك هو الأمل الذي تمسكت به نَفَافَةٌ، ستكون بخير وتلتقي بها من جديد، لن يحدث مكروهٌ لأمّها، لكنّها لا تعرف هل أصيب أحدٌ في القصف، تحدث نفسها: «ربما سبقتنا إلى البيت، لن تغضب إذا رأَت جارنا يحملني، هو يساعدني كما ساعدني حمود، سأرتمي في حضنها فور وصولي، لن أتركها أبداً، سأنام معها هذه الليلة ولن أدع ناصر يلتصق بها كعادته». قبل أن يصلا إلى البيت، يشاهدان جدتها تقف أمام الباب، تركض إليهما: «هين خديجة؟» تقولها بصوتٍ مفجوع، ونظراتها تدلّ على أنّ شيئاً مخيفاً قد حدث. ما كانت تخشاه قد وقع، فقدت خديجة، وما السواد في حلمها إلا إشارة إلى الموت، تنظر إلى سيف الذي لا يدري ماذا يجيبها فهو غير متأكد مما يقوله:

- قصفوا برج المزارع، وخديجة كانت تلحقنا إلى مخزن المناخ، لمّا وقف القصف ما حصّلتها قريب، توقّعت أنّها رجعت إلى البيت. تُدخل عويذة نَفَافَة إلى البيت، وتأمّرها بالجلوس مع أخيها وتحذّرها من أن تخرج، فالطائرات قد تعود في أيّ لحظة، تلتصق نَفَافَة بناصر وتغطّي عينيها بيديها، وناصر يلمسها ليتأكد من وجودها.

- نَفَافَة، نَفَافَة.

لكنّها لا تجيب، يبدأ ناصر بالبكاء قربها، فتحترضه وتبكي معه.

- خديجة، علو ووه يا أمي هينك... خديجة.

لكنّ صوت خديجة غائب، وعويذة تندفع كالمجنونة باتجاه برج المزارع، تبحث عمّا لا تودّ أن تراه، يلحقها سيف إلى حيث لقي خديجة، وقبل أن يصلا يقترب مرهون من عويذة الداهلة، وقبل أن تسأله تسمعه يقول:

- إنّ الله وإنّا إليه راجعون، يحسن الله عزاءكم في فقيدتكم.

لا تدري إن كان يحدثها أم يحدث غيرها، تنظر إليه ولا تردّ بشيء، تخلف سيف ومرهون يتحدثان وراءها وتركض وهي تسأل الفراغ:

- خديجة، أنت هين يو أمي أنت هين، علو ووه ردي عليّ، خديجة، خديجة.. خديجة.

تخدع نفسها: «مرهون يكذب أو اختلط عليه الأمر»، تصل إلى حيث خديجة مسجاة، هي خديجة وليس غيرها بنفس الملابس التي كانت ترتديها هذا الصباح، تقترب منها، عيناها مفتوحتان، جامدتان تنظران إلى مدى بعيد، ولعل آخر ما كانت تراه، ابتها نفاة وهي تركض، تنكب عليها، تبكي ممسكة رأسها، تصرخ بأعلى صوتها:

- خديجة، خديجة يو أمي ما تروحي...

تهزها، تضمها إلى صدرها، لكن خديجة لم تعد تجيب، تحتضنها وتظل هكذا ممسكة بها، تجذبها النساء لكنّها تشبث بجسد خديجة البارد الملطخ بالدماء وهي تصرخ:

- علوه قلت لك يو أمي ما تروحي... ما تروحي..

تصرخ عويذة وصرخاتها تصل إلى عنان السماء، يصيبها الوهن فتستسلم لهن، يأخذنها إلى البيت وهي تجر أقدامها عاجزة عن الحركة وعاجزة عن التصديق:

- خبروا خديجة تلحقني إلى البيت، قولوا لها أولادها يسألوا عنها.

تنادي خديجة وتناجي ربها، تسأله عن مصابها، تسأله إن كان يحبها أم هو غاضب منها، تسأله لماذا اختار خديجة ولم يخترها هي. تنتفض نفاة المتكومة كخرقة بالية في إحدى زوايا الغرفة، وهي تسمع صياح جدتها، هذه صرخة الموت، فعويذة لم تصرخ هذه الصرخات من قبل، عويذة لا تبكي إلا لحدث عظيم، لا تنكسر إلا بفقد حاد، ولا تعري حزنها أمام أحد

كما تعرّيه الآن، تكاد نَفَاقَة لا تصدّق ما حصل، وناصر ملتصق بها يبكي ولا يعلم لم يبكي، ترحف إلى الباب لعلّها ترى أمّها بين النساء القادّات، لعلّ جدّتها تصيح لسببٍ آخر؛ فلا يمكن أن يكون الموت سريعاً هكذا. قبل ساعة فقط كانت تحدّثها، تضحك معها، تخبرها عن وجبة الغداء التي ستعدّها لهم هذا اليوم، وعدتها أن تشوي معها أكواز الذرة، همست لها في أذنها بينما كانت في الطريق:

- أناأكل قظيم هذا اليوم.

كيف تصدّق أنّها تركت القظيم في أغصانه ومضت، من سيشوي القظيم لنَفَاقَة؟ تريد لهذا الكابوس أن ينتهي، تنظر إلى الخارج، لم تكن أمّها بين النساء الممسكات بجدتها النائحة، تصرخ لكن الصرخة لا تخرج من فمها، تختنق، تدخل جدتها الغرفة، تجذبها من حيث تجلس، ترحف نَفَاقَة داخل الغرفة وتغطي عينيها، قدماها لا تحملاها لأن تقف وتمشي، تتحرك صوب النافذة، تمسك بقضبانها، تهرب من جدّتها ومن النساء ومن الموت ومن الوجع الذي يمزّق روحها، وجع أكبر منها بكثير، قضبان النافذة تكاد تنقلع في يدها وجدّتها تحاول جرّها، تأخذها جدتها بين يديها، تأكّدت أنّ أمّها ماتت، يصرخ ناصر:

- ماه، ماه ماااه...

تنته عويذة إليه فتحضنه ودموعها الحارة تبلّل وجهها، تحتضن معه يتمه وعماه وغياب أبيه والفقد الذي يحتلّ قلبه الصغير في تلك اللحظة.

تترأى الصورة الأخيرة لَنَفَافَةٍ عَنْ أُمِّهَا وَهِيَ تَصْرُخُ بِهَا: «رَكْضِي، رَكْضِي...»، تَتَلَحَّقُ صَوْرُهَا فِي ذَاكِرَتِهَا، تَكَادُ لَا تَصَدِّقُ أَنَّهَا لَنْ تَرَى أُمِّهَا مَرَّةً أُخْرَى، لَنْ تَسْمَعَ صَوْتَهَا، لَنْ تَخْبِرَهَا بِأَنْ تَكْنُسَ أَمَامَ الْبَيْتِ وَتَنْضَحَ الْمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ كَيْ تَبْرُدَ، لَنْ تَعْلَمَها كَيْفَ تَضَعُ الْعَجِينَ عَلَى الطَّوْبِجِ دُونَ أَنْ تَحْرِقَ يَدَهَا، لَنْ تَتَذُوقَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَبْزَ أُمِّهَا الْمَدْهُونَ بِالسَّمْنِ، لَنْ تَشْمَ رَائِحَتِهَا الْمَعْطَّرَةَ بِزَهْرِ الْيَاسْمِينِ وَعَطَرِ الْكِذَا وَالزَّعْفَرَانِ، لَنْ تُسَمِّكَ يَدَهَا وَقْتَ النَّوْمِ، لَنْ تَغْسِلَ لَهَا شَعْرَهَا فِي مَجَازَةِ الْحَارَةِ، لَنْ تَسِيرَ مَعَهَا حَامِلَةً «جَدْوِيَّتِهَا» الْفَخَّارِيَّةَ الصَّغِيرَةَ لَتَمْلَأَهَا بِمَاءٍ مِنْ فُرْصَةِ الْفَلَاحِ. تَخْتَبِئُ فِي صَدْرِ جَدَّتِهَا، تَرْتَجِفُ، تَضَمُّهَا جَدَّتُهَا رَغْمَ أَنَّ الْحَمْلَ أَصْبَحَ ثَقِيلًا عَلَى صَدْرِهَا.

وَبَيْنَمَا تَنْتَظِرُ النِّسَاءَ خَلْفَ بَابِ الْغُرْفَةِ، تَدْخُلُ زُهْرَةُ إِلَيْهَا وَهِيَ تَبْكِي، فَتَسْأَلُهَا إِنْ كَانَ لَدَيْهَا كَفَنٌ مُعَدٌّ. أَخْرَجَتْ عَوِيدَةَ مِنْ مَدْوَسِهَا كَفَنًا مُعْطَرًّا وَمُبَخَّرًا. لَمْ تَفَكِّرْ يَوْمًا أَنَّ الْكَفْنَ سَيَكُونُ لَخَدِيدِجَةَ وَلَيْسَ لَهَا.



عَادَ حَمْدَانُ وَمَلَابِسُهُ مَعْفَرَةٌ بِالْتُّرَابِ وَمَلَطْخَةٌ بِالطِّينِ، اقْتَرَبَ مِنَ الْبَيْتِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَا حَدَثَ، يَفَكِّرُ بِعَوِيدَةَ الَّتِي سَتَكُونُ غَاضِبَةً لِأَنَّهَا قَلَقَتْهُ عَلَيْهِ كِعَادَتِهَا، وَسِينَالَ مِنْهَا كَلِمَتَيْنِ حَارَتَيْنِ وَلَكِنْ لَا بَأْسَ، أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ فَكَّرَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ، أَرَادَ أَنْ يَخْبِرَهَا بِمَا حَدَثَ، وَكَيْفَ تَصَرَّفَ حَتَّى يَنْجُو، كَانَ يَجْزُّ الْعَلْفَ وَحِينَ سَمِعَ الطَّائِرَاتِ صَعْدَ إِحْدَى شَجَرَاتِ النَّخِيلِ؛

فبينما كانت الطائرات تقصف البرج كان مستتراً بسعفها، رأى الناس يركضون، أراد أن يخبرها بأنه نزل مسرعاً حينما غادرت الطائرات، أراد أن يجعلها تضحك وهو يقول لها إن تلك الطيور العملاقة لا تخزق كبقية الطيور، ولكن خزوقها قاتل، أراد أن يخبرها أن ثيابه ملطّخة بالطين لأنّه حينما رأى الطائرات تغادر قفز من منتصف النخلة وسقط في الأرض المبللة بالماء وبدل أن يحمل العلف حمل المعجز. أتى راكضاً كي يطمئن عليهم، أراد أن يعتذر عن غيابه في مثل ذلك الوقت العصيب، كان عليه أن يعود لحراستهم كما وعد صالحاً، أراد أن يخبرها بأشياء كثيرة، وستسأله أسئلة كثيرة عاداتها، أراد أن يخبر ناصر عن هذه المغامرة التي قام بها اليوم وعن أشكال الطائرات التي كانت قريبة منه وهو في قمة النخلة، ستعجب ناصر الحكاية، وسيستسم ابتسامة يحبها حمدان، وسيسأله أسئلة كثيرة كما تفعل عويذة، وسيجيبه عن كلّ شيء وسيحكي له كلّ شيء، فناصر يحبّ الحكايات، والكلام يتزاحم في صدر حمدان، ماذا سيقدم منه وماذا سيؤخر، لكنّه وجد البيت محاطاً بالنساء، وعويل عويذة يصل إلى مسامعه، خذلته قدماه، لا يدري أيّاً منهم قد قضى، وأي مصيبة قد حلّت؟

- خديجة راحت، راحت شهيدة عند ربها.

لا يعلم من قال ذلك، سقط المعجز من يده.

نظر حمدان إلى المرأة التي تقول له: خديجة راحت، يريد أن يسألها: أين راحت؟ لكن الأرض كانت تدور تحت قدميه والسماء تسقط على

رأسه، والدنيا كلّها تصكّ عليه من كلّ جوانبها، تضيق الحياة كلّها عليه، السؤال ينعقد في لسانه، يجهش بالبكاء، لا يعلم إذا كان صرخ أم أنه لم يفعل، ينظر إلى النساء الباقيات في حوش البيت والرجال المتجمعين بالقرب منهم، وخديجة ليست هنا لتخبره أنّ إفطاره بالقرب من فراشه.

- خديجة راحت، خديجة راحت...

يأتيه صوت باكٍ يؤكد الحقيقة التي لا يودّ معرفتها، يجثو على الأرض، وهو مبهور: «أين راحت، كيف راحت؟ راحت، ما الذي تعنيه هذه الكلمة، لعلها راحت وستعود»، لم يكن يعرف أن بعض الكلمات سكاكين تجرح سامعها، لكن لا سكين مثل هذه الكلمة التي شطرته إلى نصفين، ينهض ويركض نحو عويذة، يرتمي في حضنها كطفل صغير، يريد أن يسألها عن خديجة، نسي أنّه كبر وتجاوز مرحلة أن يندس في حضن عويذة التي ما كانت تحتضنه صغيراً أو حتى تحتضن ابنها، لكنّه يحتاج في هذه اللحظة إلى أمّ يبكي على صدرها، إلى قلب يشاركه الحزن والصدمة، يتبّه أنّه بين يديها غافل عن كلّ النساء الموجودات هناك، لا رجل غيره وسطهن، يتعد عن أمّه عويذة التي لا تجيبه بشيء، يمسح دموعه، يسأل نفسه وهو في حالة قنوط: «أما كان عليه هو أن يروح، أما كان على الموت أن يختاره هو دون خديجة، ألم يُخلَق ليكون فداء لخديجة وأولادها، كيف ستكون الدنيا من دونها، ماذا سيقول لصالح الذي وصّاه عليها، وكيف سيتلقّى صالح في سجنه خبر استشهادها، ووفاة طفله المنتظر؟».

(49)

جُمِعَت الجثث أمام مسجد «المال» وكانت خمسًا، ثلاثة بياديير، وخديجة، ورجلاً مسنّاً كان نائمًا في المُصلّى قرب البرج. جميعهم لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل، قُتِلوا فقط لأنّهم كانوا قرييين من البرج. جُهِزَت الجثث، وبقي جثمان خديجة حتى تأكدت العجوز صبيحة من أنّ الجنين لا يتحرك، وخصوصًا أنّ رصاصة اخترقت بطن خديجة. لم تُغسَل جثثهم، فالشهيد تغسّله دماؤه، وقبل الصلاة عليهم، أشار بعضهم أن ينتظروا أهلهم النازلين من الجبل لتوديع موتاهم، فقد بعثوا لهم رسولاً، لكنّ المعلّم خلفان قال:

- لا جدوى من الانتظار، قد يتأخّر أهلنا في الوصول، الطريق كما تعلمون ليس آمنًا، وحتى يصل الرسول وينزلوا، تكون الجثث قد تغيّرت، وإكرام الميت دفنه، فما بالكم بشهداءٍ هيأ الله لهم جنته وملائكته لانتظار وصولهم، وما ينتظرهم عند ربهم خير وأبقى من الدنيا وما فيها من أهل وأحباب.

وافق الجميع على رأي المعلّم خلفان الذي طلب من النساء العودة إلى بيوتهنّ، بينما يشيّع الرجال الجثامين تبعاً بعد الصلاة عليها إلى مقبرة الحارة، ولعدم توقّر سوى نعشٍ واحد، كان بعض الرجال يحملون الجنازة، وبعد توصيلها إلى القبر يعودون بالنعش بينما يهتم أهل الشهيد

بدفنه. وكلّما حُمِلت جنازة تتعالى الأصوات بالصياح والنحيب، وذكر الله. كانت جنازة خديجة الأخيرة، حَمَل حمدان مع ثلاثة آخرين نعشها، وكما شارك في زفّتها الأولى وهم يحضرونها من الجبل عروسًا لصالح، ها هو يشارك في زفّتها الأخيرة عروسًا إلى الجنة.

أقسم حمدان بينه وبين نفسه وهو يحمل نعش خديجة أنّه سيتقم لها، وأنّه لن يهدأ ولن يستكين حتى يتقم ويقتل من تسبب في قتلها.

وصل إخوة خديجة وزوجاتهم وبقية أهالي القتلى في اليوم التالي كما توقّع المعلّم خلفان، لم يودّعوا أهلهم وأحبّتهم قبل دفنهم، لكنهم تقبّلوا الأمر كواقع لا بدّ منه، فلا الوقت وقت ملام أو زعل، أقام إخوة خديجة وزوجاتهم في بيت عويذة فترة العزاء، بقوا ثلاثة أيام إلّا مسعود وزوجته الذي مكث طوال أيام العزاء الخمسة. وفي اليوم الأخير اقترح مسعود على عويذة أن يأخذ أبناء المرحومة خديجة معه إلى الجبل ليرتّبوا مع أبنائه متعللاً بصعوبة الأمر عليها، فاجأ هذا الطلب عويذة، إذ كيف به يفكّر بحرمانها من فلذّات كبدها، إنّ في كلامه تلميحاً بأنّها ستقصر في تربيتهم، وأنّها امرأة طاعنة في السنّ ولن تستطيع تحمّل مسؤوليتهم أو الاعتناء بهم؛ إنّ الرجل يريد قتلها بلا شك إذ يأخذهم معه..

- يا ولدي إذا تريد موتي، خذهم معك.

- أعوذ بالله الوالدة، الله يعطيك طول العمر، ولكن في الجبل هناك الأولاد وأيتسلّوا معهم، يمكن ينسوا ما حدث، فما صار عليهم ليس بالقليل، وفقد الأم محنة.
- موت خديجة محنة علينا كلنا.
- تعالي ماه عويذة أنتِ معهم، اجلسي معنا في الجبل، والبيت بيتكم.
- أحسنت يا ولدي، ولكن ما تطلبه صعب، هنا بيتنا وأموالنا وخيرنا ورزقنا، وما يعقل أترك كلّ شيء وأروح إلى الجبل، وما تنسى أن حمدان معنا وأعتبره ولدي، وما تخلّى عنا، وأنا ما تطاوعني نفسي أتركه وحده هنا.
- كما تشوفي الوالدة، ولكن أي شيء تحتاجون إليه فنحن موجودين، خبري حمدان أو أرسلني أيّ حد يبلّغنا.
- كثر خيرك يا ولدي، وإذا ضاق علينا الحال وتأزّمت الدنيا وخفت على الأولاد، أتوصلّهم معك وفي بيتك وفي حمايتك، أنت خالهم والخال أب، وما أحد أحنّ على أولاد خديجة منك.
- عاد مسعود وزوجته إلى الجبل، وحملّتهم عويذة من خيرات أرضها ومن تمور نخيلها، وطوي بساط العزاء، وما انطفأت النار في قلوب أهالي الحارة.



في الليلة الخامسة، وبعد أن ذهب الجميع، بحثت عويذة عن حمدان كي تذكره أن يتناول عشاءه الذي تركته له على الموقد فلم تجده، فهو لم يعد يأكل الطعام الذي تركه له كسابق عهده، إلا إذا ألحّت عليه وذكرته أنها تعتمد عليه، وليس لهم الآن سواه، يقول بانكسار:

- حيي، النفس ضاقت، أفكر في صالح وأولاده، موت خديجة ما سهل.

يزيد كلام حمدان من ألمها، لكنّها كانت تقاوم ما استطاعت كي لا يشعر الأطفال باليتم.

نادت عليه ولم تسمع له جواباً، بحثت عنه حيث كانت تجده جالساً في الليالي السابقة بعد عودته من مجلس العزاء، انتظرتة ولم يعد، بحثت في فراشه، وقد راودتها الشكوك حول أمر ما، قلبت الفراش الذي ينام عليه، حفرت في الحفرة التي كان قد خبأ فيها السلاح الذي أحضرته هي ذات يوم من الفلاة بعد أن أعطاه إياه أحد رفاق صالح، نبشت التراب بيديها، فلم تجد السلاح، لقد اختفى واختفى حمدان معه، ابتسمت عويذة ابتسامة مغتصبة من قلب محزون، شيء من الرضا يسكن روحها المتألّمة بموت خديجة وموت جينيتها، «سيفعلها حمدان»، وحدها تعرف أيّ رجل ربّت.

نامت عويذة في تلك الليلة كما لم تنم في الليالي السابقة، وكأن النار في صدرها بدأت تخبو، رأت خديجة جالسة وسط راوية خضراء ترضع طفلاً

صغيراً وتبتسم، تسير عويذة نحوها، تمدّ لها يدها، تناديها، تهّمّ باحتضانها، لكنها تستيقظ على صوت الأذان، تبحث حولها فتجد نفاقة نائمة وناصر نائم بجانبها، تنبّه إلى أنّها كانت تحلم، لكنّها تردد أنّ هذا الحلم بشارة خير، خديجة في الجنة وابنها معها، تحمد الله على كلّ شيء، حيث لا يُحمد سواه في السراء والضراء.

تخرج لتتأكد من عودة حمدان، فتجده نائماً، تقول له إنّ المؤذن قد أذن لصلاة الفجر وعليه أن ينهض من فراشه، لم تسأله أين كان ولا ماذا فعل، يتقلّب في فراشه كعادته فليس أثقل على حمدان من الذهاب إلى المسجد، رغم إصرار عويذة على إيقاظه وتذكيره بصلاة الجماعة. ينهض متثاقلاً من نومه، فينتظرها حتى تذهب ثم يعود إلى النوم مرة أخرى.

(50)

في ظهيرة اليوم السابع بعد المصيبة، حلّقت طائرة في سماء الحارة، دارت فوق قمم النخيل وبالقرب من الوادي ثم اختفت، ركضت نَفَافَةً صوب ناصر وضمّته ودخلت إلى الداخل، تذكّرت أمّها، فبدأت في البكاء وبكى ناصر معها، حاولت عويذة إسكاتهما فأخذتهما إلى زريبة الغنم ليشاهد الصّخل المولود حديثاً، وحينما هدأاً أدخلتهما إلى الداخل، وأخبرت نَفَافَةً أن تقرأ القرآن وتطلب من ناصر أن يردد وراءها. بعد قليل، سمعت عويذة صوت أقدام أشبه بأصوات حوافر الخيل على الأرض، وحين خرجت رأّت عدداً من رجال الجيش قادمين نحوهم، هي الأشكال ذاتها التي رأتها حينما هُدم البيت العود، هؤلاء هم من قتلوا خديجة وسجنوا صالحاً، همّ من يتّموا أحفادها، تُرى ما الذي يريدونه الآن، هل أتوا ليقدموا لها واجب العزاء؟! ولكن منذ متى يقدم القاتل العزاء في القتل؟

انتشر الجنود في المكان، يحاصرون بيتها الصغير، يُرعبون أحفادها، ما أشدّ كرهاها لهم! وما أشدّ شعورها بالعجز وهي ترى من قتل خديجة وسجن ابنها ولا تستطيع فعل شيء! تكظم غيظها، تقاوم الغضب الذي يتفجّر بركان في صدرها، يتقدمهم الرجل نفسه الذي كان يترجم حينما هدموا البيت:

- موه تريدوا منا، ما كفاكم ما فعلتوه فينا؟
- سألتهم عويذة في غضب وهي تهزّ يديها كالمجنونة.
- الوالدة نريد نفتّش البيت.
- أي بيت تريدوا تفتّشيه؟ ما عندنا بيت، هدمتوا البيت وأخذتوا كلّ ما فيه، وولدي أنت أعلم به مني، وزوجة ولدي قتلتها، موه تبقى وموه تريدوا أكثر، فلا بيت ولا ولد ولا بنت.
- ما حدث كان خطأ وغير متعمّد، ما كانوا يريدون قتل أحد، وتم رمي أوراق كثيرة للتحذير ولكنكم لم تستجيبوا.
- هدمتوا ونهبتوا وسرقتوا وقتلتوا وشرّدتوا ويتمّتوا وثكّلوا، ما بقي شيء، ما بقي شيء ما فعلتوه.
- صمت الرجل وكأنّه يبحث عمّا سيقوله لها، ثم تحدّث بصوت أقلّ حدة من قبل وكأنّه يخصّها بسر، فهو لم ينس الموقف العنيد المتصلّب الذي وقفته يوم هدم البيت، لم ينسها أبداً وهي تمسك البندقية تصوّبها نحوهم بلا خوف، وقد يتوقع منها أيّ شيء، فهذه المرأة لا تخاف ولا ترتبك، أدرك من كلامها أن المرأة الجميلة التي ما زالت صورتها عالقة في ذهنه قد قُتلت، هي من تقصدها، تجاوز أيّ إحساس قد يشعره بالذنب، معللاً ما حدث بخطأ غير مقصود، وأنّ الأهالي وحدهم من يعرّضون أنفسهم للهلاك، بعدم اختبائهم وبقائهم تحت القصف، يقول لها متجاهلاً غضبها:

- الوالدة أمس المعسكر تعرض لهجوم، وقُتل ثلاثة من الجنود، ويقال إنّ الهجوم جاء من أشخاص يسكنون هذه الحارة، وليس من مكان آخر.

- ومو ذنبنا نحن إذا معسكرك ضربوه، قلت لك ولدي في السجن، وأنا حرمة عجوز كما تشوف، يدي ما تحمل سلاح، ولا حيلة لي حتى أحارب جيش.

- اعذرينا الوالدة، هذه أوامر، وعلينا التنفيذ وعليكم الاستجابة. لم ترد عليه بشيء، فهي تعلم أنّها خالية الوفاض، قليلة الحيلة والمقدرة، أخرجت نَقَافَةً وناصر من داخل الغرفة، فالتصق الطفلان بجذعتهما، يأمرها الرجل أن تبعد عن الغرفة، وأن تجلس مع الأطفال تحت الشجرة حتى يكمل الجنود عملهم، لكنها أصرّت أن تقف مقابل النافذة لترى ما هم فاعلون.

تراهم وهم يدخلون الغرفة الأولى دون أن يخلعوا أحذيتهم، تسمعهم يفتحون المناديس، رأتهم من بين أعمدة النافذة وهم يسرقون شيئاً من مصاغ خديجة الذي كان في المندوس، أخذوا القروش القليلة التي خبأتها في حقيبة من القماش، رأّت أحدهم وهو يضع ما أخذه في جيبه، صرخت عليهم من الخارج:

- تركوا صيغة القتيلة، هذا ورث بنتها.

لكن ما كانوا يستمعون إليها، حينما خرجوا كانت الدجاجات تقوقئ وتنقر الأرض بمنقارها بحثًا عن طعام، أطلق أحدهم رصاصة على إحدى الدجاجات، دون أن تعلم عويذة لذلك سببًا، ولا تدري أي رسالة أراد أن يوصلها قاتل الدجاجة لها، حتى الدجاجات لم تسلم من شرورهم، قالت لهم عويذة التي لا سلاح لديها سوى لسانها إن كانوا يفهمون:

- إذا كان قصدك تخويفنا بقتل الدجاجة، فنحن ما نخاف، قتلتمنا من هو أكبر، وراح من هو أعظم وأعلى، ونحن صابرين ومحتسبين أمرنا الله رب العالمين، خذ الدجاجة بو قتلتها وتغدى بها.

تعتمد الرجل تجاهلها بعدم الرد، انتشروا في المكان، بعثروا الملابس المغسولة المعلقة في الحبل، اقترب أحدهم من الأطفال، فضمت عويذة الأطفال إليها، ورفعت يدها أمامه أن يتوقف ولا يقترب، ضحك الرجل الأحمر منها هازئًا، فمد يده مرة أخرى محاولاً انتزاع ناصر من يديها، صرخت عويذة في غضب:

- هذا طفل صغير يتيم وأعمى، مو باغيين منه، ما كفاكم قتلتموا أمه وسجنتوا أبوه.

حينما وجدوها كذلك تراجعوا، وقال الرجل الذي يتكلم العربية منهم:

- ألا يوجد رجل هنا معكم في البيت؟

- عندنا ربنا.

- وأين تخبئون الأسلحة؟

- قلنا لك ما عندنا سلاح، كان عندنا صمعة وأخذتوها.
نظر الرجل إلى المكان الذي ينام فيه حمدان، ودارت عينه بحثاً عن شيء يتخذه دليلاً ضدهم، فتحرّك قليلاً ومعه جنود وضابط أحمر، قلبوا البساط، تأملوا القُفر والمخاريف والأعمال السعفية التي كان يشغل حمدان عليها، كانت دشداشة حمدان المتسخة والمليئة بالبقع والأتربة معلّقة على غصن في شجرة المانجو، فنظر الرجل إلى الدشداشة وأعاد السؤال لعويذة:

- الوالدة أسألك مرة أخرى، من الرجل الموجود معكم؟ نحن لدينا معلومات بوجود رجل هنا في هذا البيت.
- وما دام تعرف كلّ شيء وعندهك معلومات ليش تسأل؟!
- حتى لا نظلم أحداً.
- خبرتك ما أحد عندنا غير الله في سماه.
- الوالدة من الرجل الذي يعيش هنا؟
- هنا البيدار وهو رجل فقير يعيش على حيلة ما يبيعه من شغل الخوص.

- كان عليك إخبارنا من البداية، ألا تعتبرينه رجلاً؟
 - حمدان رجّال، ولكن ما له علاقة بشيء، قلت لك رجل فقير.
- اقترب الضابط الإنجليزي وخلفه الجنود الذين لا يشبهونه في حمرة وجهه، بل كانت ألوانهم سمراء قمحية، أخذ الضابط حبل الليف الذي

كان حمدان قد انتهى منه، وناوله أحد الجنود، وأخذ المجزّ الذي كان يستخدمه لقطع الحشائش وجز البرسيم، وتحدّث الضابط مع الرجل الذي يتولى الترجمة، ثم تحرّك الرجل واقترب من عويذة وسألها:

- الضابط يسأل، هل عندكم سلاح غير هذا السلاح؟

بدا السؤال مضحكاً لعويذة، إذ كيف يعتبرون هذا سلاحاً، هل المجزّ أصبح سلاحاً أمام طائراتهم وقنابلهم ومدافعهم، هل يمزح الرجل أم أنّه جادٌ فيما يقول.

- ما يوجد عندنا سلاح غير هذا المجزّ بو في يدك، وهذا ما سلاح،

هذا نجزّ به الحشيش حال الغنم، واعجبني، كيه أنت ما تعرف

السلاح كيف يكون شكله؟

حملة الرجل مع الحبل، ومع ما أخذوه من الداخل، ونفّافة تنظر

إليهم، وكأنّها تريد أن تحفظ أشكالهم، تريد أن تعرف أيّهم قتل أمها، أيّهم

سجن أباهما، أيّهم كان سبباً في يتهما وحزنها وفقدنها؟

ظلت عويذة واقفة والأطفال يتمسكون بها، وحينما غادروا وغابوا عن

ناظريها، دخلت الغرفة وفتحت المندوس الذي كان خالياً من مصاغ

خديجة، ومن القروش التي كانت تخبئها عويذة في قعره.

(51)

في صباح اليوم التالي عاد نفر من الجند، وأمروا عويذة أن تتحرك بالأطفال باتجاه مدخل الحارة بالقرب من الوادي، لا تدري عويذة ماذا أرادوا بهم، وما الذي بقي لم يفعلوه ولم يأخذوه.

وحينما وصلت مع أحفادها حيث اقتادها الرجل، رأت جميع رجال الحارة ونساءهم وأطفالهم في حظائر محاطة بالحبال. تم فصل النساء والأطفال عن الرجال، وجعلوهم في جهتين متقابلتين في طابور واحد بشكل أفقي، يسرون بينهم ببنادقهم، تمسك عويذة بيدي نفاة وناصر وتقف وسطهم.

أخذت عويذة تتفقد الرجال في الجهة المقابلة باحثة عن حمدان، لمحتهم بينهم بوجهه الأسود وثوبه المرقع، رأت كذلك سيف ومرهون وخلف والمعلم خلفان، حتى حمود والشباب الذكور، كانوا هناك في الحظيرة المقابلة، لأول مرة تراهم مجردين من أسلحتهم، شيء لا تفهمه ولا تدركه، كيف يستسلم الرجال بهذه السهولة.

لم يخبروهم لماذا جمعوهم كلهم أمام مدخل الحارة تحت شجرة السوق، لكن الهاجس الذي سيطر على الجميع أنهم ما جمعوهم إلا ليقتلوهم، ولن ينجدهم أحد، تفكر عويذة أنهم سيقتلونهم وسيدفنونهم ولن يعرف أحد عنهم شيئاً، حتى أهلهم في الجبل لا يعرفون ما يحدث

معهم الآن، ولكن ربما الحال في الجبل أسوأ، فهم أيضاً لا يعرفون ما يحدث هناك، وبعض المرابطين في الثغور لم ينزلوا بعد القصف الأخير، فما أدراها ما يحدث هناك، لقد أصبح صالح في قبضتهم، وهو من كان يزرع الأسرار في صدرها، ويأتمنها على السلاح كي تخبئه.

يصرخ الأطفال ويصيحون في أحضان أمهاتهم، فهناك من يصيح جوعاً، وهناك من يصيح خوفاً وضجراً، الانتظار مملّ ومخزٍ ومرعب. ظلّوا على وقفتهم تلك مع أبنائهم دون أن يسمحوا لهم بالجلوس، يقف الجنود خلفهم وأمامهم بالبنادق، بعد قليل أمروا الرجال بخلع ملابسهم، احتجّ أحدهم، فوكزه الضابط في صدره بكعب البندقية، جرّدوهم من دشاديشهم وتركوهم عراة إلا من إزارهم السفلي، أجساد سمراء نحيلة، تستطيع عدّ عظام ضلوعهم، أسقطوا عمائمهم المربوطة بخيوط من ليف حول رؤوسهم على الأرض.

أتى عساكر من داخل الحارة وهم يحملون أسلحة عُثِر عليها داخل البيوت الفارغة، من نوعية سكّتون وكند وصمعة ووضعوها أمام أعينهم، بعض النساء بدأن بالبكاء، فالشمس قد أحرقت جلود أطفالهن، وحينما ارتفع صوت صياح الأطفال، تشاور الجند فيما بينهم، ثم تقدم الرجل المتحدث باللغة العربية:

- الأوامر تقول تعود النساء والأطفال إلى البيوت، ويؤخذ الرجال للتحقيق، لا بدّ من اكتشاف الفاعل بينكم.

عادت النساء مع أطفالهن إلى البيوت وبقي الرجال، وبقيت قلوب النساء مع رجالهن خائفات عليهم من القتل، يسرن هاربات بأطفالهن ويتلفتن إلى الخلف ينظرن ماذا سيفعل بأزواجهن وأبنائهن الكبار.

بعد ما يقارب ساعة من الزمن عاد كبار السن إلى البيوت، وأخذوا بقية الرجال والشباب معهم في سياراتهم للتحقيق كما قالوا، كان حمدان من بين من أخذوهم، وكذلك سيف وابنه حمود، ومرهون وابنه مبارك، وسليمان، ولم يأخذوا سلّوم لصغر سنّه. أركبوهم سيارات بيتفورد، وحينما سمع من بقي من أهل الحارة أصوات محركات السيارات، عرفوا أنّهم رحلوا آخذين الرجال والأسلحة وما سرقوه من البيوت. تتساءل النساء ماذا سيفعل بالرجال، وبأيّ تهمة أخذوهم؟ تصيح زهرة وتلعنهم وتبكي زوجها وابنها، وكذلك زوجة مرهون وبقيّة النساء ممّن أخذ رجالهن. انقضى النهار ولم يعد أحد منهم، لا الجند ولا الرجال الذين أخذوهم، ولا يدري أحد ما فعلوا بهم، سجنوهم أم قتلوهم؟ أظلم الليل ولم يعد أحد منهم، ولم يكن هناك من يستطيع الذهاب لمعرفة أين هم؟



أخذ الجنود الرجال في السيارات التابعة للجيش، أمروهم بالصعود جميعاً في سيارتين، وتبعتهن بقية السيارات، كان وضعهم أشبه بمواشي في زريبة، بعضهم فوق بعض، وعلى باب السيارة يقف جنديان يحملان بنادق رشاشة، وحدّروهم قبل أن تتحرك السيارات من أن يأتوا بأي حركة

أو يتفوهوا بكلمة أو يشيروا بإيماءة أو أن يحاول أحدهم القفز أو الهرب، لأنّهم سيطلقون النار على من يخالف هذه الأوامر. صمت الرجال، بعضهم جالس وبعضهم واقف لعدم اتساع المساحة لجلوسهم جميعاً. سارت السيارات في طريق ترابي مليء بالأحجار، تهتز أجسادهم مع اهتزاز السيارة حتى يكاد بعضهم يسقط على بعض.

وقفت السيارات أمام بوابة كبيرة مغلقة، عرف الرجال أنّهم وصلوا إلى المعسكر وذلك من أصوات الجند وحديثهم، ومن خلال الفتحات البسيطة في السيارة رأى حمود وبعض ممن كانوا واقفين معهم أنّهم أدخلوهم ساحة كبيرة في مكان به سور عالٍ، وفي المكان بوابة كبيرة جداً، على البوابة مدفعين وعدد من الحراس شاهرين بنادقهم.

- وصلنا المعسكر. قال حمود.

أشهر الجندي بنديته في وجه حمود ففزّ سيف واقفاً وأزاح حمود ووقف هو مقابل الجندي، تراجع الجندي وأنزل رشاشه، وعلّق قائلاً:

- قلنا لكم الكلام ممنوع.

غمغم سليمان وقال:

- حبّوتك.

ضحك الرجال، وأشار لهم الجندي بالرشاش مرة أخرى، فسكتوا.

سمعوا صوتاً من الخارج:

- STOP.

لم يفهم الرجال معنى الكلمة، لكنّ السيارة توقّفت تمامًا، ودخلت السيارات الأخرى ووقفت جميعها في صف واحد، ثم أُغْلِقَت البوابات فور دخولها. قفز الجنديان وفتحوا باب السيارة وأمروهم بالنزول، وأمروهم بالوقوف في صف واحد، قيّدوا أيديهم وصفّدوا أقدامهم. كان النهار قد انتصف حينما وصلوا، أحاطوا بهم، وأمروهم بالسير في حوش واسع محاط بسياح حديدي شائك، تحت الشمس وهم حفاة الأقدام على أرض حارة حارقة، ولثقل الأصفاد في أقدامهم كانوا يتحركون بصعوبة ويسيرون ببطء، منعوهم من الحديث حتى يؤذّن لهم، قال خلف حينما وجد الجندي يقيد يديه ويصفّد قدميه:

- تسمع منّي. موه تريدوا منا، ترانا ما قتلنا حدّ من جدودكم؟

رد عليه أحد العساكر:

- SHUT UP.

فهم خلف أن العسكري يأمره بالسكوت من نبرة صوته الغاضبة، اقترب ضابط أحمر اللون وأشار للعساكر الذين كانوا يحيطون بالرجال المنتظرين للأوامر أن يأخذوهم، فأخذوهم جميعًا وأودعوهم غرفة واحدة كبيرة، دون أن يعرفوا قضيتهم أو لماذا جمعوهم، لم يُحضروا لهم طعامًا وكان وقت الغداء قد حان، وأتى موعد العشاء ولم يحضروا لهم شيئًا:

- تسمع منّي، يريدوا يقتلوننا جوع. قال خلف.

ردّ عليه سيف قائلاً:

- الجوع ما يقتلنا، ولو باغيين يقتلونا، فرصاصهم واجد وجاهز، هذا تعذيب يا خلف.

جلس مرهون حزيناً في أحد الزوايا، فاقترب منه خلف:

- مالك يا مرهون مهنن وتفكّر، ما تشوفنا كلنا في الزريبة معك.

- أحاتي الدكان، أفكّر أن ما أحد يفتحه باكر.

- واخسارتك يا مرهون واخسارتك. قال سليمان.

ضحكوا من مرهون وقال خلف:

- تسمع مني «يموت البعير وعينه في الراكّة».

(52)

بات الرجال ليلتهم في السجن بلا طعام، وأصبحوا ببطون خاوية،
انتظروا وجبة الإفطار ولم يُحضروا لهم شيئاً، سأل أحد الرجال الجند
الواقفين أمام البوابة إن كان هناك من وجبة يبدؤون بها يومهم، لكن لم
يكن هناك من يردّ عليه، قال سيف ضاحكاً:

- ها ذلاً أصنام ما بشر، ولو حدثتهم من اليوم ألين باكر ما يردوا
عليك.

بعد قليل فُتح الباب وبدؤوا بإخراجهم فرادى، قال العسكري وهو
يشير إلى أحدهم أن يخرج:
- تحقيق.

لم يعرفوا ما حلّ برفاقهم ولا ما فعل بهم في هذا التحقيق، فكلّ من
أُخرج منهم لم يعد، فاستبدّ بهم الرعب والهلع والشكّ في أن من يخرج
يُقتل.

كان اليوم قد انتصف حينما نادى الجندي:

- حمدان بن عبيد.

قام حمدان الذي كان جالساً على أحد الزوايا، فغمز له خلف:

- تسمع منّي يا حمدان، آها وتفتها الرمانة.

ابتسم حمدان حتى ظهرت أسنانه المتفرقة عن بعضها وذهب مع
العسكري.

- ما تخاف من حمدان ولا تخاف عليه، حمدان رجّال. قال سيف
لخلف.

استطاع حمدان معرفة الوقت من معرفته بالشمس ووجهها على
الأرض ومستوى ظله وهو يسير حافيًا بقيوده ومحاطًا بجنديين في ذلك
الحوش الكبير غير المسقوف بأسواره العالية. أدخلوه غرفة فيها ضابط
وجندي يجلس أمامه في الكرسي المقابل، أصبح حمدان يعرف الضباط
من النجوم المعلقة على أكتافهم، فخلف كان يخبرهم عن الرتب
العسكرية، وكلّما رأى عسكريًا بلا نجوم على كتفه مازًا أو واقفًا سأله
عن رتبته، فيقول عبارته التي حفظوها:

- تسمع منّي، هذا شطفة جندي.

أجلسوا حمدان الذي كان متماسكًا رغم الجوع والتعب بجانب
الجندي في الجهة الأخرى.

كان الضابط الأحمر الطويل يتحدث بالعربية، فسأل حمدان عن اسمه
فأخبره، لكنه لم يمهل كي يكمل، بل أكمل هو عنه وأخبره اسم أبيه وأمه.

- أنت ابن عبيد وأمك زوردة، فما الذي يمنعك من الذهاب إلى
زنجبار؟ هل أنت سعيد بكونك خادمًا في بيت صالح بن ناصر؟

- من تتحدث عنهم أهلي، فهم من ربّوني، فتحت عيني على الدنيا
وما شفت غيرهم، وإذا سألتني عن زنجبار فأنا لا أعرفها ولا
أعرف أحد فيها، أنا ولدت هنا، في هذي الأرض في حارة الوادي،
وبيت صالح بن ناصر هو بيتي.

- ضحك الضابط من كلام حمدان ومن ردّه الذي لم يتوقعه:
- هذا شيء يعود إليك، ولكن لماذا ارتكبت جريمة قتل؟
 - جريمة قتل، من المقتول؟ أنا ما قتلت حد.
 - أنت متّهم بشنّ هجوم على المعسكر مع مجموعة من أبناء حارتكم، وقتلتم ثلاثة من الجنود ثم فررتم هاربين.
 - فغر حمدان فاه متعجباً من تلك التهمة التي يتهمه الضابط بها حتى بانّت تلك الفراغات الكبيرة بين أسنانه وتساءل:
 - وحدي ما عندي خبر، ولا أعرف هين معسكركم؟
 - في الليلة التي قصفتنا فيها البرج.
 - قلت لك ما عندي خبر، ولمّا قصفتوا البرج كنت أنا متعلّق في النخلة، أنا بيدار، وما أعرف أكثر من طلوع النخيل وخرافها وتحديرها.
 - ضرب الضابط المحقق الطاولة بيده وقال:
 - ردّ على قدر السؤال، وإلاّ علمتّك كيف ترد بأدب. «أنت ما في يأرف».
 - كان هناك شخص يترجم لحمدان بعض الكلمات التي لا يفهمها إذ إنّ الضابط رغم تحدّثه بالعربية لم يستوعب حمدان منه بعض المفردات بسبب اللكنة.
 - قلت لك ما أعرف، وما قتلت أحد، علّوه أنا بيدار وعلمي في المزرعة، سلاحي مجزّي ومخطّي.

- كيف تدّعي عدم معرفتك وأنت واحد منهم، لقد تم تنفيذ العملية في المساء بعد قصف البرج، أخبرني من أنتم وكم عددكم، ومن أعطاكم الأسلحة؟
- علوه وأبوي، ما أعرف شيء، أنا بغام، حتى اسأل حيّي عويذة وأتقول لك أني بغام.
- غضب الضابط فقام وشفع حمدان على وجهه صفعة كاد يسقط منها على الأرض، وقال له بغضب:
- تكذب وتدّعي الغباء! ألا تعرف أن الأمر لا يمكن أن يمضي دون عقوبة، أليس الإسلام يدعو للقصاص، السنّ بالسنّ والعين بالعين؟
- فأكمل حمدان:
- والبادي أظلم.
- إذن أنت لست غيباً كما تحاول أن توحى لي.
- هذي حفظتها من وأنا صغير وما أعرف غيرها.
- فقام الضابط مرة أخرى وشفع حمدان صفعة أخرى:
- هل تهزأ بي وبحديثي معك، سوف تنال جزاءك على ما فعلت.
- يصرخ حمدان بعلو صوته:
- علوه وما فعلت شيء، وما أعرف شيء.
- وفي أثناء التحقيق كان بطن حمدان يصدر أصواتاً من الجوع، ابتسم الضابط:

- لن نعطيك طعامًا ولا ماءً حتى تقرّ وتعترف بكلّ شيء.
لكن حمدان لم يعترف بشيء، وظل يكرر عليهم «أنا بيدار وما أعرف شيء».

نادى الضابط على الجنود الذين كانوا ينتظرون بالقرب من الباب، أخذوه إلى زنزانة انفرادية، تركوه وحيدًا جائعًا، وفي الليل أحضروا له شايًا بالحليب مع قطعة خبز يابس، وكذلك مع بقية السجناء الذين كان حمدان يسمع أصواتهم ولا يراهم.

في الحجز سأل حمدان أحد الحراس الذي أظهر تعاطفًا معه إن كان يعرف شيئًا عن صالح، فقال إنه لا يعرف عنه شيئًا، فمن يُؤخذ إلى سجن القلعة لا تُعرف أخباره.

- لا تستعجل، يمكن يأخذوك إلى هناك.
نظر إليه حمدان مندهشًا، إذ ربما سيأخذونه فعلاً إلى سجن القلعة، فاقترب الرجل منه وهمس في أذنه وقال له:
- ولكن نصيحتي لك يا حمدان، لا تعترف بشيء فعلته أو ما فعلته، احذر أن تعترف ولو عذوبك، ولا تصدّقهم، ترى بو هو رجال ما يعترف ولو على قصّ رقبتة.

قدّر حمدان ما قاله له الجندي الذي كان من سكّان إحدى المناطق الموالية للسلطان. ظلّ حمدان صامدًا، ورغم الإغراء والتعذيب الذي تعرّض له لم يعترف لهم بشيء، ومرّت عليه لحظات ضعف كاد أن

يعترف فيها بما فعل وما لم يفعل، فالفرصة قد أتت إليه ليذهب إلى صالح، ولكن منعه من ذلك خوفه على البيت الذي كلفه صالح بحراسته، والعائلة الصغيرة التي وصاه بها، فكّر في نفاة وناصر، ورأى أن صالحاً لن يكون راضياً عنه حين يجده بجانبه في السجن، فاعترافه ليس سوى حماقة.

اقتيد حمدان مرة أخرى إلى التحقيق، وحقّق معه هذه المرة محقق آخر لا يشبه المحقق الأول، فقد بدا لحمدان أكثر هدوءاً، وبعد فترة صمت قصيرة قال المحقق:

- اسمعني يا حمدان، أنا أعلم أنّ لك أصولاً في زنجبار، وأنك تكاد تكون مقطوعاً من شجرة هنا، ولست سوى خادم لصالح وعائلته، فما رأيك لو ساعدتك لتتخلص من كلّ هذا، وأنا أتكفل بذهابك إلى زنجبار، فهناك ستلتقي بأخوالك وعائلة أمك، أنت لست ابن المنطقة يا حمدان، أنت لا تنتمي إلى هنا، عد إلى جذورك.

- تو موه يقول هذا الرجال؟

- يقول إنك زنجباري. قال له العسكري الواقف هناك.

- هلكتوني، زنجبار وزنجبار، أنا ما زنجباري، قلت لكم أنا ولد حارة الوادي، مولود فيها وما عندي بلاد غيرها، هذي بلادي.

- هذا ليس صحيحاً يا حمدان، أنت غريب وإن ولدت على هذه الأرض.

لم يردّ حمدان على الضابط بشيء، بعد لحظات أحضروا طعام الغداء وكانت رائحته تملأ أجواء الغرفة، أحضروا ماءً باردًا وتركوه في مكان مقابل لحمدان، نظر إليه المحقق:

- أمامك الطعام الشهى والماء البارد، أمامك الفرصة لأن تتخلص من عبوديتك، فقط أخبرنا بما تعرف ولن تُؤذى.

غضب حمدان، وقد اتسعت فتحتا منخريه وتصبّب العرق من صدغيه، وما كان غاضبًا في حياته كغضبه ذاك:

- أنا ما عبد، هلكتوني، قلت لكم ألف مرة، قلت لكم أنا تربيت معهم وفي بيتهم، هم أهلي وعائلي وما عندي عائلة غيرهم، وقلت لك ألف مرّة وفوقها مرّة أنني ما فعلت شيء ولا قتلت أحد، يومي يبدأ تحت النخيل وينتهي فوقها، وما أعرف شيء غير النخيل، ولو سألتني عنها كنت خبرتك، ولكن ما تسألني عن شيء ما أعرفه.

نادى الضابط على الجندي الواقف على الباب، وقال له مشيرًا لحمدان الذي كان متعبًا:

- اتركوه في الزنزانة حتى يطلب هو الاعتراف.

(53)

تتناقل الألسن خبر وصول خصيف، يستبشرون بوصوله كهلال عيد قد هلّ، يطير الخبر سريعاً، يصل إلى مسامع عويذة التي كانت تنتظره كما ينتظره غيرها، الحارة كلها في انتظاره خصوصاً النساء، فهو يغيب فترات طويلة لكنّه يعود، تفرح النساء بقدومه وكذلك الأطفال، تُفتح الأبواب دون أن يجد الرجال أيّ حرج لدخوله بيوتهم حتى في غيابهم. ويصبح خبر وصوله في أفواههم بمذاق حلوى ساخنة، الجميع يترقب وصول خصيف في وقت غير محدد، فخصيف ليس له موعد، ليس له زمان، وليس له مكان، فهو يأتي متى يشاء، ويرحل متى يشاء، ويجلس حيث يشاء، فهو ابن الجميع، ويحبّه الجميع ويكرمه.

خصيف ليس غريباً عن البلاد وأهلها، وفي نفس الوقت لم يعد مقيماً بها، وحين يصل فهو مُرحّب به، ويُعتَبَر محظوظاً من يلتقيه أولاً ليستضيفه في بيته، ثم يبدأ بالتنقل من بيت إلى بيت أكلاً شارباً نائماً حتى ينتهي من زيارة كلّ البيوت، أو بانتهاء البضاعة التي أحضرها معه، وما من بيتٍ إلا ويجد فيه ترحيباً واستقبالاً يشبه استقبال الأهل لابنهم العائد من غربة. ولم يكن خصيف يحمل همّاً لطعامه أو شرابه ما دام قد وصل حارة الوادي، ففي كلّ بيت يدخله يأكل مع أهله ومن مائدتهم، وقد يتناول الفطور في بيت والغداء في بيت والعشاء في بيت آخر، يدخل كلّ البيوت

بلا استثناء، لا يترك بيتاً إلا ويدخله، كيف لا وكلّ الأبواب مشرعة أمامه، وكلّ من في الحارة في انتظار وقت وصوله، صغيرهم وكبيرهم، وفي كلّ عودة تكون لديه بضاعة جديدة لم ترها نساء الحارة من قبل، فخصيف تاجر الحارة المتجولّ، الذي يأتي للنساء بأجمل أنواع الأقمشة والعطور والعقود والأساور والخواتم والمرآود والكحل والخرز والمزارد والأمشاط الخشبية، ويأتي للصغار بألعاب صغيرة نادرة.

يضع خصيف بضاعته في إزار واسع يعقده ويحمله على رأسه، بضاعة يأتي بها من مكّة وأماكن وبلدان أخرى لا يحفظ أهل الحارة أسماءها رغم أنّه يحدثهم عنها دائماً، فقط العجوز صبيحة هي من تحفظ تلك الأسماء الغريبة المبهمة التي يقولها. وكلّما دخل بيتاً تراكض الأطفال نحو أمهاتهم:

- خصيف جاي وجايب قنحه معه.

تضحك الأمهات بفرح يغلب فرح صغارهنّ، فخصيف بلا شواله لا يهتمهنّ في شيء، وكلّ أهميته وقيّمته في ذلك الشوال، أو القنح كما يسميه أهل الحارة، الذي يحمله على رأسه ويدور به بين البيوت، يتحلّق الأطفال حوله متطلّعة عيونهم إلى ما يخبئه في شواله، منتظرين مترقبين اللحظة التي يفتحها فيها. وما إن يجلس يأخذ الأخبار والعلوم من نساء البيت حتى يفرش شواله على الأرض ويفتحه عارضاً سلعته بعد أن يرتبها بشكل أنيق في أكوام صغيرة، كلّ بضاعة منفصلة عن غيرها.

بعض النساء لا تطيق صبراً حتى يصل إليهن في بيوتهن، فيأتين إليه باحثات عنه حيث يكون، خشية نفاد السلعة التي يحضرها، وحتى لا تسبقهن الأخريات في الحصول على البضاعة الأجمل، فهناك بضاعة لا يحصل عليها إلا من يلتقيه أولاً، اسمها بضاعة البشارة، وهناك بضاعة لا يحصل عليها إلا أصحابها الذين أوصوه بها، وهناك بضاعة يخص بها بعضاً من النساء دون غيرهن، فهو يعرف كل امرأة وما تريد، وكل امرأة وما يناسبها من نوع القماش ولونه ومن نوع العطر ورائحته، أو حتى الخواتم والأساور، فكنّ يستشره ويشير عليهنّ، فهذا الخاتم لا يناسب يد هذه المرأة، وذلك الخاتم يناسبها. تثق النساء به وبذوقه، فخصيف يعرف ما لا يعرفه عن فنون الزينة وألوان الثياب ونوع العطور وروائحها، وما يحبه الرجال في النساء.

يتراكم الأولاد نحوه، يجرونه من يده بطلب من أمهاتهم حتى يصل إليهنّ قبل غيرهنّ، رغم تأكيده لهنّ أنّه أحضر كلّ ما يشتهينّ وما أخبرنه عنه في زيارته السابقة، فهو لم ينس طلباتهنّ.

وصل خصيف هذه المرة، ولكنه لم يجد من يستقبله الاستقبال المعتاد، ولم يجد أهل الحارة في انتظاره، فالحارة غارقة في حزنها وصمتها، حتى أنّه دخل من بوابة الحارة ولم يشعر بدخوله أحد، كان مدخل الحارة خالياً من الجالسين عليه، عرف خصيف بما حدث، وعلم أنّ الحارة قد قُصفت، وأنّ منهم من قُتل، ومنهم من فرّ إلى الجبل، وأنّ

أغلب الرجال في السجن، ولكن مع ذلك، فتحت له البيوت الحزينة أبوابها، لعلّ الفرح يدخل معه، ولعلّ ما لديه يغسل الهم والحزن من القلب، ولعلّهم ينسون أوجاعهم بوجوده بينهم. دخل أول بيت وجده مفتوحاً أمامه، وقبل أن يسأل أخبروه بتفاصيل ما حدث، فتألم بألمهم، ودمعت عينه، ودعا الله أن يفرّج أزمته وتنتهي هذه الحرب اللعينة التي قضت على الأخضر واليابس.

يسير خفيف في دروب الحارة الحزينة، يحمل شواله المملوء بالبضائع، يركض الصغار وراءه:
- خفيف جاب قنحه.

يبتسم لهم ويواصل سيره، سعيداً بعودته إلى أصله الذي كان يخجل منه، إلى بلدته التي هرب منها، إلى الناس الذين احتقروه وآذوه، لكنهم ما عادوا كذلك الآن، فبعد أن كانوا يغلقون الأبواب في وجهه ويضربون أبناءهم إذا اقتربوا منه، أصبحوا يفتحون له بيوتهم، يستقبلونه كما يستقبلون عيداً حلّ عليهم، فسبحان الله مغيّر الأحوال.

في هذه الحارة يعود خفيف إلى نفسه وتاريخه وحقيقته، يتصالح مع أوجاعه وجراحه، ولا يختبئ تحت اسم مزيف، وحكاية كاذبة عن أصل ليس له وحكايات لا تشبهه، كما هو حاله في تلك البلاد الغريبة، فالجميع في حارة الوادي يعرفونه، ويعرفون من يكون وإن كانوا لا يتحدثون عن

ذلك، ولا يذكرون شيئاً أمامه، فما عاد يهَمُّ أهل حارة الوادي من هو خصيف بقدر ما يهَمُّهم ما يحضره لهم من بضائع جديدة، وما يحدثهم به من حكايات غريبة عن تلك البلدان التي يذهب إليها، وعن عادات أهلها وتقاليدهم ولباسهم، وكأنَّه يحكي لهم عن عالم مسحور أو شيء من ممالك الجن. ما عاد أحد يعيِّره بنسبه، وكأنَّ ما حدث قد تمَّ نسيانه، لكنَّ خصيف يعلم أنَّ لا أحد ينسى في هذه الحارة، وإن تناسوا فبسبب ما يحضره لهم.

ورغم حبِّه لحارة الوادي كان يعلم أنَّه وحيد فيها، ولكنَّه ليس غريباً عنها، فهو ابن البلاد مهما قيل؛ فهنا في هذه الأرض تموت الغربة، وتنتفي كلُّ أسباب الشتات الذي يعيشه في تلك البلدان التي يزورها ويعبرها كغريب؛ ورغم أنَّ كلَّ بقعة في هذه الأرض له فيها ذكرى موجهة، فإنَّ عليه أن يواجه تلك الذكريات، فالذكريات المؤلمة تظل تؤلمه وتطارده ما لم يخرج لها لسانه ويكشِّها بعيداً. لقد أصبحت كلُّ هذه البيوت بيته حتى تنقضي فترة زيارته للبلاد، يرى دهشة الأطفال الصغار الذين يتعجبون من وجوده العابر ومن محبة الجميع له واعتباره واحداً منهم، يخالط الرجال والنساء، ولا تخجل النساء من الاقتراب منه والجلوس معه، وحتى مصافحته باليد دون حاجز أو حجاب، وكأنَّ وجوده أشبه بلغز لمن يجهل حكايته.

يتنهد خصيف وهو يرى أحد الأطفال يمرّ من أمامه ويسلّم عليه:

- عمّي خفيف كيف حالك؟

فيتذكّر الأطفال قديماً وهم يركضون خلفه ويرمونهم بالحجارة ويحاولون الاعتداء عليه، يتذكّرونهم وهم يرفعون ثوبه ويتلمسون جسده وهو يبكي ويهرب منهم، يتساءل إن كان هؤلاء الأطفال الذي يمرون أمامه الآن يعرفون حقيقة أم يجهلونها، ربما حدّثهم أهلهم عنه، لكن ذلك لا يهمّ، فكم حاول أن يتعد ولا يعود، وكم حاول نسيان حارة الوادي ونخيلها وفلجها وحروبها وجوع أهلها وفقرهم، فلم يستطع، فمهما أخذته الدنيا في مشرقها ومغربها لا تحلوه أرض غير هذه الأرض، فجدوره مغروسة في تربتها، وهناك جاذبية وسحر تشدّه نحو الجذور وتعيده إليها.

وكلّما سأله أحدهم مازحاً عن سبب عودته إلى هذه الحارة التي هرب منها ذات ليل، ردّد بيت الشعر مُلحّناً:
كم منزل في الأرض يألّفه الفتى
وحينئذٍ أبداً لأول منزل
فيتعجبون من رده.

يسير والذكريات تسير معه. لم ينس تلك الليلة التي قرّر فيها الهروب من البلاد، وكان قد بلغ سبعة عشر عاماً، صبيحة وحدها من كانت تعلم عنه وتعلم عن هروبه، لكنّها هي أيضاً لا تعرف أين ذهب، فهو لم يكن يعلم أين سيذهب حينما أخبرها بقراره بعد أن أخبرته حقيقة وحكايته. كم ترّدّد عليها سائلاً إياها عن حكاية أمه فترفض إخباره احتراماً للفقيده

كما كانت تقول له، فحرام نبش أسرار الأموات، ولكن لا أحد يعلم الحقيقة كما تعلمها هي، فأُمُّه قد ماتت ودُفِنَ سرّها معها، وصبيحة وحدها القادرة على نبش المدفون في القبور، وما كان سيعلم الحكاية لولا أنّها أخبرته بعد أن أصرّ عليها وجلس على باب بيتها رافضاً المغادرة، وبعد تردد طويل حكّت له الحكاية، وليتها لم تخبره وليتها لم تحك.

(54)

بعد أيام من مجيء خصيف سمع أهل الحارة صوت سيارة قادمة من صوب الوادي، أسرع البعض باتجاهها لمعرفة ما يحدث، فنزل منها عدد من الرجال الذين كانوا محتجزين، من بينهم حمود ومبارك. استبشر أهل الحارة خيرًا ووجدوا في قدوم خصيف خيرًا وبركة، فخصيف رجل مبارك كما قالت الأمهات. رجعت السيارة في طريقها مخلفة غبارًا كثيفًا في وجوه وملابس الواقفين من أهل الحارة، وركضت النساء لاستقبال أطفالهن وأزواجهن.

تساءل أهل الحارة عن مصير الرجال الذين لم يعودوا، ولكن لا أحد يعرف عن أحدٍ شيئًا، قالوا إنَّهم عَزَلُوا بعد التحقيق معهم وأغلق عليهم في غرف منفردة. أثار ذلك الغضب في نفوس الأهالي وزادهم تصميمًا على المقاومة، فالحرب بالنسبة لهم أصبحت ثأرًا وانتقامًا لأهلهم الذين قُتِلُوا وسُجِنُوا وعُذِّبُوا، فلن يجلسوا مكتوفي الأيدي أمامهم، هذه حربهم وهذه قضيتهم، كما قال أحد كبار السن الذي كان في استقبال المُفْرَج عنهم. ومع هذه الظروف التي تمر بها الحارة تحوّل الجميع إلى أسرة واحدة وبيت واحد، فقد وحدهم الفقر والجوع والحرب والموت، ولم تعد الحياة تحتل أن يفكر الإنسان في نفسه فقط، فكانوا يتقاسمون اللقمة ورغيف الخبز وجرعة الماء، زاد ترابطهم وتآلفت قلوبهم، ونسوا

ضغائنهم الصغيرة، واشتعلت نار الثأر والثورة في أرواحهم، ولم تكن قد خمدت، نشطت خلايا المقاومة، عاد بعض الثوار من عقبة النسور ومن الثغور إلى الحارة، شكّلوا فرقاً لتعليم الأطفال الرماية والدفاع عن النفس، وكذلك النساء تدرّبن كيف يدافعن عن أنفسهنّ، فلا شيء يؤتَمَن في هذه الحرب. واجتمع أهل الحارة ليقروا ما هم فاعلون، فإن استمر الوضع على ذلك فسيُفَنوا الحارة عن بكرة أبيها، وكان لا بدّ من رأي حكيم وقرار حاسم، وبعد صلاة العصر اجتمع فيهم المعلّم خلفان وشاوروه في الأمر، قال بعضهم:

- نقاتلهم.

وقال آخر:

- نتربص بهم.

وقال آخر:

- نستمر في زراعة الألغام.

وقال آخر:

- نهجر الحارة ونسكن الجبل ونكون في جوار الإمام وحمانيته.

وقال شيخ كبير من بينهم:

- كل ما قيل لا يملأ محارة ولا يقلع عين جرادة، فنحن ما نملك

سلاح نحاربهم، ومن فترة ونحن في حصار، وما عندنا ألغام

نزرعها، يا جماعة نحن ما عندنا شيء، وعيّت بنا الحيلة، فاسمعوا

قول المعلم خلفان عسى عنده شيء فيه فائدة.

تنحى المعلم خلفان وقبض على لحيته:

- الرأي يا جماعة أن نرسل رسولا إلى الإمام ونبلغه بما حدث،

فعسى أن يمدنا بقوة من عنده أو يرسل أحد من جيشه، فالحالة

لدينا صعبة، ونحن لا قوة لدينا للقتال ولا حيلة لنا على المقاومة.

وافق المجتمعون رأي المعلم خلفان، لكي يعلم الإمام بما يحدث في

السهل وحارة الوادي على وجه الخصوص، وما آلت إليه الأمور، اختلفوا

فيمن سيذهب منهم لمقابلة الإمام، فاستقر الأمر على أن يذهب أحد كبار

السنّ ومعه أحد الأولاد، فحتى إذا صادف الجنود فلن يشكّوا في أمره، فلا

الشيخ يرجى منه قتال ولا الولد، فكان الولد حمود والشيخ المعلم

خلفان، صُعب حمود من اختيارهم له رفيقاً للمعلم خلفان، لكنّه وجد في

الأمر متعة ومغامرة، ووجد في ذلك تقديرا من الجماعة له واحتراما رغم

صغر سنّه، وما زاده فخرا قول المعلم خلفان:

- حمود، نِعَمَ مَنْ اخترتم، رجال ولو كان صغير في العمر.

وحينما أخبر حمود أمّه رفضت في البداية ومنعته من الذهاب، لأنّه لم

يمرّ يوم على خروجه من السجن، وأبوه ما زال محتجزا معهم، لكنه أصرّ

على ذلك، فهو رجل ومن العيب أن يرفض لأنّ أمه خائفة عليه، ولم

يُسجّن لتهمه أو جرم قام به، حتى إنّهم لم يحققوا معه، بل لامهم الضابط

حين أحضره ومبارك مع بقية الرجال إلى المعسكر، رضخت زهرة بعد أن استخارت الله في صلاتها، واطمأنت لوجود المعلم خلفان معه.

وفي الليل وبعد أن نام الجميع وفي غفلة من العيون، ذهب حمود والمعلم خلفان إلى الجبل الأشم لإبلاغ الإمام المتحصن هناك مع الثوار والمشايخ، وسار حمود بالمعلم خلفان طرقاً ودروباً لم تخطر على بال المعلم خلفان، فتعجب منه إذ كيف يعرف كل هذه المجاهل وهذه الدروب، فحدثه حمود عن المغامرات التي كانوا يقومون بها بعد خروجهم من المدرسة، ضحك المعلم خلفان منه وقال:

- إذن سأحبسكم في المدرسة حتى لا تخرجوا وتسرحوا في الفلوات. اكتشف حمود في المعلم خلفان في تلك الرحلة والرفقة وجهاً آخر غير وجه المعلم الذي يعرفه، فكان أباً حنوناً ورفيقاً متحدثاً حكماً لا يمل من سرد الحكايات، وخصوصاً عن تاريخ حارة الوادي والرجال الشجعان الذين كانوا فيها. عرف حمود في تلك الرحلة الكثير من الحكايات والأخبار التي كان يجهلها، وعرف عن ناصر بن حمّد الذي كان أشجع أهل زمانه، ويعدّ حتى اليوم مثلاً بين القبائل وفي البلدان، فقال المعلم خلفان بحسرة ووجع:

- لو كان ناصر بن حمّد موجود ما وطئ حارة الوادي جندي واحد من جنود الإنجليز.

- لكنه مات مقتول؟

- نعم يا حمود، مات مقتولاً.
- وكيف بشجاع مثله يُقتل؟
- قتلته شجاعته.
- كيف ذلك؟
- الشجاعة يا ولدي قاتلة أيضاً، فالشجاعة تخلق الخصوم والأعداء، وقد كان ناصر بن حمّد شجاع شجاعة ما خلقت لرجل من قبله ولا من بعده، لقد لحقت عليه ورأيتُه وعاشته قبل موته، نظرة منه يا ولدي تهزّ جبال، كان رجلاً غريباً في طباعه وصفاته، معتزلاً في غير بُعد عن هموم الحارة وأهلها، محبوباً ومُهاباً، ولكن رغم محبة الجميع الظاهرة له، كان هناك من يكيد له في الخفاء، فسمعة ناصر بن حمّد وصلت أقاصي البلاد، وما كان أحد يعلم ما يفعل ولا أين يذهب، ولكن كما قيل إنّ له صلات مع كبار القوم في مناطق أخرى، وقد كثرت الأقاويل عن شجاعته، فكان حديث المجالس، وقدوة الرجال، وقد خشي المشايخ في الجبل وما حولها منه ومن صيته ومن شجاعته، يقال يا ولدي، ولعلّ ذلك الأقرب إلى الحقيقة، أنّ من قتله «منهم وفيهم»، ولا تدري ما هي الإغراءات التي قدّمت للقاتل.
- من هو قاتله؟
- قلت لك يا ولدي «منهم وفيهم».
- اقرب المعلّم خلفان من حمود وكأنّه يخصه بسرّ:

- يا ولدي دارت حول ناصر بن حمّد الكثير من الحكايات، وقيل إنّ له أتباع من الجنّ والإنس، ويقال إنه كان يدرّب جيشاً في الخفاء، ولكن كلّ ذلك أقاويل مثل ما قلت لك والعلم عند ربك. ذهب ابن الليل وذهبت أسرارته معه، وبقيت سيرته نحكيها لكم، وتحكوها لأولادكم.

ظَلَّ حمود صامتاً مستمعاً لحكايات المعلّم خلفان، مفكراً في شخصية ناصر بن حمد، وقد زاد ذلك حمود حماسةً. تخيل نفسه بطلاً محارباً كناصر بن حمد، تخيل نفسه ممتطياً حصاناً راكضاً به في تلك البراري والسيوح، يُدرّب جيشاً ويقوده، حاملاً أكثر من بندقية على كتفه، قاتلاً كلّ من يقترب من بوابة الحارة، فاعلاً بهم الأعاجيب، أخذته الأحلام بعيداً فرأى نفسه حيث يريد، حين ينقذ حارته وأهله وأباه وأعمامه، «وبو في شاربته خير يتقرب من حارة الوادي». يتسم حمود لنفسه منتشياً وهو يعيش تلك اللحظة وكأنّها حقيقة، كاد أن يقع على الأرض بعد أن ارتطمت قدمه بصخرة، فانتبه إلى أنّه ما زال يسير مع المعلّم خلفان.

وحين وصل المعلّم خلفان وحمود إلى الجبل، قادهما الثوار إلى الإمام. وجد حمود في الإمام رجلاً متواضعاً لا يختلف عن بقية الرجال المحيطين به في شيء إلا في تقديرهم له ومنزلته بينهم كما يدلّ من تعاملهم معه باحترام كبير، وقد عرّف المعلّم خلفان الإمام بحمود، وأخبره أنّه ابن أحد الثوار الموجودين حالياً في السجن للتحقيق معهم، رحّب بهم الإمام واستمع إليهم. وفي اليوم التالي بعد منتصف الليل شدّوا

الرحال نازلين إلى السهل، أرسل الإمام معهم مبعوثاً، وبعد أن أدى واجب العزاء في الشهداء الذين قُتلوا، اجتمع بالرجال في أحد البيوت، وخطب فيهم وأثنى عليهم وعلى تضحياتهم وإصرارهم على نصرة دين الله وتمسكهم بما عاهدوا الله عليه، ووعدهم بإحضار أسلحة من الجبل، كما قال لهم إنَّ الإمام سيسعى جهده للتفاوض مع السلطان وجيشه للإفراج عن المسجونين من رجال الحارة.

بعد أيام من زيارة مبعوث الإمام إلى حارة الوادي أفرج الجيش عن بقية الرجال المحبوسين وحمدان من بينهم، قالوا إن الرصاصات التي قُتل بها الجنود لم تتطابق مع الأسلحة التي صادروها من الأهالي، لكنَّ الأهالي يعلمون أنَّ ذلك غير صحيح، فلم يُفرج عنهم إلاَّ لأنَّ شيخ الجبل وشيخ الشراقي تدخلوا في الأمر، وتفاوضا مع قادة الجيش.

أُفرج عن حمدان مع من أُفرج عنهم، استقبلته عويذة بفرح. ليس عجيباً أن تفرح بعودته كفرحتها بعودة ابن لها، وليس غريباً على حمدان أن يرفعها إلى منزلة الأم في قلبه، فيحتملها حين تقسو عليه في بعض الأحيان، لكنَّه يفخر ببأسها وشجاعته، وخصوصاً حين كانت تغضب على أولئك الأطفال الذين كانوا يعتدون عليه ويهزؤون به وهو صغير، فتشكوهم إلى أهلهم، حتى أصبحوا يتجنبون زعل حمدان خوفاً من غضب عويذة، وحين كبر علّمه صالح فنون القتال والقنص حتى أصبح

قادرًا على الدفاع عن نفسه، فكانت هيئته من هيئة صالح الذي ما كان يخبئ عنه شيئًا، ولا يخفي عنه سرًّا، وكأنَّه يعدُّه لمثل هذا اليوم، لأن يكون حارسًا لأسرته وحاميًّا لها.

حمدت عويذة ربَّها أنَّ حمدان عاد سالمًا، ولم تسأله إن كان قد فعل شيئًا في تلك الليلة بعد موت خديجة أم لم يفعل، رغم يقينها أنَّ حمدان قد فعلها ولم يفعلها غيره، وأنَّ من أثار الخوف فيهم كان هو، ولكن ليس حمدان من يتحدَّث عمَّا يفعل، وليس هناك من يعرف حمدان وشجاعته وجسارته كما تعرفه عويذة.

(55)

حَبِيبَةُ الخادمة، هكذا كانوا يطلقون عليها، اشتراها الشيخ منصور في عمر صغير من منطقة بعيدة لتخدم في بيته وتساعد زوجاته، كبرت حَبِيبَةُ في بيت الشيخ، لاحظ أهل الحارة انتفاخ بطنها، فعرفوا أنَّها حامل، ضربتها زوجة الشيخ كي تقرّ وتعترف باسم الرجل الذي حملت منه، وسمتها بالنار في ساعديها ووركها لكنّها لم تقرّ بشيء، فعزلتها في غرفة ومنعتها من الخروج. تساءل أهل البلاد عمّن تسبب في حملها، هل هو أحد البيادير أو الجيران أو الخدم أو أحد أبناء الشيخ؟ انتشر الخبر في البلدة والبلدات المجاورة انتشار النار في الهشيم، ومع الفضيحة التي لم تختبئ اتَّفَق الجميع على جلدها لكونها غير متزوجة، لكنّ الشيخ رفض واعتبرها أُمّة في بيته وتحت حمايته، وأنّه وليُّها ومسؤول عنها وعن الطفل الذي ستنجبه، ولا يحقّ لأحد أن يلحق بها أذى أو يسألها عن حملها، مما أدار الشكّ في رؤوس أبناء الحارة أنّ الشيخ نفسه هو أبو الطفل القادم من خادمته. وحينما حانت ولادتها ولدت في بيت الشيخ الذي توعدّ من يؤذيها أو يسيء إليها بالعقاب. غضب أهل الحارة من أن تكون بينهم زانية وأن يكون بين أطفالهم (غبن) وابن حرام، وأرادوا طردها من الحارة حين لم يتمكنوا من جلدها، لكنّه وقف لهم معلناً أنّه سيربي ابنها بين أبنائه، فراجع الجميع عن قرارهم وتركوها لشأنها.

راود الجميع الشكّ في أن الشيخ يحب خادمته، وأن الولد من صلبه، ولا يتجرأ بالاعتراف به خوفاً من الفضيحة والعار، ولكنّ الفضيحة لبسته ويعرفها الجميع ويتهامسون بها، إلّا خصيف الذي ظلّ يتيمًا مطرودًا منبوذًا من الجميع، لا يعرف له أبًا ولا عائلة، وقد ماتت أمّه ولم تخبره إلّا أنّه يتيم مات أبوه قبل أن تأتي هي إلى حارة الوادي، وكان كلّما سألها لماذا يعايره الأطفال ويقولون له الغبن؟ تقول له: لا تصدّقهم، كلهم يكذبون، والصدق فيما تقوله له، ولا شيء غيره.

بعض أهل الحارة يعرفون الحقيقة، حتى أولاد الشيخ لا يستطيعون إنكارها، فخصيف يشبه الشيخ شكلاً وإن كان لون جلده أذكى، وما كان أحد يجرؤ على الوقوف في وجه الشيخ حتى أولاده وزوجاته، فالشيخ كما هو في أعين الناس وكما يعرفونه كان مصلّيًا وصائمًا وحاجًا ومزكّيًا، وما كان يرضى أن يقترب من الحرام في شيء إلّا في هذه النقطة، وله في هذا حُجّته المستندة إلى ولايته لها.

يذكر خصيف ما قالته العجوز صبيحة كي تخفف عنه ألم الحقيقة:

- هذا بينه وبين ربّه يا خصيف، لكنها كانت حبيبة وهي حبيبة، أمك كما يوصفوها وإن كانت سوداء لكنّها جميلة، عنها كما عين غزالة في وسعها، ما كان يعيها طول ولا قصر، ولا سمّنة ولا هزال، سبحان من خلقها وسبحان من صوّرها، وأنا ما ألوم الشيخ يوم غرق في محبّتها.

عرف خصيف بعد موت أمّه حقيقته، كما أسرت إليه العجوز صبيحة بكل شيء، وعرف أنّ أمّه حملت سفايحاً مرات عديدة قبل أن تحمل به، لكنّها كانت تُسقط حملها بإيعاز من الشيخ عن طريق إحدى النساء، وقد حملت بعد ولادتها بخصيف وأجهضت أيضاً. أخبرت العجوز صبيحة خصيف أنّه لو بقي كلّ من حملت بهم حبيبة لكان لديه إخوة، لكنّ الشيخ منصور (رحمة الله عليه) ما كان يريد أولاداً لا يستطيع أن ينسبهم إليه، ولكن أراد الله أن يأتي خصيف إلى الدنيا، وبُثبت في رحم أمّه ولا يسقط رغم كلّ المحاولات لإسقاطه، كما أنّ الشيخ هجر زوجته من شدة تعلّقه بخادمتها وحبّه لها، وهي بادلته عشقاً بعشق، وكانت مخلصه له، فإذا حاول أحدهم الاقتراب منها سبّته وأنشبت أظافرها في جسده، وقد عاش خصيف معها تحت كنف الشيخ وربّاه مع أولاده، يمنحه ما يمنحهم ولا يبخل عليه بشيء، يأكل ويشرب معهم، لكنّ إخوته عاملوه كخادم لهم.

مات الشيخ منصور وعمر خصيف سبع سنوات، ولم تبق حبيبة وابنها في بيت الشيخ بعد موته طويلاً، فقد طردتها زوجته الأخيرة بعد أن أذاقتها المرّ. لكنّ الشيخ منصور كان قد ترك لها مزرعة صغيرة قبل موته بعقد موثّق بصيغة بيع وشراء، فساعدتها أهل الحارة على بناء عريش فيها، عاشت فيه هي وابنها حتى ماتت.



استعادت البلاد عافيتها بعد عودة الرجال من الحجز، وفتحت البيوت أبوابها بفرح أكبر وأوسع لاستقبال خصيف لعرض بضاعته، تقلّب النساء البضاعة لاختيار ما تشاء منها، فالبضاعة التي يُحضّرها خصيف لم تكن موجودة في سوق الحارة، وكان دكان واحد فقط يبيع الأقمشة التي غالبًا ما يشتريها الرجال لنسائهم في مناسبات الأعراس أو العيدين، فيُقمنَ بخياطتها في البيت، فالنساء لا يذهبنَ إلى سوق الحارة لأنّ الذهاب إلى السوق مقتصر على الرجال، وما دخلت امرأة السوق إلّا للضرورة، فذلك يُعتبر نوعًا من المخالطة غير المحمودة.

كانت بضاعة خصيف مطلوبة، وتنفد في أيام قليلة، حتى مرهون نفسه صاحب أكبر دكان في الحارة لم يكن ينافس خصيف في نوع البضاعة التي يبيعها، ولا يستطيع أن يحصل عليها، لذا ما كان مرهون يحب خصيف، وإن تحدّث عنه أو تطرق إلى ذكره قال إنّه يبيع بضاعة مسروقة، رغم أنّه يشتري منه أيضًا ويوصيه بمنتجات يحضرها له، وخصوصًا المكاحل والمراد التي يخزنها مرهون ثم يبيعها بسعر أغلى من سعر خصيف.

لخصيف رائحة عطر فوّاحة لا تُشمّ إلّا فيه، فإذا مرّ من طريق تظّل رائحته عالقة بالدرب الذي عبره، وكلّما دخل بيتًا كانت رائحته تسبق حضوره، وكثيرًا ما تسأله النساء عن العطر الذي يستخدمه، فيخرج لهن قارورة بها عطور مخلّطة، فيشتري من نفس العطر الذي وضعه في قوارير صغيرة وبأحجام مختلفة، ولكلّ عطر اسم خاص به، فهناك عطر بنت

السودان وعطر بنت السلطان وعطر مكة.... تقول له زوجة مرهون الثانية
مازحة:

- كأنك تكذب يا خصيف، أنا اشتريت منك العام الماضي نفس
العطر بو قلت أنك تتعطر به، وكل يوم كنت أتعطر منه ولكني ما
شميت هذي الرائحة بو أشمها فيك وفي ثيابك.
- يضحك خصيف حتى بانث صفة أسنانه البيضاء كحبات لؤلؤ منتظم:
- يا حيّي ترى جسم عن جسم يختلف، الأجساد تحدد رائحة العطر،
هناك أجساد يثبت فيها العطر وأجساد ما يثبت فيها ولا تظهر
رائحته.
- ومو يعنيه هذا الكلام، يعني تريد تقول أن جسمك أنت يا خصيف
يثبت فيه العطر؟
- ما قلت كذاك، ولكن هناك سرّ، وإذا بغيت تعرفيه أخبرك عنه.
- خبرني يا خصيف.
- اقتربي، ترى هذا السرّ ما يقال قدام أيّ أحد.
- اقتربت المرأة منه وهمس في أذنها:
- استخدمني العطر بعد ما تتسبحي، خذي منه بطرف صبعك وادهني
وراء أذنك ورقبتك ومعصم يدك، وبعدها أشعلي الجمر في
المبخرة وتبخّري، ولكن ترى ما أيّ بخور.

تنصت له المرأة باهتمام، وتحاول شريكاتها سماع ما يقوله لها، لكنّها تحرص ألا يسمعن ما يقول فتسأله بهمس:

- أي بخور يا خصيف؟
 - هذا بخور خاص أشترته من مكّة، وما أبيعّه إلا للخاصّين والغالين بس، صح غالي شوية، ولكن يستحق قيمته.
 - الشيمة أريد من هذا البخور، ولكن خفّض القيمة، ما عندي فلوس، مرهون قابض عليها البيسة وأنت تعرفه.
- ابتسم خصيف:

- ولا يهملك، أبايعك منه وأخفّض السعر، وأنا طالع من البيت أناولك إياه في يدك، بس جهزي فلوسك، تراه هذا ما فيه صبر. ولكن لا تخبري شريكاتك عنه، تبخري منه في الليلة لمّا يكون فيها مرهون معك واتدعي لي.

ابتسمت المرأة وكأنّها حصلت على ما لم تحصل عليه شريكاتها، ولم تكن تعلم أنّ خصيف يقول نفس الكلام الذي قاله لشريكاتها ولنصف نساء الحارة، ولكن لا تخبر إحداهنّ الأخرى، وكأن كلّ واحدة منهنّ قد فازت بوصفة خصيف السرية ولا يعرفها سواها، وحين خرج خصيف من عندهم رافقته المرأة حتى الباب، فدسّ في يدها صرّة البخور ودسّت في يده القروش.

(56)

لم تنم نَفَافَة طوال الليل من وجع في ضرسها، وعلى ضوء السراج رأت عويذة أنّ السوس قد نخر الضرس وأحدث فيه فجوة، ولعلّ ذاك ما كان يسبب لها الوجع. وضعت عويذة في الضرس المعطوب زيتًا ساخنًا، وحشته بحبة قرنفل، لكنّ الوجع لم يخفّ، ولم تنم نَفَافَة ولا جدّتها في تلك الليلة، وفي الصباح كان خدها الأيمن منتفخًا. ذهبت عويذة إلى العجوز صبيحة وأحضرت من عندها قارورة بها ماء زمزم، وأخبرت نَفَافَة أنّ تتمضمض به وتشرب منه، ناولتها أيضًا قَصًّا من الملح العريشي لتضعه في حفرة الضرس الذي يوجعها، لكن الألم لم يسكن، وليس هناك من حل آخر بيد عويذة، فكانت تتألم بالألم حفيدتها، ولم يبق سوى حلّ أخير وهو قلع الضرس والتخلّص منه، فالألم لا يزول حتى يزول سببه ويُقتلَع من جذوره، لم تُعيّ الحيلة عويذة، فأدخلت إصبعها لتتأكد من متانة الضرس أو قابليته للتحرك، فوجدته هشًّا وقابلًا للسقوط، جعلها ذلك تضغط عليه وتدفعه بكلّ قوتها، صرخت نَفَافَة التي باغتها ما تفعله جدّتها حين خلعت الضرس المعطوب دون أن تُهيّئها لذلك، بدفعة واحدة سقط الضرس من موقعه فأخرجته عويذة في يدها، والدم يجري من موقع الضرس المقلوع، طلبت منها أن تتمضمض بماء وملح وتدفنه تحت

إحدى الأشجار وتقول «دوكم ضررس عاج واعطوني ضررس حديد»،
فعلت نَفَافَةً ما طلبته منها جدتها وسألتها:

- حَبّوة متى يعطوني ضررس حديد؟

- يا بنتي ما شيء ضررس حديد، بس ترانا مشاركين ما وحدنا.

كانت الأخبار قد وصلت لعويذة بأن خصيف موجود في البلاد، وقد
كان يحضر معه دواء لألم الأسنان ومساويك خشبية، وتوقعت أن
يزورها. لم يتأخر خصيف، ففؤاده يهفو للقائها، لأنّ عويذة أحسنت إليه
في زمن الجوع وزمن اليُتم، فكان طعامه من بيتها، وحين يتأخر كانت
ترسل حمدان بطعامه إلى بيته؛ وحين عافه الناس، كانت عويذة وأولادها
يعاملونه معاملة حسنة، وما نسي ذلك، وفي كلّ مرة يجلس فيها مع عويذة
يذكر معروفها، وفي كلّ مرة يعود فيها إلى الحارة يُحضر هديتين لعويذة
والعجوز صبيحة، يخصّهما بهما دون غيرهما. عرف خصيف أنّ خديجة
استشهدت في القصف الأخير، فذهب إلى عويذة معزّيّاً قبل أن يكون بائعاً
وصورة خديجة لا تفارق خياله، والدمعة على وشك أن تسقط من عينيه.

يسير خصيف متميلاً بجسده المربوع الممتلئ حاملاً الشّوال فوق
رأسه، تسمع عويذة وقع أقدامه على الأرض، فالحذاء الذي يرتديه فيه
قطعة من الخشب تجعله مرتفعاً بمقدار بسيط عن الأرض، تراه قادماً من
بعيد، يتهادى في مشيته، وكأنّه ازداد وزناً عن العام السابق، فخصيف
ضخم الجثة مقارنة بأجساد أهل القرية الهزيلة، تسمع صوته الرخيم:

- هوود، هوود

تركت الإناء الذي كان في يدها وقد استبشرت بقدمه خيرًا، وتقدّمت نحوه:

- قُرب خصيف، تعال، البيت بيتك.

- حيّ أنا قريب.

يقترّب خصيف أكثر وهو يلهث، والعرق يتصبّب من جبينه، يصافح عويذة بيديه الاثنتين المليّتين بالخواتم الفضية، وينحني ليقبّل يدها، يسألها عن حالها وفي عينه المكحولة دمعة على وشك أن تسقط، تبادره عويذة:

- الحمد لله على سلامة وصولك يا خصيف، جيت بيتك ودارك.

- جابني الشوق حيّ عويذة، وجابني الرزق.

- وبعذك تدور في البلدان؟

- هيه حيّ بعدني، زرت كلّ بلاد الله، ما من مكان إلا وزرته ولكن

حارة الوادي ساكنة في قلبي، ألفّ الدنيا وأدور فيها بلاد بلاد،

ولكن مرجعي هنا، هذي البقعة.

قالها وهو يشير إلى الأرض قاصدًا حارة الوادي، ابتسمت عويذة

ونفّاة ملتصقة بها، فانتبه خصيف لوجودها، مدّ يده ليصافحها، فخجلت

الصغيرة من مدّ يدها، نظرت إليها جدتها:

- مدّي يدك يا بنتي، سلّمي على خصيف.

يبتسم خفيف فيلفت نظر نَفَافَة بياض أسنانه وانتظامها إلا من فتحة
متوسطة بين السِّنِّين الأماميتين في الفك العلوي، فلا سنّ طالعة أو نازلة
أو ساقطة، يقول ويده تمسك بيد نَفَافَة والابتسامة لم تفارق وجهه:

- ما شاء الله كبرت نَفَافَة، أتذكرها كانت صغيرة.

- الصغير يكبر يا خفيف، والدنيا تتغير، الله يبارك لنا فيها ويبارك في
ناصر، حتى ناصر صار رجّال.

فرشت عويذة البساط تحت شجرة المانجو، أنزل خفيف شواله،
وجلست عويذة بالقرب منه، قدّم خفيف واجب العزاء، وواسى عويذة
في مصابها بموت خديجة، فأبكاه بكلامه وبكى معها، التصقت نَفَافَة
بجدّتها فانتبهت عويذة إلى أنّها قد تثير الشجن في نفس الصغيرة،
فتداركت نفسها وكتمت آهاتها ومسحت دمعته، ووضعت حجرًا من
الصبر على قلبها كما تفعل كلّ يوم. وبعد أن سألت خفيف عن حاله
أخبرته عويذة أنّ نَفَافَة تعاني ألماً في ضرسها وأنّها قد قلّعت له، ولكنّ
الألم ما زال موجوداً، وخدها الأيمن منتفخ، نظر خفيف إلى نَفَافَة،
وأمرها أن تفتح فمها ففعلت، نظر إلى مكان الضرس المقلوع والتفت
لعويذة:

- حيّي عويذة، أنا ما طبيب، ولكن يعلم الله أنّ الوجع في العج، خلّوها
تمضمض بماء وملح، وأعطيك دواء أبو فاس، قطّري لها منه

قطرة واحدة في قطنة، واتركي القطنة على مكان الضرس المقلوع،
وأشفي بإذن الله.

وفي نفس الوقت أخرج خصيف قارورة صغيرة ووضع دواء في قطنة،
وأمر نَفَاقَةَ أَنْ تضعه مكان الألم، أدارت رائحة الدواء النفاذة رأس نَفَاقَةَ،
وبدأ لعبها يسيل حينما وضعت القطنة المشبعة بالدواء على موضع
الضرس المقلوع، ولكنها شعرت بعد قليل بالخدر وبدأ الألم يخفت شيئاً
فشيئاً.

نظرت نَفَاقَةَ إلى خصيف فرأت تكاثر الشعر الأبيض في رأسه، فهي
تتذكر زيارته لهم قبل عامين في البيت العود، تذكر الفرحه على وجوه
رفيقاتها وهنّ يستعرضن المشتريات الصغيرة التي اشترتها لهنّ أمهاتهنّ
من عقود وأساور، تتساءل في سرّها عن عمره، فلا تستطيع تخمين كم من
السنوات له، بدا لها أنّه أكبر من حمدان وأصغر من أبيها، تلمع جبهته
العريضة السمراء تحت حبّات العرق المتساقطة على وجهه الدائري
الأمرد. ينظر إليها خصيف نظرة حنان وشفقه ومحبة، نظرة أشعرتها بشيء
من الفرح، شعور لم تشعر به منذ وفاة أمّها، تنتظر نَفَاقَةَ أَنْ يفتح خصيف
الشوال، فقد وعدتها جدّتها بأنّها ستشتري لها عقدًا من الخرز الملون من
عنده، ومنذ أن سمعت بوصول خصيف إلى الحارة وهي تستيقظ باكراً
وتجلس في انتظاره، وكلّما سألت جدّتها عنه قالت لها:

- أيجي، خصيف ما يغيب عن بيت عويده وما يتأخر، لكن محبينه واجد.

وقد أتت سالمة لزيارتها عصر أمس وأرتها عقد الخرز الملوّن الذي أخذته لها أمّها من خصيف، وتمنّت أن يكون لديها نفس العقد الذي مع سالمة. تنّبه إليه وهو يقول لجدّتها:

- حيّي، جايب بضاعة جديدة، وإذا تريدي شي للصغيرين، فكلّ شيء موجود.

- جيب ما عندك، وخبرني عن أخبارك وعلومك قبل، وبعدها نشوف بضاعتك يا خصيف.

تستمع نَفَافَة لخصيف وهو يتحدث عن الحياة في البلدان البعيدة التي يزورها والتي لا تعرفها عويده إلا بما يحدثها خصيف عنها، وتتمنى ألا يطول حديثه مع جدّتها كيلا يتأخر في فتح الشوال، فهي متشوقة لتشاهد ما في داخله، لكنّها تستمتع في ذات الوقت بحديثه عن مكة والمدينة والبلدان الأخرى، فخصيف يعرف أماكن لا يعرفها أهل الحارة، أخبر عويده بأنّه أدّى فريضة الحج وأدّى العمرة، فأثنت عليه وقالت له إنّّه محظوظ، وإنّ الله يحبّه بأن جعله يسكن تلك الديار المقدّسة، يخبرها عن الكعبة وأنّه حضر ذات يوم تغسيلها وتغيير قماشها بقماش أسود جديد آخر.

- يا الله حيّي لو رحّت ذاك المكان والله ما بغيتي ترجعي منه.

تتنهد عويده وتسرح بخيالها، فكم تمتّ أن تزور البقعة المباركة قبل أن تموت، تدعو الله في سرّها أن يُيسّر لها الأسباب ويُخرج ابنها من ظلمات السجن ليرافقها لأداء فريضة الحج، فهي تريد أن تلاقي ربها وقد أدّت فرضها.

يلتفت خفيف يمينًا ويسارًا كأنّه يبحث عن شيء حتّى استقر نظره على فراش حمدان وحباله المطوية قرب الفراش تحت شجرة المانجو، فسأل:

- وحمدان موه أخباره؟ وكيف لحيته، قصّها ولا بعدها كما هي؟
- حمدان بخير، لكن أنت تعرف إن حمدان ما يقرب المقص من لحيته.
- ما أذكره لا مطوّع ولا صاحب دين، كنا نترجاه يسير المسجد.
- حمدان رجال، ما عليك منه راح ولا ما راح المسجد.
- أخرج خفيف من شواله مقصًا:
- عجب أعطيه هذا المقصّ هدية مني وقولي له: خفيف يسلم عليك ويهديك هذا المقصّ.
- تناولت عويده المقصّ من يده ثم أعادته إلى خفيف وقالت له:
- تتغدّى اليوم معنا يا خفيف، ولمّا يجي حمدان وقت الغداء ناوله المقصّ بيدك.
- أعاد خفيف المقصّ إلى الشوال وقال لعويده:

- حيي عويده، تراني مشتاق اللبن بو تمخضيه، فإذا كنت لا أثقل عليك أريد ملة لبن بالخبز قبل الغداء، لبن بيتكم غير.
- ما طلبت شيء يا خصيف، اللبن حاضر والخبز جاهز واليوم مخبوز، ولكن تأخذ فنجان قهوة وبعدها أجيب لك اللبن.
- وبعد أن تناول التمر والقهوة واللبن بالخبز فتح شواله المعقود وفرشه كبساط مربع صغير، وبدأ بعرض بضاعته، فصّف صرراً صغيرة في أقمشة ملوّنة على الشّوال المبسوط، وفي كلّ صرة بضاعة مختلفة، تناولت عويده من شوال خصيف عقداً من الخرز الملون ألبسته نَقَافَة، نفس العقد الذي رآته بالأمس مع سالمة وتمنت الحصول على واحد مثله.
- زاهي فيها بنتي. قالت عويده وهي تنظر إلى العقد في صدر نَقَافَة.
- ينظر إليها خصيف، فتحمّر وجناتها خجلاً من ذلك الفرح الذي يلمحه خصيف في عينيها، فيقول لعويده:
- هذا الزراد عطية مني حال نَقَافَة، ما أحسبه مع الحسبة.
- ترفض عويده عرضه السخي، لكنه يحلف بأنه لن يأخذ شيئاً مقابل له، ويقول:
- فرحة اليتيم تدخل الجنة، والله ما خذيت شيء عنه، هذا حال بنت المرحومة خديجة.

(57)

- عيونه ما يشوف بهن شمس ولا قمر.
- قالت عويده لخصيف عن ناصر وهي تتنهد، فتح خصيف صرة صغيرة معقودة، وناول عويده قنينة صغيرة فيها مسحوق بلون الرصاص:
- هذا «لاصف»، يكحل به العين الرمذانة والمتعورة حتى تشفى، كحلي به ناصر عسى الله يشفيه.
- عسى يا خصيف يا ولدي، لكن ناصر ما به رمد ولا تعويرة، ناصر أعمى ما يشوف، فيه مسّ وضر من سكان المكان، سرقوا نور عينه، فما أظن اللاصف ينفعه.
- ظلت يده ممدودة بقنينة اللاصف:
- جريبه، فإذا ما نفعه ما يضره.
- أخبرته عويده أنّ ناصر ذاهب إلى المدرسة برفقة أولاد سيف، وسوف يعودون بعد قليل. لامس روح نفاقة شيء من الأمل بأنّ ناصر سوف يبصر، وأنّ اللاصف الذي ستأخذه جدّتها من خصيف سيكون علاجاً ناجعاً له، فحديث خصيف يشعرها بأن كلّ شيء ممكن، تمنّت لو أنّ لديه دواءً يعيد الأموات من قبورهم.
- أخذت منه عويده اللاصف والكحل وأمشاط الخشب وعطر مكة وأساور ملوّنة، وناولته قيمة ما اشترت، لم يشأ أخذ المبلغ مباشرة قائلاً:

- خَلِّي الغوازي حَيِّي تو، ما يضيع حَقِّي معك.
- ما دام الغوازي موجودات يا خصيف، خذهن، ما أحد يعرف الدنيا، اليوم فوقها وباكر تحتها، وإذا خديجة الله يرحمها أخذت من عندك شيء، وعليها دين خبرني، دينها في رقبتي.
- ما عليها شيء، كانت -الله يرحمها- تعطيني فلوسي أول بأول، لكن بعض الحريم الله يهديهن يأخذن مَنِّي وأصبر عليهن، ولَمَّا أرجع وأسألهن عن حقي يقولن ما خذينا شيء من عندك، وأنا يا حَيِّي صحيح ما درست ولكنِّي أحفظ، وكل شيء أسجّله في عقلي، ومن يريد الحرام، أتركه لما يريد، فمال الحرام ما يدوم.
- صدقت يا خصيف، الله يبعثنا عن الحرام.
- وهما يتحدثان أوصل حمود ناصرًا من المدرسة وغادر، قال خصيف بعد أن احتضنه:
- يشبه خديجة مفصل مقطّع، خسارته ما يشوف.
- مشيئة الله وقدره، وما علينا غير الرضى بما يقدره علينا.
- لا تنسي، اكحليه باللاصف كلّ ليلة.
- وصل حمدان بعد وصول ناصر بقليل، صافحه خصيف وسأله عن حاله ثمّ عاتبه:
- حمدان بعدك ما تزوجت؟
- يوم أنت تتزوج، أنا أتزوج.

ضحك خفيف مقهقهًا:

- عجب ما أتنزج أبدأ.

تحدث خفيف مع حمدان كصديق قديم بينما عويذة تُعدّ الغداء، وبعد أن أكلا مرقّة البيض والبصل مع خبز البرّ، توسّد خفيف شواله وتمدد تحت شجرة المانجو بالقرب من حمدان الذي انشغل بخصياته.

في تلك الليلة، كحلت عويذة عيني ناصر باللاصف على أمل شحيح بعودة النور إلى عينيه، فركهما ناصر وهو يصيح:

- حبّوه الدوا يحرقني.

شاغلته حتى نام بحكاية جدّه ناصر ومغامراته حين يذهب إلى الفلاة ويحضّر الطرائد. لم تعد نفّافة تشتكي من ألم أسنانها، بعد أن وضعت لها جدتها من دواء أبو فاس مرة أخرى وأمرتها بالمضمضة بالماء والملح.

في الصباح لاحظت عويذة أنّ كحل اللاصف زاد من جمال عيني ناصر وبريقهما وكأنّ العينين مبصرتان، سألته إن كان يستطيع أن يرى شيئاً فأخبرها أنّه لا يرى سوى الظلام، تنهّدت واحتسبت ربّها في حاله وحالها.

تزيّنت نفّافة بعقدتها الجديد، واستعدّت مع أخيها للذهاب إلى المدرسة. في ذلك اليوم كانت معظم الفتيات يرتدين عقودًا وأساور جديدة كأنّه يوم عيد، ومع كلّ حركة تهتز الأساور الملونة في أياديهن وتصدر صوتًا. وفي ذلك اليوم أيضًا ختمت نفّافة المصحف كاملاً، فناداها المعلّم وقال بأنّهم سيقومون بقراءة تيمينة احتفالاً بها، وعليها أن تخبر

جدتها بأن تُعَدَّ غداً وليمة بمناسبة ختمها للقرآن. أدخلت نَفَافَة مصحفها داخل الحقيبة القماشية وكانت سعادتها لا توصف بختم القرآن، فقليل من البنات كُنَّ يَخْتَمِن القرآن في الحارة، كانت محظوظة بأخيها ناصر الذي رافقته وتعلّمت القرآن بسببه، ورغم السعادة التي شعرت بها ظلّت فرحتها ناقصة لغياب أمها، وكذلك فإنّ ختمها للمُصْحَف يعني أنّها لن تأتي مرة أخرى إلى المدرسة، أخذت نَفَافَة تفكّر في مصيرها بعد أن ختمت القرآن، فماذا ستفعل وقد أنهت كلّ شيء؟ وكيف سيذهب ناصر بمفرده؟ كيف ستقطع هي عن المدرسة وتجلس في البيت؟ ستفتقد رفيقاتها وصحبة سلامة وحمود.

عادت نَفَافَة من المدرسة وقلبها تتناوشه مشاعر الفرح والخوف، كان خصيف موجوداً في بيتهم يتحدث مع عويده، ركضت إلى جدّتها وأخبرتها أنّها ختمت المُصْحَف، وأنّ المعلم قال بأنّهم سيقومون بعمل تيمينة لها، وأنّ على جدّتها أن تحضّر الوليمة للمعلّم والأطفال. باركتها عويده، وطلبت منها أن تقرأ لها شيئاً من القرآن، فقرأت بصوت عذب ﴿ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون...﴾، أغمضت عويده عينها وهي تستمع لحفيدها ترتّل القرآن، حتى سمعتها تقول صدق الله العظيم، فاعتبرت ذلك نصراً كبيراً لها، إذ أصبح في العائلة فتاة تقرأ القرآن.

التفت خصيف إلى نَفَافَة بعد أن أنهت تلاوتها، ابتسم وقال لها:

- افتحي المُصْحَف؟

- على أي سورة؟

- كما يشاء الله.

فتحتة على سورة الأنبياء، فطلب منها أن تقرأ ما شاءت، فقرأت ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ وآتينه وأهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾. هزَّ خصيف رأسه مع تلاوة نَفَافَةٍ، ولمَّا انتهت أخرج ريشة ملوَّنة من جيبه ووضعها على تلك الصفحة، وذرَّ عليها ذرات كدِّرات الرمل ذات لون ذهبي، لها رائحة عطرية فوّاحة كرائحة المسك:

- لا ترمي هذي الريشة، ولا تغيّري مكانها، اتركيها داخل المُصْحَف وعطّريها من ذرار المسك.

هزت نَفَافَةً رأسها، ووضع خصيف ذرار المسك في قطعة قماش صغيرة وصرّه، وأحكم عقد الصرّة وناولها إياها، وأخبرها بأن تحتفظ بها وتذرّ منه بين فترة وأخرى على الريشة حتى تتكاثر ويبقى المُصْحَف معطّراً.

لاحظ خصيف أنّ ناصر كان يردد ما تقرؤه نَفَافَةً، وسمعه يهمس لجذته أنّه حافظ لسورة البقرة، ويستحق أن يُحتفل به، فوعده جذته أن تحتفل به، وأن تقيم له وليمة كبيرة يأكل منها كلّ أهل الحارة حين يختم حفظ القرآن كاملاً، دسّ خصيف يده في شواله وأخرج طاقية بيضاء وقدمها لناصر، وقال له:

- وهذه هدية لناصر الحافظ للقرآن.

ألبست عويذة ناصر الطاقية وشكرت خصيف.
 قبل أذان العصر بقليل استأذن خصيف من عويذة وأخبرها بأنّه
 سيرحل بعد غد، ودّعها فربّما لن يجد وقتًا كافيًا للقدوم مرة أخرى،
 وطلب منها الصّفح والمسامحة كعادته، فلا أحد يعلم أجله وساعته،
 وطلبت منه عويذة ذلك أيضًا، وقالت كما قال عن شأن الموت والحياة،
 وأعطته ما اعتادت إعطائه إياه، جراب صغير من التمر، وجرة من السمن،
 وجرة أخرى من الحميس الذي تعدّه عويذة بيدها من الشحم وبقايا
 اللحم لذبيحة العيد، وطوت له أرغفة من الخبز وصرت له قليلاً من
 اللوبيا والذرة، فشكرها ذاكرًا أفضالها وحسانتها عليه، واشترى من
 حمدان مجموعة من الحبال والمخاريف الصغيرة. وهكذا خصيف في كلّ
 مرة لا يلبث طويلاً، يبيع بضاعته، ويعرف حاجات الناس للزيارة القادمة،
 ثمّ يحمل الهدايا ويغادر.

في الليل لم تضع عويذة من اللاصف على عيني ناصر، إذ وكت
 أمرها الله رب العالمين، ولم تشأ تعذيبه فوق ما هو فيه من عمى، نامت
 نَفَاقَةً بعد طول سهاد، وهي تحلم بغدها المنتظر، وتفكر فيما سيحضره
 خصيف في الزيارة المقبلة، فجذّتها وصّته بثوب مكة لها وغترة لناصر.

(58)

في الصباح استيقظت نَفَافَة باكراً، صَلَّتْ، سمعت جدّتها تمخض اللبن، وركضت إليها تاركة ناصر في فراشه، جلست بجانبها، تنتظرها حتى تنتهي، تنظر عويده إلى الفتاة التي كبرت وتذكر اسم الله في سرّها، سكبت اللبن الممخوض في آنية نحاسية عميقة، غسلت يدها وبدأت بتجميع كُتل الدهن الطافية على سطح اللبن، ووضعتها في إناء آخر فيه ماء بارد، ثم كوّرتها حتى أصبحت كرة متوسطة الحجم، ومررت إصبعها على تلك الكرة وأعطت نَفَافَة قليلاً من الزبدة الطازجة، قالت نَفَافَة ضاحكة:

- حَبّوة، بعدك تعطيني ألحس الزبدة، أنا ما صغيرة، أمس ختمت الختمة.

ابتسمت عويده بفرح وقالت لها:

- ومن يختم الختمة ما يلحس زبدة؟

لحست نَفَافَة الزبدة وسكبت عويده مخيض اللبن في إناء فخاري وغطّته. هسّت الذباب الذي بدأ يطنّ ويتجمّع على قطرات اللبن المتناثرة على الأرض.

دخلت عويده الغرفة وتبعثها نَفَافَة وناولتها ثوباً جديداً لترتديه وأخرجت لها من المندوس قلادة فضيَّة يتدلّى منها مربع فضيّ مجوّف بداخله حِرز مكتوب فيه آيات قرآنية، وأخرجت لناصر دشداشة جديدة

ألْبستَه إِيَّاهَا مَعَ الطَّاقِيَةِ الْبِيضَاءِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَهْدَاهَا خَصِيفٌ لَهُ. شَعَرَتْ نَفَاقَةً بِاضْطِرَابٍ نَبْضُ قَلْبِهَا لِحِظَةٍ أَتَى حَمُودٌ وَسَلَامَةٌ لِيَأْخُذَاهُمَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَهِيَ فِي كَامِلٍ زِينَتِهَا، فَمَا زَالَتْ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى التَّخْلِصِ مِنْ خَجَلِهَا وَارْتِبَاكِهَا بِمَجْرَدِ حُضُورِ حَمُودٍ أَوْ سَمَاعِ خُطَوَاتِ قَدَمِيهِ عَلَى الْأَرْضِ، شَهَقَتْ سَلَامَةٌ حِينَ رَأَتْهَا:

- نَفَاقَةً، الْيَوْمَ كَأَنَّكَ عَرُوسٌ.

أَرْبَكَهَا إِطْرَاءُ سَلَامَةٍ، فَأَطْرَقَتْ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَخَيَّلَتْ أَنَّ حَمُودَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا. سَمِعَتْ حَمُودَ يَسْأَلُ حَمْدَانَ الَّذِي ذَبَحَ تَيْسًا وَعَلَّقَهُ عَلَى شَجَرَةِ الْبَيْضَامِ لِيَقُومَ بِشَحِيحِهِ وَتَقْطِيعِهِ، إِنْ كَانَ يَرْغُبُ بِمُسَاعَدَتِهِ، لَكِنْ حَمْدَانُ شَكَرَهُ وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدَةٍ. كَانَتْ عَوِيدَةٌ تَعْدُّ الْأَثْنَاءِ وَقَدْ أَخْرَجَتْ الْمَرْجُلَ الْكَبِيرَ وَتَرَكْتَهُ قَرِيبًا مِنْ مَوْقِدِ الطَّبْخِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ حَزْمَةٌ مِنَ الْحَطَبِ اسْتَعْدَادًا لَطَبْخِ طَعَامِ الْوَلِيمَةِ احْتِفَالًا بِخْتَمِ نَفَاقَةٍ لِلْمُصْحَفِ، رَكَضَ نَاصِرٌ نَحْوَ حَمُودَ فَأَمْسَكَ يَدَهُ وَمُضِيًّا، سَارَتْ نَفَاقَةٌ مَعَ سَلَامَةٍ خَلْفَ حَمُودَ وَنَاصِرٍ.

وَصَلُّوا بَاكِرًا، لَمْ يَكُنِ الْمَعْلَمُ قَدْ وَصَلَ، جَلَسَتْ نَفَاقَةٌ فِي ارْتِبَاكِهَا لَمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ زِينَةٍ، كَمَا أَنَّ الْقَلَادَةَ تَثْقُلُ رَقَبَتَهَا. بَدَأَ الطَّلَابُ يَتَوَافَدُونَ، لَمْ يُحْضِرُوا مُصَاحِفَهُمْ وَلَا أَلْوَاَحَهُمْ، كَانُوا فَرَحِينَ بِاحْتِفَالِهِمْ هَذَا الْيَوْمَ، يَنْظُرُونَ إِلَى نَفَاقَةِ الْجَالِسَةِ كَعُرُوسٍ مُحَاطَةٍ بِالْفَتَيَاتِ، تَأَخَّرَ الْمَعْلَمُ قَلِيلًا،

فبدأ الطلاب يلعبون وبعضهم يتصارع، تسلّق سلّوم شجرة القاو كي يراقب المعلم حين يأتي، رأى المعلم قادمًا من بعيد فقال لهم:
- المعلم جاي.

وقبل أن يصل المعلم خلفان كان سلّوم قد قفز من الشجرة، تراكض الطلاب وجلس كلّ واحد منهم في مكانه، وحينما وصل المعلم، كان المكان هادئًا، فنظر إليهم وقال لهم الكلمة التي يرددها حينما يمتدح أحدهم وهو يهز رأسه بفرح:
- شباش عليكم.

تغامز حمود مع مبارك وضحكا، نادى المعلم حمود ومبارك وأمرهما بتنظيم الطلاب في صفين منتظمين، الأولاد في صفّ والبنات في صفّ وبين كلّ واحد منهم مسافة يد، لكي يقوموا بمسيرتهم لقراءة التّيمينة في طرقات الحارة وبين بيوتها، احتفالًا بختم نَفَاقَة للقرآن، انتظم الطلاب وكانت نَفَاقَة في مقدّمة صفّ البنات وحمود في مقدّمة صفّ الأولاد ممسكًا بيد ناصر، والمعلم خلفان يتقدمهم.



بينما كان خفيف يسير في جولته إلى البيوت لبيع بضاعته المتبقية، سمع ضجيج الأطفال مُرَدِّدين التّيمينة خلف المعلم خلفان، فوقف ليستمع إليهم، يعجبه الصوت، وتستهويه الكلمات التي يسمعها، وضع شواله وجلس على صخرة يراقبهم من بعيد، كان يتمنى في صغره

المشاركة في التَّيْمِينَة، لكنّ الأطفال كانوا يزعمونه فيجفل منهم، تخيل نفسه يسير بينهم وهم يسرون سيرًا بطيئًا في طابور منتظم، يرتفع صوت المعلم خلفان عذبًا جميلًا والأطفال يرددون خلفه:

«الحمد لله الذي هدانا آمين

للدين والإسلام واجتباننا آمين»

ويردد خصيف معهم: آمين، تُفْتَح الأبواب والنوافذ، وتُطَلّ الرؤوس منها، ينظر الجميع إلى تلك المسيرة بقيادة المعلم خلفان، يتأثرون لسماع التَّيْمِينَة، ويرددون معهم: آمين، يباركون ختم نَفَاقَة للمُصْحَف.

يواصلون طريقهم ويدخلون الحارة القديمة في السكّة بين البيوت المُهْدَمَة، ويواصل المعلم إنشاده بلحن شجّي وبصوت عذب لأمس قلب خصيف، حتى طفرت دمعة من عينه فأخذ يردّد معه بصوت خفيّ:

«سبحانه من خالق سبحانه آمين

بفضله علّمنا القرآننا آمين

نحمده حقّه أن يُحمدا آمين

حمدا كثيرا ليس يُحصى عددا آمين»

يردد الأطفال كلمة «آمين» وراء المعلم بحماس شديد، وخصيف يردد معهم، تتجاوز أصواتهم النوافذ والأبواب، وأسوار المزارع، وحدود الفلاة والوديان. أصواتهم الشجيّة العذبة تدخل البيوت بلا استئذان، تتردد كلمة «آمين» في جنبات الوادي، وتعانق عنان السماء. يتعمّد المعلم أن

يأخذهم في طرق مختلفة ودروب طويلة بين البيوت، كي يتسنى لهم قراءة التيمينة كاملة ويسمعهم الجميع.

يستعيد خصيف ذكرياته حينما كان طفلاً يختبئ في العريش الذي سكنه مع أمّه بعد طردهم من بيت الشيخ، يرى خصيف الصغير الذي ظلّ يرافق أمه وهي تدور بين بيوت الحارة بفقير تبع فيه مستحضرات وخططات للنساء، تصنعها بيدها، مساحيق الصندل للوجه والجسم، والشبّه والمسك للإبط، وتصنع العلكة من اللبان الذكر لرائحة الفم... كانت بارعة في معرفة نقاط ضعف المتزوجات، وما ينقص المرأة، وما تحتاجه، ولولا ذلك لطُردت مع ابنها من الحارة. كانت تعتمد عليه في توصيل البضاعة إلى بعض البيوت، وكان يراقب ما تفعله أمّه، وكيف ترفع السعر مع هذه، وتخفض السعر مع أخرى، وتجادل تلك في بيسة، ومنها تعلّم فنّ التجارة.

عرف خصيف عن النساء أكثر ممّا عرف عن الرجال، فكان يأنس لأحاديثهنّ ويسمع مشاكلهنّ وأسرارهنّ، حين يتحدثنّ مع أمه في وجوده. وعندما كبر لم يظهر له شارب أو لحية، ولم يخشوشن صوته بكفية أقرانه، بل برز له نهدان، فأنكشف للجميع أنّه خنثى، ما كان رجلاً مع الرجال ولا امرأة مع النساء، وزاده ذلك عزلة وبُعداً، وخصوصاً حين مرضت أمّه بعد أن تشنّجت عضلات وجهها، وجفّت عيناها وأصبحت عاجزة عن غلقهما. شخّصت العجوز صبيحة مرضها وقالت إنّها مصابة «بأبو

بريقع». بقي خفيف ملازمًا لأمّه يدهن جسدها بزيت الشّوع ويبخرها باللبان، لكنّ حالتها كانت تسوء يومًا بعد يوم، فأصابتها رجفة في يديها ثم تبيّست عضلاتها وضمّرت، وظلت راقدة على فراشها حتى وافاها الأجل المحتوم.

اعتزل خفيف الناس، حتى حمدان وصالح وسيف - وكان يأنس إليهم - ابتعد عنهم، عاش على ما يرسله إليه المحسنون. وجد بعض الصبيان في وحدته فرصة لاستغلاله؛ دخلوا عليه العريش، تحسسوا جسده، تحرّشوا به وهو لا حول له ولا قوة، ظلّ مُهانًا ذليلاً حتى ضاق به الحال وما عاد يحتمل، كره جسده وأبناء الحارة الذين لا أحد يردّعهم عمّا يفعلونه به، ذهب إلى صبيحة غاضبًا، أصرّ عليها أن تخبره الحقيقة التي يعرفها الجميع إلّا هو، الحقيقة التي تجعلهم يحتقرونه كلّ ذلك الاحتقار ويعاملونه تلك المعاملة، أراد أن يعرف حقيقة أمّه وحقيقته، فحدّثته بعد إصراره الشّديد بكلّ التفاصيل التي أراد معرفتها والتي لم يُرد.

طلب مشورتها، فأخرجت له صُرة، نصحته أن يعتمد على نفسه، فهو لم يعد صغيرًا، وأن يبحث عن مكانٍ جديد يبدأ فيه حياته بما تركته له أمّه من قروشٍ في الصُرة: «لا تعيش في مهانة يا خفيف، أرض الله واسعة، اسمع وافهم ما يقول الشاعر:

وإذا الديارُ تغيّرت عن حالِها فدع الديارَ وبادرِ التحويلا
ليس المقام عليك فرضًا واجبًا في بلدةٍ تدعُ العزيزَ ذليلا

حفظ بيتي الشعر، وردّدهما بينه وبين نفسه، فعرف القرار الذي يجب عليه اتخاذه.

عاد خفيف من ذكرياته الموحجة، فانتبه إلى أنّ الأطفال ومعلّمهم قد ابتعدوا كثيرًا، وما عاد يستطيع رؤيتهم، ترقب عينه درب حارة الوادي وبيوتها القديمة وفلجها، وضواحي نخيلها الباسقات، يسمع أصواتهم مردّدة التّيمينة وراء المعلم:

«علّمني معلّم ما قصّرا آمين

ردّدني في درسه وكّررا آمين

إني تعلّمت كتابًا أكبرا آمين

حتى قرأت مثله كما قرا آمين

وظلّ يردّد معهم بعد كلّ مقطع: آمين.

شريعة التوبي

- روائية وقاصة عُمانية.
- صدر لها:
 1. "المقعد شاغر"، مقالات، بيت الغشام للنشر والترجمة، مسقط، 2014.
 2. "نثار"، نصوص قصيرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2015.
 3. "سُعاد.. رسائل لم تصل"، من أدب الرسائل، دار سؤال، بيروت، 2016.
 4. "في قلبي شجرة، مقالات"، مؤسسة بيت الغشام للنشر والترجمة، مسقط، 2017.
 5. "عين السواد"، قصص قصيرة، دار سؤال، بيروت، 2017.
 6. "سجين الزرقة"، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمان، ط 1 2020، ط 2 2021.
 7. "انعكاس"، مجموعة قصصية، إصدارات مجلة نزوى الثقافية، مسقط، 2020.
- فازت روايتها "سجين الزرقة" بجائزة الإبداع الثقافي لأفضل الإصدارات لعام 2021م (الدورة الثانية عشرة)، التي تقيمها الجمعية العمانية للكتاب والأدباء.